ضروب دراستنا ، وما يتبعهما من تشعبات وافضان يسندان الاهمية التي اعترضتنا في الفصلين السابقين فمن ذلك ادوار اللغات ونشوء العربية ثم التطور في اللهجة وقد طبقنا كل شيء على العربية ، وقد عنينا باللهجة شكل اللغة المتطور من الصوتي الى اللفظي ، وهنا نصوغ الفكرة .

ا ـ نظرية التطور :

لقد مرت اللغة العربية كغيرها من اللغات في ثلاثة ادوار كما افصحنا سابقا ، دور المقطع ، والمقطعين ، والمقاطع وهذا يعني انها جابهت تطورا من الاحادي الذي كان مجموعة حروف الجدول الهجائي التي تمثل لغة الانسان الاول المعرض في القدم .

ومنها صارت الى الثنائي والثلاثي حيث استقرت فيه ونشطت في حلقات خمس ومن هذه النشاطات كان الرباعي والخماسي والسداسي .

فاللغة كانت كما اسلفنا بتطورها صوتية ، ثم لفظية لكنها في تطورها الصوتي احتفظت بعدة وجوه صوتية بسبب مغادرة العربي لجزيرته من جهة وبسبب الذين تناولوا اللغة ، وكان طابع مدرستهم الجمع فقط، ثم الوقوف في وجه كل اجتهاد يرمي الى تحرير اللغة من الاثريات القلقة في الافعال والموازين ، والجموع الا ان خلاصة قولنا ان اللغة العربية تطورت لغة ولهجة ، ولكنها توقفت قبل بلوغ ما كان يقصده العربي منها .

ب ـ اللغويون الاولون :

لدعوى التطور من قبل **اللغويين الاولين** صفة ذات اهمية ، ولرايهم الخاص بهم ، كذلك اهمية نعلق عليها املا كبيرا اذ ان الذين يبدون اراءهم بتطور اللغة ليسوا ممن نبذتهم الحياة ، بل من اولئك الذين عرفوا كيف يبدون رايهم وفي هذه الاراء زبدة دسمة نحن بحاجة ماسة اليها والى معرفتها والاطلاع عليها .

قال ابن اسحاق: وان الزيادة في اللغة العربية امتنع العرب منها بعد بعث الرسول العربي (ص) لاجل القرآن . وان معنى هذه العبارة صريح وواضح ، وهي ان العربية كانت خاضعة للتغيير المستمر ، فاللغة بين الزيادة والتنقيح على سنة غير متخلفة ، وهذا هو الغرض المقصود من التطور .

ولهذا الامتناع عن الزيادة وعزو ذلك الى القرآن الكريم ، انه نظم حواشي العربية ، واخضعها لقانون بياني ثابت وامات ما هو متراوح الغوص فيها، وانعشها بحيوية اخرى جديدة .

على ان ابن اسحاق لم يفهم السر الصحيح لهذا الانجرار وقد صرحت به غير مرة من المقدمة. وهو توزع العرب في الانحاء ، وتناول المدرسة اللغوية العربية على وجه خرج جدا من النطاق اللغوي .

فالقرآن هو الذي اعتمد لغة قريش في افصاح محتوياته ، والذي امات منها القسم الفوضوي وقد **رجع بعض اللغويين** الى اعتماد تجديد هذه الفوضى .

وخلاصة القول بان التطور عمل عمله في مادة اللغة كما عمل في صورتها ، وكان من ابرز ما قام به من اعمال منتجة في حروف الاعلال .

ـ من ابرز القوانين التي وقفت على تاريخ ماهية اللغة هي :

ا ـ ان لقانون منع الانتقال من الكسر الى الضم اقدم من تمام تحلل اللغة من الصوتية الى اللغوية .

ب ـ كان لابدال حرف اللين الهمزة تخلصا من الصوتية ، وليد ضرورة وهو متاخر عن قانون منع الانتقال .

ج ـ ان قانون الاتباع بالحركة متاخر جدا .

ان لكل قبيلة نطقا خاصا ولهجة خاصة بها،وكلمات تختلف عن كلمات الاخرى ، فمنهن من نطقت بـ نئدلان، وكذلك اخرى تقول زئبر ، فهذه الكلمات متخلفة تمام التخلف عن الارتقاء والتطور اللغوي واللهجي . اذن فالاستناد الى معرفة التطور من خلال قبيلة واحدة او من خلال قبائل خطا ، فيجب على من نصبوا انفسهم لهذه الدراسات **ان يجعلوا معلوماتهم صحيحة ويقارنوها** الى محيطات متطورة ومتحضرة وليس الى محيط خاص بجماعة معينة بل ان يعرفوا المحيط المتطور ثقافيا ، واجتماعيا ، ولغويا ويلجوا بابه لمعرفة مدى تطور لغته ، وان يقارنوا هذا التطور مع تطورات اخرى من جهات اخرى لمعرفة النسبة التي سوف تكون نتائج حاسمة بالنسبة لهذه الدراسات .

ج ـ تطور الافعال :

لقد سبق لنا ان بينا قاعدة الافعال في الاثريات المحفوظة من بقايا اللغة وبسطنا معقول العربي في

تسوية الاختلاف بين ابواب الماضي والمضارع ، ونحن نتناول الان الفكرة بشكل اوسع من خلال الكلمات واليك بعض النماذج :

1 – دراك ، هيهات ، وى واننا نقول بان دراك اسم فعل أمر بمعنى ادرك وهيهات اسم فعل ماضي بمعنى بعد ، ووى بمعنى اعجب بكذا

وان كلمة دراك وامثالها بقايا تمثل الفعل الامري قبل تهذيبه على الشكل الذي وصل الينا .

2 – يراع ، ينبوع وهذان يعبران عن صورة الافعال في العهد الصوتي .

– يراع : فعل ماضي متخلف ...

– ينبوع : فعل مضارع متخلف ... ايضا ، ولكنهما ليسا على خلاف مع الوضع الذي استقر عليه الفعلان مما يدل على ان ترتيب الافعال على وضع مهذب سبق تمام التحلل الصوتية ، ولكن ما زالت الخلافات بين الافعال الماضية والمضارعة ، وقلنا بان هذه الافعال هي افعال اثرية ، والواقع ان اختلافها كان له مفهوم في طبع العرب الاقدمين، لان شكلية الحروف كان لها تاثير في تمام له مفهوم في طبع العرب الاقدمين لان هذه الشكلية كان لها تاثير في المعنى واتمامه .

لقد ادركت اللغة العربية عهد الاصلاح والتهذيب، وحاولت التخلص من الاختلافات المذكورة التي لم تعد لها اى معنى في الوضع الاخير .

3 – وهل ويوهل : ومن معانيه الوهم والخطأ والضعف والخوف .

– واول وهلة : اول شيء والمثال يلي ما قدمنا ويظهر فيه عمل التطور بنقله الى باب : فعل ، يفعل

واعتبارها اصلية فيه ، وعلى قلة وشاذة في **باب فعل يفعل** ، وهذا المثال متخلف لوجهين :

1 – التصحيح مع موجب الاعلال .

ب – الدوران بين بابي طرب يطرب ، وحسب يحسب ، ويظهر من هذا ان العربي فكر بتوحيد الابواب قبل تمام عمل الاعلام ولذا نقدم المثال الاخير والارقى

4 – وثق يثق : ومصدر هذا الفعل هو الثقة ، والوثوق ، والموثق ، ومعناه الائتمان ، وهذا المثال ارقى من سابقه لانه جاء من باب موات مع الاعلال الذي هو تمام العمل الارتقائي ، كما تشهد عبارة الفيومي في كتابه المصباح ، وتصدق كل ما رايناه وجئنا به .

وخلاصة القول في هذا الموضوع اننا نستنتج مما تقدم :

– ان الصور التي عليها الفعل على اختلافه مهذبة سبقت بصور اميتت وآخرها ارتقاء الامر ، ثم استقر في انه يتبع المضارع .

– ان تهذيب الافعال سبق التحلل من الصوتية.

– ان توحيد ابواب الافعال متاخر عن التحلل من الصوتية .

– الاعلال متاخر في الطبع العربي .

تطور اسم الفاعل

وجدنا مما تقدم في بحثنا عن تطور اللهجة ان صيغ اسم الفاعل ، فاعل ، فعيل ، فعل ، تستوي كلها في اصل الدلالة ، وانها ارتقاءات عن فاعيل المات قصد ببعضها التنويع وبالبعض الاخر الاماتة .

ونرى بان الفرد العربي كان قصده طرد الفاعل في كل ثلاثي **مجرد بدون نظر** الى الابواب ، واذن لا حاجة لاختلاف اللغويين في ابحاثهم حول صيغة (ايها القياسي) وحول ابحاثهم في اسم الفاعل من الثلاثي المجرد .

فصيغ اسم الفاعل تطورات تفيد افادة واحدة ، وقد قصد العربي ان يعرض بها على كل المواد اللغوية، فحال بينه وبين قصده ما ذكرناه من مغادرة الجزيرة، وعمل اللغويين المحافظ ، فاكتفى بما وصل اليه وامر الاكتفاء معروف عند اللغويين الاولين فقد قالوا في المصدر من الفعل ان العرب استغنوا في بعضه باسماء وقعت موقع المصادر كما في وصاة مكان توصية وزكاة فاضاف تزكية وصلاة مكان تصلية .

تطور الاعلال :

الاعلال وسيلة لبقة وسامية، والاعلال يفيد المعنى الطبيعي ، كما في طال : فانه يفيد الطول بنمو طبيعي، واما التصحيح مع موجب الاعلال فيفيد المعنى بتكلف او باضطراب ، كما في طول فانه يفيد التكلف في الطول.

الارتقاء في تطور الاعلال فيعود الى الامثال :

1 ــ هوية وتعني صوت الذئب ، وتعتبر اقدم الامثلـــة .

2 ــ الاتمام : منها ما هو مكسور ومنها ما هو مضموم ، فالاتمام ليس حركة كانت في اللسان العربي كما توهم اللغوي عبد القاهر الجرجاني ، في كتـــاب الايضاح ، ويظهر ان الاتمام اعلال بين ايدي التطور ، فمثلا نطقت اول مرة شوق .

ــ ثم اعلت باتباع الواو للحركة فقيل : شيـــق وفي ذلك اتمام فالاتمام يعني نطق الضمة قبل الياء مع خفة المتكلم .

ــ وخلاصة قولنا في تطور الاعلال هو : ان العمل كان على التصحيح اقدم عهود اللغة .

ــ ان قانون الاتباع هو قانون الاعلال الصحيح.

ــ ان الاتمام الى الضم اعلال اولي وليس بحركة زائدة اميتت .

ــ ان الاتباع يعمل في الاعلال على التناسب ولو لادنى ملابسة .

والخلاصة ان التطور اللغوي يرجع الى شعبتين اساسيتين : يتفرع عنهما كل شيء يتعلق بالعربية مادة وصورة ، وهاتان الشعبتان هما :

1 ــ اثر التطور في الاسلوب البياني .

2 ــ اثر التطور في الشعر .

1 ــ فالتطور الاول وهو الاسلوب والبيان ــ فهو معين تاريخ النشوء اللغوي وتطور اللهجة : فالدراسة العميقة في البيان والاسلوب البياني قادنا الى :

أ ــ كان الجدول الهجائي بحركاته لغة للانسان القديـــم .

ب ــ نشات العربية نشوا تطوريا عن الجدول ، فالاحادي اصل الثنائي وهذا اصل الثلاثي .

ج ــ تطورت العربية اللفظية عن اصلها الصوتي على ادوار متعاقبة .

وعلى هذه النتيجة ومراقبتها نتائج النظريـــة : فالبيان ، يساعدنا على مراقبة مقدار المسافات التـــي عملها التطور في اللغة على مختلف الانمـــاء ســـواء في الاشتقاق ، والاعراب والموازين والاعـــلال والافعـــال والمصادر وتطلعنا على تلك المســافات التي بقيـــت واضحة في منطق القبائل المختلفة ، ومنطق القبيلـــة الواحدة وبالتالي نقف موقفا مخالفا من علماء البيـــان فهم يبتدعون لها وجوها من التعليل، كاختلاف القبيلة، تداخل اللغات ، والضرائر والشـــذوذ والغلط ، وغير ذلك من حيل المتحيل .

ان التطور الذي قلنا عنه في المفردات يصـــدق عمله في الاسلوب والبيـــان على شتـــى اوضاعهمـــا ، فكتاب (المجاز) لمعمر بن المثنى المعروف بابي عبيدة يعالج التطورات المختلفة في هذه الناحية التي سماها مجازات اي اساليب ، والحق انها ابعد ما تكون عـــن معنى التسمية ، وما هي عند البحث الا تطورات وبقايا من مجازات انقرضت .

2 ــ اثر التطور في النظم والشعر :

حتى تطور الاوزان الشعرية لم تفلت من الانصقال والتشذيب، ولكي يتسني للباحث ان يربط بين بحور الشعر العربي القديم ، فهنالك ابحر اميتت ، ان الشعر انتهى الى نتيجة خطيرة وهي ان البيان العربي ابتداء نظميا وتطور كذلك اخذ نحو التحلل ، وكان من آخـــر البحور المرتقية ، الخفيف وما اليه ، والرجز المرصع الذي منه تحللت الاسجاع وبدل على التحام الترصيع الشعري والسجع عند الشعراء وعليه فيكون السجع بين الشعر والنثر .

فمن هنا انبثقت القصيدة النثرية ، وهي التي تاخذ طريقا نحو الارتقاء في عالم القصائد .

اثر القرآن الكريم في التطور :

ان القرآن تناول العربية ولما تستقر ، بحيث كان سببا قويا في تهيئة الاستقرار على اكمل وجوهه :

ويوجد في النص القرآني شتـــى التطـــورات النثرية ، حتى يكاد يحتبك النثرية ، حتى يكاد يحتبك النثر بالنظم في بعض السور « انا اعطيناك الكوثر » ، وهذا يعني بان القرآن يجمع بين مختلف السور البيانية ويأتي بها على نحو معجز جدا ثم يسوق اسلوبا جديدا لا ينتسب الى بيان العربية بحال ، وربما كان في اجتماع هذه السور الشتـــى من الاساليب في القـــرآن على مسحة متسامية ، سر اعجاز القرآن الصحيح.

وان الروح القرآنية والاسلوب القرآني، فقولنا في ذلك ان روح البيان فيه مختلفة واجدر بنا ان ندرس

بيان القرآن لانه الوثيقة السامية فى البيان والاسلوب العربي حتى نطبع به على الدوام فاشد الكتاب تطرفا عنه اشدهم تعلقا به على الحقيقة ، لان البيان غذى القرآن والغاية، ان القرآن امات الفوضى فى اللغة واجبرها للانصياع لقانون بياني ثابت ، ودل فيما دل على تطورها ، كما اوضحنا فى الفصول الاولى لنظرية التطور اللغوي :

ونستخلص من استعراض التطور فى اللغة وجوه التخلف اللغوي الذي رافقنا خلال دراستنا .

فالعربية لم تزل على فوضى من الافعال والمصادر والجموع والموازين ، ولن تستقر على ما كان ما يريده العربي من لغته ، ولن تطمئن بين اشياء المستقبل الباقية .

الا بازالة ما بقي متشبثا بها من علائق الفوضى بسبب ظروف العربي ومغادرته لجزيرته .

وبسبب اللغويين وتشددهم فى السماع وفى ما يكتم العربية ، ويمنعها من الانفتاح على الحياة اللغوية العصرية والمستقبلة .

التنقيح فى اللغة العربية

فى الفصول السابقة التي اوضحنا فيها تطور اللغات ونشوء العربية فى المقدمة ، رأينا عمل التطور فى الغربية خلال هذه الفصول ، ان العربية تجاوزت حدا بعيدا دون ان تنتهي ، ولكنها مع ذلك اخذت بالاستقرار شيئا فشيئا واستمدت فى سيرها ما تدعو اليه الحاجة من موازين دخلتها الزيادة الصرفية كافتعل وما اليه ، ولقد يكون الاخذ الجديد الذي تدل عليه العربية ، من اقرار الموازين بدلالات ثابتة، واقرار الافعال على باب واحد ، وكذلك المصادر والجموع وهذا يعني الوصول بالعربية الى المستوى الذي كادت تبلغه لو بقيت فى محيطها بدون براح .

ولكن الامر الذي يضع اللغة فى مواضيع قلقة وبصورة تكاد تجعل منها لغتين :

1 ـ لغة القرآن الكريم :

ب ـ اللغة التي تبتدأ بالقرن العشرين .

وقد تتفاوت كلتا اللغتين تفاوتا يكون لا اقل فى اساليبه ومفرداته من اللاتينية والفرنسية هذا هو موقف اللغويين التقليدي وهذا هو رأيهم فى امر اللغة العربية ، وهذا الامر المتناقض ، وتهجمهم على اللغة العربية تهجما يجيزه هذا الدرع الذي يأخذون الناس به ، واعني به جمع لغات الجزيرة ، وبكلمة ادق تعبيرا لهجات الجزيرة ، والمداخلة بينها ، مداخلة مطلقة ، بغير تمييز ولا تنبيه ، بالاستنتاج منها مجتمعة قواعد اللغة فى حين انهم شهدوا بالاختلاف فيما بينها بصورة مؤكدة ، وهذا الموقف التقليدي لم يلج بابه المحدثون .

ـ ولا نكون على مقربة اذا قلنا بان موقف اللغويين المتفاوت باسباب اهمها ، عدم تفاهم لغويي البصرة والكوفة واتخاذ الخلاف بينهم صبغة تعصبية صرفا .

فلقد تشددوا بمنطق الاستماع وعدم الحفظ اخذا على مذاهب الخصوم ، ان هذا الافراق الشديد فيه هو من جراء التعصب القائم والتحامل البالغ ... وهذا ماخذ شعروا به ، ولكنهم **دعوه تنقيحا** .

وينتظم التنقيح للغة العربية باربعة ادوار :

1 ـ كان بما قدمته قبيلة يعرب بن قحطان .

2 ـ كان بفضل اسماعيل لما اصهر الى جرهم .

3 ـ بمعونة قريش بالتدريج انتخابا من لغات قبائل العرب التي كانت تفد عليهم فى كل عام .

4 ـ كان بعمل علماء المصرين ، الكوفة،البصرة، اذ قصروا اختيارهم على لغة قريش وست قبائل من صميم العرب ، لم تحتك بغيرها ...

ـ التنقيح الجديد :

ان الظروف التي رافقت العربي **بعد هجرته** من جزيرته ، وبعد مواقف اللغويين الذين خرجوا عما كان يقصد من لغته، فى هذين السببين يكمن مرض العربية الذي قصر بها مطالب العصر ، ناهيك من مطالب المستقبل ولا شفاء لها الا بمعاودة الدرس مرة ثانية وتنقيحها تنقيحا جديدا لا يخرج عليها بالاساس ولا يقصر بها من مطالب العصر ، وتطور المستقبل . ولا باس بتسمية ما نحاوله تنقيحا كان يكشف وحده حقيقة الماضي وينير طريق المستقبل ومن ثمة اصبح ضروريا ان نقول ما هي الاهداف الاساسية التي تلخص التنقيح الجديد .

اهـــداف التنقيـــح الجديـــد :

ان من اهداف التنقيح الجديد ان :

1 ــ نحذف السماع من اللغة العربية الا بالمعنى الذي سنقرره فيما يلي : وهذا يعيننا ان نخلص العربية من عوائق الفوضى في افعالها ونقرها على باب واحد هو باب ضرب يضرب ؛ وفاقا لما اوضحناه فيما قبل.

كذلك يجب ان ناخذ بعين الاعتبار بان التنقيح يجب ان يجارى معقول العربي في لغته ، ان في قواعد الاعلال او في كل ما يتفرع عن بحث الافعال : ثلاثية وغير ثلاثية من اشتقاق وغيره ...

2 ــ يجب ان يسمح بصوغ موازين الثلاثي كان، وكذلك الرباعي وموازينه ، لان التزايد المستمر في اللغات السامية يخضع لقانون الاشتقاق اى الموازين او قل التحرك من الداخل، لان العربية غنية في موازينها التي تبلغ الثلاثمائة للثلاثي الواحد ، كما اعطانا اياها سيبويه في كتابه النحو الضخم .

3 ــ تخصيص هذه الموازين مفردة او مجموعة بدلالات قارة ثابتة لا تختلف على اختلاف المواد، ففعال يخص بما يدل على الزائدة الاجنبية auto وفعالية يخص بما يلاقي في الاجنبية ism وبذلك تسهل مهمة الوضع الجديد ويكون اكثر علمية ، كما راينا في وجوه التخلف .

4 ــ توحيد المعاني في المادة الواحدة ... ونعني بذلك جعل كل معاني المشتقات من مادة ما معاني لها سواء اكانت مجردة ام مزيدة ، مما يصـــح معـــه اشتقاق المجرد من المزيد وبهذا تزيد الوحدات المادية للمادة الواحدة .

5 ــ الاستفادة من قاعدة الدوائر او القاعـدة الدائرية ، بوضع مواد جديدة لم يسبق للعرب انهم وضعوها او وضعوها واميتت ...

6 ــ الاستفادة من سنة الرباعي وما اليه بزيادة الحرف على الاخر بعد تحرير معاني الحروف الهجائية

7 ــ المعاقبة او الابدال .

ان الهدف الخامس والسادس والسابع هي ذات اهمية خطيرة في نتائجها .

ومن مجموع هذه الاهداف التي جاء بها تنقيحنا الجديد للغة العربية : وضع المعجم العربي بطريقـــة تلبي بمتطلبات وحاجات العصر وتمد المستقبل بمـــا يحتاج اليه ، وعلى تفصيل هذه الحاجة المزدوجـة ، وايضاح الشكليات اللغوية من خط واملاء ، وبيـــان ومعان ، وعروض ، وبديع وصرف،ونحو وسجع وغير ذلك من التابعيات ، كالاعجاز والتضمين ، والفك ، في حمل الادغام للدلالة والتصحيح في موجبه الاعـــلال لغرض ما .

مستقبل اللغة العربية

1 ــ داء العربية ودواؤها :

ان الفن كله قضية تعبير . والانسان الخالد كله قضية تعبير .

وقد قيل ان العربيـــة لا تتنـــاول من شؤون الحياة ما نحسه ونشعر به ، وتفتقدون البيان عنه بأى الفاظ من اية لغة فهي جديرة بان لا تكون الا في متحف يكتفي الناس منها بالنظر اليها . وانني غير مطمئن الى ان الجماعة تقرر فكرتها على هذا النحو ، ولكنها تعني معنى آخر هو ما سبق لنا ان ما تكهناه وهو ان الجدير بكلمة العربية هي : مجموعة الكلمات التي تضمنهـــا المعاجم بالنقل عن لسان العرب قبل ان عراه ما عراه، وهذا الوضع الحرج الذي وضعوا فيه العربية ، الحق بها فيما ارى نتائج كاسواء ما تكون نتائج ومن اهمها :

1 ــ قصور العربية عن تناول مقتضيات الفكر، ولا ادل على هذا من عرض مجموعة كلمات الاصطلاح في اللغة العربية (المادة والجهة والموجهة) وقد ذكر في تعريفها ان كيفية النسبة في القضايا (مادة) واللفظ الدال عليها (جهة) والقضية الواقع فيها هذا اللفظ (موجهة) .

2 ــ جمود اللفظ في معناه فلا تجد فيه شيئا من المرونة والبساطة كما يجب ان يكون ، بل تشعر بانه ينكمش في طبيعته حتى يعود اشبه شيء بالحصاة مهما تقاذفتها السيول تبقى كما هي حصاة غير متحولـــة شكلا ولا اعتبارا ، ومن هنا اتهم بعض مستشرقـــة الافرنج ، اللفظ العربي بانه (كليشة) لا اكثر وسمي العربية (لغة الاكليشات) .

ــ نشوء العامية : وقد يرى عجيبا ان يعد تشدد اللغويين للغة هذا التشدد جر الى نشوء العامية ، او كان الاثر الفعال اليها ، ولكني على ما يرى من عجيب اؤكده بصورة لا تقبل الريب وذلك لان الوقفة المتزمتة

بهذا الشكل الذي لا يكفل حاجة الناس ولا يعبر عن اغراضهم اليومية وهي لا تنفصل منهم بحال أو لا يتأتى لهم ان ينفصلوا باى وجه ، جعل العامة يهجرون تباعا هذه اللغة التي للخاصة رغم انها لغة التشريع والابتهالات ورغم أن العامة لا تهجر عادة اللغة التي يتميز بها الخاصة الا لاسباب ماسة لها حدتها ولها عنفها .

فالانصراف الذي نلمسه في العامية قد كان اذن لاسباب لا يحقر ابدا شأنها .

وكيف تحقر وقد سببت انصرافا عاما ، ولقد أوخذ بأن هذه النتائج التي لرتبها اذا سلم بأن العامية نجمت عن الانصراف المذكور ، ولم تكن لاسباب اكثر وضوحا مثل الدخيل والامتزاج .

الا ان الاعراب ليس وحده فارقة اللغة وميزتها وربما كان أقرب الى الظاهرة بمعناها الصحيح ، والمفردات المتميزة المنتقاة ، التي تشمل عليها لغة الخطاب .

ـ ان الفوارق في اللغة قد حملت الواضع على اختصاصها الا اذ ان الفوارق هذه تلبدت على مد التطور وغابت عن متناول الرواة ، وقد يقوى هذا الظن ان تكون آخذة شكلا تقنيا ، اذا ما تفحصنا هذه الكلمة تراها رجعت الى تقن العربية التي جاءت بمعنى الطبيعة والمواقف من كل الجهات ، على منحى موزون خذ مثلا ، (فعفعيل) الذي يظهر ان اصله (فيعل) (وفعليت) الذي يرجع الى (فعل) و (فعلين) كذلك وهكذا مما سنأتي على ابداء الراي به جميعه ، باعتماد المقارنة التشاكلية ، وان كنت اقطع باني مع هذا لا امثل تمام معقول العربي فيها ولكني اطمئن اليها على اي الاحوال .

الا أن الملاحظة التي لازمتنا في دراسة الموازين ، ان العربية كانت تصدر عن لواحق تزاد على الوزن اذا كان المراد الافادة عن معنى اللاحقة زيادة على معناه ، بدليل السوابق وما لها من المعنى المعتبر في العربية كسابقة (است) في استفعل التي تفيد الطلب او الصيرورة او العد . واظن بأن هذا يقطع عرق النزاع كما يقولون من انه كان في العربية سوابق ولواحق لم تتوضح تماما عند قدامى اللغويين .

واننا لا نريد ان نغوص في اشياء نحن بغنى عنها لاسباب وجاهية .

1 ـ انها خطوة واسعة تشبه الطفرة التي لا تخلو من البعثرة والفوضى ، وليس ذلك من عدم صدق النظر وانما من عدم سلامة التطبيق من وجه ، ولندرة الامثال المحفوظة على هذه موازين العربية التي تحتفظ باللواحق من وجه آخر .

2 ـ حرمة موازين العربية التي هي شخصية اللغة ، ان ينضاف اليها ما لم يكن منها ومعنى هذا بعيدا عن الميزان ثم اضافتها على الوزن لتحصيل المعنى المطلوب يؤدي الى تزايد كبير في الموازين الجديدة على اشكال لم تعرفها العربية العريقة ، وان كانت ظواهر الدرس تقتضي بأن العربي كان يعتمد لواحق بعينها لدلالات بعينها ، ومن يشك في هذا اذا تناولنا بعيدين عن تشبيه الدهشة من استنفار عابث مثل فعلوت ، وفعللوت ، وتفعلوت ، وفعلان ، فعلم وفعلين ، وفعلن ، وفعليت .

وانما خصصت هذه الموازين بالذكر الخاص لانه يظهر فيها صورة قاطعة للتردد في أن العربية كانت خاضعة لما يدعونه باللواحق في مذهب زيادتها ، ولكن تشذبت هذه اللواحق حتى عادت وهي جزء من الوزن لا تنفصل عنه وكان هذا بفعل الصقل اللغوي المستمر .

ان هذه الموازين هي اصطناع للعربية بخلاف ما اذا كان التفريع على مقتضى ما حفظ من الموازين فقط فانه يكون في غايته اشتقاقا متوسعا . وقد تدرك فرقا واضحا بينهما وان كنت أعود فأقرر بأن ظواهر الدرس الذى اخذت باسبابه على الموازين يعطي هذا وانه مذهب العرب ، ودليله ان لاحق (وت) لم تختص بوزن ما ، له طابع يميزه كما رايت في مفعلوت ، وتفعاوت ، ولكنه كان مع ذلك خاضعا لشروط من اهمها :

1 ـ ان لا تزيد الكلمة باللاحقة على اكثر العدد الذي تكون منه كلمة في العربية . ان لاتجتمع فيها لاحقتان (كفعلان) مثلا فلا يجيء منه (فعلاتين) (وكفعفعيل) لا يجيء منه فعفعلين) وهكذا من مثل هذه الانماط .

من الظاهر بأن اللاحقة تعتبر في اكثر من حرف ، فكل ما كانت الزيادة فيه حرفا فقط كان وزنا اصليا يمكن أن تسيره اللاحقة . وتنضاف عليه ونحن رغم انا نظن بانه مذهب العرب على صورة مؤكدة فالاخذ به فقط على شكلية المحافظة للعربية لا يقدر ان

يعطينا الموازين المحفوظة مغنية عن احياء اللواحق والاشتقاق فيها .

اما اذا ما تاملنا في لائحة الافعال فنرى .

فعل : انه يختص بالدلالة على الاتصاف بوحدة المادة تقول (رتج) للشيء فيه الغلق .

فعلل : وهو يختص بالدلالة على ما تعددت فيه الوحدات من الوصف تقول (زبدد) للمتعدد الزبد .

فعلاء : وخصوصية الدلالة على المكان الذي يوجد فيه الشيء وعلى معنى التميز وعلى تعدد الشيء في غير انفصال ، تقول حرجاء لمكان الغابات الكثيرة وصنعاء للمكان الذي تكثر فيه المصانع .

فعلان : وهو يختص بالدلالة على تكامل الوصف في الشيء تكاملا من كل الجهات تقول (رونان) اى صوت متكامل وآلة ذات روناق .

فعلت : وهذا الفعل يختص على سرعة التاثر او الانفعال وعلى سرعة الاحتراق تقول (عصبت) لتاثر الاعصاب السريع .

فعلن : ويقال هذا النفوذ الوصف الى غاية الباطن ومن ثم يوضع منه لظواهر الباطن ، تقول (نفسن) للرجل المختص بالاعمال النفسية كالمنوم المغنطيسي .

وهنالك ضروب شتى من انواع الفعل يتعذر علينا ان نوردها هنا .

وهنالك الزيادة بالتاء ، مثل :

تفعال : وهو يتم على تجسيم المعنى ، مثل تمثال اي صورة شاخصة تقول (تظلال) للظل يتجسم فيصير صورة .

وتفعل : وهذا يدل على المنفعل من الوصف باسباب مشتركة من نفسه ومن الغير تقول (تنور) للحشرة التي تضيء في الليل .

ـــ وكذلك الزيادة بالميم :

مفاعل : وتدل على المتصف بالمفاعلة بين منفصلين تقول (مداور) للذي يدير شيئا آخر في حركة دورانه كما في الدواليب المتعاشقة .

مفعلاء : وهي تدل على الذي يوجد في المكان ويميز عنه حين نقول (معفناء) للذى يوجد في مكان العفن النتن ولا يكاد يتميز عنه مما يصلح ان يسمى به مكروب العفونة .

مفعل : وهو يدل على الآلة ، وكذلك مفعال وفعلة .

مفعلان : وهو يدل على اسباب الوصف فنقول للمكان الذي نستظل به الجلوس فيه في ضوء القمر مقمران .

وكذلك مشمسان لحمام الشمس ، ويدل ايضا على مضامفة خصوصية (مفعل) فنقول (منظران) للمجهر المضاعف ...

وهنالك زيادة اخرى الا وهي زيادة النون .

فنعال : فناعل : فعنلى ، فنعلاء ، فعنلال ، فعنلوه ، فعنعل ، فعنلة ، فنعل .

الزيادة بالواو .

هفعولة : وتدل على اشاعة الوصف بحيث ينتسب الى كل جزء على انفراد اذ نقول (هرمول) للارض التي تشيع الرمال ، في كل مكان من انحائها ، ونقول كذلك هركولة ، ولقد اتى في هذا المعنى عند الشاعر الجاهلي الاعشي ، بقوله :

هركولة فنق درم مرافقها
تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوجل

وهذا في وصف امراة في احد ابياته الشهيرة في وصف النساء ، فهنا اتت كلمة هر كولة في المعنى المناسب .

فهركولة اذن هي المراة السمينة ذات الارداف

ـ وهنالك الزيادة لبعض الافعال من مثل :

فعوال ، فوعال ، فوعل ، فوعلاء ، فعول ، فوعلل .

الاوزان الكيماوية

فعليل ، وهو يعني في علم الكيمياء الاوكسيجين، الذي يعرف في اللغة الغربية بكلمة اكسيد . قبل

الاسم الممتزج ، ولكن للدلالة عليه يضاف اليه التـاء المتحركة ويصير الوزن فعليلة .

فعليت : وتعني في علم الكيمياء الهيدروجيـن وقد يحوي خواص الاسيد الحقيقـي ويميز باسـم ادراسيد ويسمونها في الاجنبية بزيادة اسيد ، على الاسم المتحد مثل (اسيد كلوريدريك)

الاوزان العدديـة :

فعل وهو مخصوص للدلالة على الآحادي نقول عقد لما فيه عقدة واحدة الى عشرة .

فعلان : وهو يدل على المثوى نقول (عقدان) لما فيه المائة الى الالف عقدة .

مفعل : خصوصيته الدلالة على الربـع نقـول (مشهر) أي ربع شهر يقال (مجلة مشهرية) للمجلة الاسبوعية ولكنها لا تستعمل لانها صعبة اللفظ .

وهكذا نكون قد انتهينا من اعداد بعض الافعـال والاوزان ، التي كانت داء في العربية وعرضنا كذلـك الدواء لذلك وهو الذي يعالج الامراض التي رافقـت اللغة العربية طوال عهدها .

اللغة العربية غاية لا وسيلة :

ان ما نبوح به في هذا القسـم من الفصـل الخامس هو ان اللغة العربية الفاظ يعبر بها كل قـوم عن اغراضهم ، وهما يحتاجون اليه ، فاذن هي غاية كي يجعلها دون الغرض تتناوله للكشف عنه ، ومشاركته عندما نتجه بنظرنا الى اللغة في دورها النشوئي، واما هي بعده فمجموعة من الافكار ، والتقاليد، والعواطف، والاحاسيس ، والنزوات وشتى المشاعر والاعتبارات تنتظمها الالفاظ انتظاما اصبح منها كما يكون الشيء من الطبيعة .

اذن اصبح للالفاظ وجود معنوي على مقدارها لا تزال دونه في الاعتبارات كما لا يقع دونها كذلك .

والزيادة التي يتأتى لنا ان نصفها بالطفيليـة لا يسهل تعليلها اذا كانت اللغة وسيلـة ، فقط تكيفهـا المعاني المتجددة على مقاديرها ، وانما تكون اقـرب قصدا من التعليل حينما نجعل للالفـاظ وجودهـا كالشاخص او الشاهد قيمة معنوية ، وبعبارة اخـرى كيانا معنويا ، تقصه افكارنا ، وقصته هذه تتوسل به الى الكشف عنها بالقياس على كون الالفاظ ، وهـذا رأي لا ننفرد به قيل من قبل ، والعربية هي غاية دون الابعاد والامتدادات ، وان كان بالنظر الى ما يفيدنـا منها تكون غاية بملحظ من الوسيلة ، واكثر الغايـات يكون لها هذا النصاب من الملحظ فهي غايات غيـر استقلالية يفرض فيها التعاون مما يتأتى لنا تسميتها بالغاية المطاوعة ، والمقصود من هذا التنحي في اسلوب الشرح بيان انه دلالة الالفاظ على المعاني المتجـددة لا المستقرة دلالة مقايسة فاذا اردنا ان نؤدي صورة ما فانما نؤديها بضرب من المقايسة **المحضة** بين ما هو حاصل في خيالنا وبين معاني الالفاظ المستقرة .

فكان لالفاظ اللغة اية لغة ، التي تستخدم للتعبير عن مختلف الصور زوائد أحيانا تفرغ على الصورة ما يزيد في معناها بحيث لا يظن انها كانت كذلـك على كمالها في خيال الاديب او العالم .

وهذا غير المجال التعبيري الذي يتأثر كل من يتذوق البيان لان ما نعني به نقص وزيادة على الصورة لا اشراق الديباجة ورونقة الالفاظ ورصاعة التعبير .

وهذا موضوع على ما فيه من جلاء غموضـا ، ولذا عبر وهو محل للاخذ والرد بين ادباء الجيل . ان في الادب لا بل في محيط البيان العربي عموما ، وجد يربي وحرى بكل عربي ، ان ينطـوي على حفيظـة مغرضة من هذا النوع واسميها ، مغرضة لاني ابتغيها غير قابلة للتفهم ابدا ولا تسمح بأيـة مناقشـة دون رعاية اساسها .

ولهذا نقصد ان نهدم بتحقيق اللغة غاية كما يكون الحساب ، والهندسة ، وما اليهما من انواع الرياضيات والعلوم ، وقرر مالم يكن في معرفة الكثيرين الديـن يفزعون اذا ما قالوا العربية قالوها عن عبث .

وان دلالة مفردات اللغة على المعانـي المتجددة دلالة مقايسة وموازنه ، والا لو دلت بالنفس لكان لها وجوادت متعددة بتعدد الاشخاص اللافين .

لنقول شيئا عن بيان ابيات الشعر لندل فيهـا على ما يجدر بالناقد البصير ان يميزه ، أعني به تحقيق الفرق بين اشراق اللفظ وبين زائدة اللفظ وينبنـي عليه في درس الادب والاديب كثير من التصحيح فقد قال قيس بن الملوح في ليلى :

بعيشك هل ضممت اليك ليلى
قبيل الصبح او قبلـت فاهـا

وهل رفت عليك فـــروع ليلـــى
رفيف الاقحوانة فى مداهـــــا

ويكاد يكون هذا الجزء عاما على لسان الشعراء العرب جميعا .

وهو لا يزيد فى اعتبارهم على (بريك) أو لعمرك وما يتبعهما وهذا ما يدلنا على أن قيس كان يقول هذه العبارات ليس اكثر من الحنف والتأكيد . وهـذا مـا يسمى مزاحمة تعبيرا فى محل تعبير .

كل هذا من زائدة الالفاظ وذلك حين نرى بأن المجنون يرى العبث فى ظل التي يهوى ويحب سعادة دونها السعادات الاخرى . وهو من نشدانها بقي يبكيها ابدا فى انشودة الحزن المرة . بهـذا النظـر الطالـع للقسم حين يستفهمه عن شكل من الاشكال تلك السعادة ولون ترى من الوانها مرسوما بضمة السحر وقبلة فى عين الصبـــاح .

ومهما يكن من امر فان غاية كل لغوي خدمـــة العربية وانماؤها والخروج بها من قوقعتها الضيقـة فاذا لم تكن للفرد غاية تامة صحيحة فلن يكون للجماعة فكر تام صحيح ، وفرض انسان بدون لغة معناه فرض انسان بدون فكر .

وبهذا نقدر ان نجدد القول بأن اللغة العربية هي لغة غاية لا لغة وسيلة .

والخلاصة ان قصة العربية هي قصة الحرية ، وان الفكر العربي مغلول بعبوديات كثيرة اهمها عبودية العادة والتاريخ ويتجلى هذا الامر فى الجانب اللغوي منهـــا .

فاللغة هي بيت الكائن الحي ومرآة فكره ، بل قد تكون اللغة هي وحدها الوسيلة للابداع والخلق ومرادف الانسان ، فالانسان لغة لا انسان بلا لغة ، واللغة غاية لا وسيلة ، منذ كان الانسان غاية سخر له كل شيء .

من هنا كان الاهتمام بالعربية اهتماما بالانسـان العربي ، ليست كما يزعمون اصعب اللغات ان لم تكن اسهلها وامرنها واينها ، هي اصلـح مـن اترابها مـن اللغات للحياة والتطور والنمو والترقي .

كل ذلك اثبت الفوضى فى تاريخنا واستجـلاء بداية العربية ثم مسايرتها فى ادوار رقيها وحلقـات تطورها حتى خروج اصحابها من جزيرتهم وتوقفهـا المفاجيء قبل اتمام دورتها التطوريـة ، مما حملهـا بعض الغلائق المتخلفة فى الافعال والمصادر والجموع، والاوزان ومما زاد فى عمر هذه المتخلفـات تزمـت اللغويين القدامى، ومتابعة المحدثين لهم .

هذا داء العربية تنفثه جهـات خارجيـة عن طبيعتهـا .

اما دواؤها فتخليصا من التزوير عليها ، الا زورا عما تريد هي وعما كان يريد اصحابها منها .

هذا الدواء الشافي لقد افصحنا عنه وهو حذف السماع من اللغة وتحكيم القياس فمغنى العربية انما يجيبها من غنى قواعدها وانتظامها لا من اي شيء آخر وفى تحديد معاني الموازين وصوغها من اى ثلاثي كان وكذلك موازين الرباعي وفي توحيد معاني المشتقـات جميعا للمادة ومن التنسيق لشكلياتها المختلفـة ، الخارجية كالخط والاملاء ، والداخلية كالبيان والمعاني والعروض والصرف والنحو .

فى الفصل الاول كان نشوء اللغة والتطـور فى اللهجة واللغة . وادراك المعقـول العربـي من خـلال ادوارها النشوئية ويرجع هذا التاخيـر فى اللغـة لسببيـن :

خروج العربي من جزيرته .

وتزمت اللغويين القدامى وتمسكهم بالسمـاع ، ومتابعة اللغويين المحدثين لهم رغم ضرورات العصـر الجديدة ...

ولقد كانت اهداف التنقيح الجديد الذي اوردناه فى احدى الفصول بالسير بالعربية بعـد توقفهـا ، ولدفعها نحو المستقبل اللامحدود لتكون خالـدة بين اشيائه الباقية .

وفى سبيل ذلك المستقبل المنشود للغتنا العزيزة وشعبها العظيم تنادي اخوة لنا فى المغرب الى اخراج مثل هذه الدراسات والابحاث .

وفى هذا السبيل اغتنم الفرصة لابـداء بعض الملاحظـات .

1 ـ ضرورة اعتماد الفكرة التطورية لانها وحدها الفكرة الجدية والحقيقية التي بها تزال مشكلات حياتنا اللغويـة .

2 ـ الانطلاق بثورة صحيحة فى اللغة العربية وكتابة قواعدها واساليب تدريسها وتفجير المزيـد من طاقاتها اللغوية .

3 ـ نتمنى ونحلم ، وهاتان قدرتان معجزتان ، فاذا ترجمنا عملا نحقق كل تطور وابداع .

ونتمنى على حكومات ومجامع الدول العربية ان تسير بالعربية وتمد يد المساعدة الى اللغويين ونحلم بـذلـك .

تعريب العلم

بترجمة الإنتاج الفكري والتقني الإنساني

أصدرت الامانة العامة لجامعة الدول العربية مذكرة اكدت فيها ان مجلس الجامعة قد اتخذ فى دور انعقاده العادي الثالث والخمسين (مارس 1970) بشان تعريب العلم فى الدول العربية القرار التالي :

ايمانا من اللجنة بقيمة الترجمة العلمية باعتبارها حجر الاساس فى النهضة العلمية العربية الشاملة .

وتقديرا منها لضرورة التنسيق بين الدول الاعضاء فى هذا المجال الخطير فى حياة امتنا ومنعا للازدواج أو التكرار ، وحتى تكون الترجمة على هدى من المعرفة والتجربة والخبرة بموضوع الترجمة

فانها توصي بما يلي :

1 ـ ان تواصل الادارة الثقافية اتصالاتها مع الدول الاعضاء من اجل استكشاف حال الترجمة العلمية فى الوطن العربي .

2 ـ وبعد ذلك تدعو الادارة الثقافية المكتب الدائم للجنة للنظر فيما انتهت اليه اتصالات الادارة الثقافية من مسح عام للترجمة العلمية فى البلاد العربية يستخلص المكتب منها عددا من امهات كتب العلوم يوصي بترجمتها .

3 ـ ان تعمل الادارة الثقافية وبالاتفاق مع الدول الاعضاء على تكوين لجنة تمثل فيها جميع الدول العربية (ما امكن) بعلماء متخصصين ممتازين ، تكون مهمتها :

ا) الاشراف على وضع خطة للترجمة واختيار الكتب والمترجمين من البلاد العربية .

ب) المساعدة (1) فى اصدار المعجم العلمي العربي الموحد الذي باشرت العمل فيه وزارة البحث العلمي فى الجمهورية العربية المتحدة .

ج) وضع الميزانية المناسبة للانفاق على هذا المشروع الضخم لشراء الكتب والمراجع والدوريات فى اللغات المختلفة من البلاد المختلفة ، مع توصية الامانة العامة بان تدرج بمشروع ميزانيتها للسنة القادمة 70 ـ 1971 اعتمادا قدره خمسة آلاف جنيه حتى يمكن تنفيذ المشروع على اساس سليم .

---

1) من المعلوم ان المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الوطن العربي يعمل الآن ضمن اختصاصاته وفى نطاق جامعة الدول العربية على اعداد معجم علمي وتقني عام موحد بعدة لغات .

4 ـ تعمل على ترجمة عدد من الكتب كل عام توزع على فروع العلوم الاساسية والتطبيقية المختلفة من كيمياء وطبيعة ورياضيات ونبات وحيوان وحشرات وجيولوجيا وفلك وارصاد واحصاء بالاضافة الى العلوم الطبية والفسيولوجية والهندسية والزراعية والصيدلية والبيطرية .. الخ .

5 ـ متابعة كل ما ينشر من الكتب والمطبوعات والدوريات فى اللغات المختلفة من انجليزية وفرنسية والمانية وروسية واختيار ما ترى نقله الى العربية .

ولما كان هذا القرار يشتمل على عدة نقاط هامة فان الامانة العامة (الادارة الثقافية) للجامعة تتشرف بذكر ما يلي :

1 أن الادارة الثقافية بالامانة العامة للجامعة سبق لها ان كتبت الى الدول الاعضاء الموقرة من اجل :

ا) تزويد الادارة الثقافية بالامانة العامة لجامعة الدول العربية ببيان عما تم تعريبه حتى الآن من الكتب العلمية التي تعد مراجع اساسية ومصادر لا غنى عنها للباحث فى ميدان تخصصه .

ب) ان تتفضل الجهات المختصة فى حكومتكم الموقرة بتزويد الادارة الثقافية ايضا باقتراح ما ترتئي تعريبه من امهات كتب العلوم العالمية (بكافة الفروع) التي لم تعرب حتى الآن ، واذا كانت هناك بعض الدوريات التي ترتفع فى مستواها وبما تعالج من موضوعات وابحاث الى مستوى المصادر الاساسية وترى تعريبها فلا باس من ذكرها ايضا ، بين ما يجب تعريبه .

ج) ان تتفضل الوزارة الموقرة ايضا بالايعاز الى جهات الاختصاص فى حكومتها الجليلة من اجل تزويد الادارة الثقافية ، كل ستة شهور او كلما دعت الحاجة الى ذلك ببيان بما يتم تعريبه مفصلا من الكتب العلمية

لذلك فان الامانة العامة (الادارة الثقافية) للجامعة ترجو التفضل بأن ترامي جهات الاختصاص فى الحكومات العربية الجليلة ان الترجمة العلمية مقصود بها نقل امهات الكتب العلمية (فى العلوم الاساسية ـ البحتة ـ او التطبيقية) التي تعد مصادر اساسية لا غنى عنها للباحث او طالب العلم المتخصص الى اللغة العربية .

وفى ضوء اجابات الجهات المختصة فى الدول الاعضاء يمكن الوقوف على حال الترجمة العلمية فى البلاد العربية ثم دعوة المكتب الدائم للجنة الثقافية « للنظر فيما انتهت اليه اتصالات الادارة الثقافية من مسح عام للترجمة العلمية فى البلاد العربية يستخلص المكتب منها عددا من امهات كتب العلوم يوصي بترجمتها » .

2 ـ اما فيما يختص بتكوين لجنة تمثل فيها جميع الدول العربية (ما امكن) وهي المشار اليها فى البند (2) من قرار المجلس المشار اليه فان الامانة العامة ترى ان يتم ذلك عند انعقاد المكتب الدائم وبعد ان تكون الدول الاعضاء قد امدت الادارة الثقافية بالامانة العامة بالصورة الحقيقية لحال الترجمة فى البلاد العربية .

3 ـ وعلى ذلك ، وحتى تكون نقطة البداية فى هذا العمل القومي العلمي الجليل قائمة على أساس سليم ، فان الامانة العامة (الادارة الثقافية) للجامعة، تكرر رجاءها الدول الاعضاء ان تزودها بما سبق لها طلبه منها فى هذا الخصوص من اجل ان تستفيد من الفترة (جـ) من البند (3) من قرار مجلس الجامعة المشار اليه والخاص باعتماد مبلغ خمسة آلاف جنيه فى ميزانية 70 ـ 1971 ، فتبادر الى تكوين اللجنة المشار اليها لاختيار عدد من المصادر الهامة فى مختلف فروع العلم الاساسية والتطبيقية لنقلها الى العربية

هذا والامانة العامة (الادارة الثقافية) لجامعة الدول العربية تامل فى ان تتلقى فى وقت قريب مناسب البيانات المطلوبة لتتمكن من تنفيذ قرار مجلس للجامعة ترجو التفضيل بأن ترامي جهات الاختصاص الجديدة 70 ـ 1971 للامانة العامة تبدأ اول يوليو (تموز) 1970 .

وتنتهز الامانة العامة هذه الفرصة لتعرب عن فائق تقديرها واحترامها ..

تعريب التعليم في الجزائر ومشاكله

الأستاذ عبد الحميد المهيري - الجزائر

القى الاستاذ عبد الحميد المهيري رئيس اللجنة المصغرة للتعريب في الجزائر محاضرة قيمة في مقر الجامعة الجزائرية حول تعريب التعليم ، تعطي صورة عما يتخبط فيه تعريب التعليم في المغرب العربي من مشاكل ، ونحن نلخصها فيما يلي :

ذكر المحاضر في البداية انه لا يريد القاء محاضرة بالمعنى المتعارف وانما اثارة المناقشة حول الموضوع .

ثم قال ان ما سيعرضه من افكار ليست افكاره ، وانما آراء نضجت مع الزمن عند المهتمين بالتربية في الجزائر .

وقال ان تعريف المشكل يضعنا في نهاية التحليل وجها لوجه ، اما ضرورة تحديد اختيار لغة او لغات التعليم ، وهو اختيار لم نقم به بعد ، ذلك لان على الجزائر ان تضع سياسة بعيدة المدى للتعليم ، وهنا يلقي السؤال : هل يحسن بنا ان نتخذ لغة واحدة للتعليم ؟ ، وان الاجابة على هذا السؤال ليست سهلة كما يتبادر الى الذهن ، فهذه القضايا تثير مجموعة من المشاكل منها ما له صبغة لغوية بحت ، ومنها ما له اتصال بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية في نفس الوقت .

ولهذا فان معالجة المشكل لا يمكن ان تتم الا عن طريق الدراسة الكاملة لكل هذه الجوانب ، والاقتصار على جانب واحد يؤدي بنا الى حلول ناقصة .

وقال ان هذا التعقيد الناجم عن طبيعة القضية قد يتخذ ذريعة لابقائها دائما تحت الدرس والمناقشة .

ولن نستطيع ان نوفي جميع جوانب المشكل حقها من الدرس في محاضرة واحدة . ولكن نكتفي باثارة القضايا التي يتكون من مجموعها ما نسميه قضية « تعريب التعليم » .

واول الاعتبارات التي ينبغي اثارتها قضية اللغة العربية نفسها . فهي ليست اللغة الام لجميع الجزائريين ولكنها اللغة الوطنية لجميع الجزائريين .

واختيار هذه اللغة لم يات ارتجالا ولا بصفة اصطناعية ولكنه تم عبر القرون والتجربة التاريخية الطويلة . وكانت لغة التعليم في الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي هي اللغة العربية في جميع مراحل الدراسة. وهذه حقيقة تجعلنا نقرر اولا بأن هذه المشكلة تهم سائر الجزائريين وبان حلها ينبغي ان يشارك فيه جميع الجزائريين بدون استثناء .

الحقيقة الثانية ان العربية كلغة ظهرت فجاة على المسرح العالمي وهي مكتملة من جميع النواحي . ولم يستطع اللغويون على ما اعرف ايجاد تحليل كاف لهذه الظاهرة .

ذكر المحاضر بتاريخ اللغة العربية الطويل وتطورها واضطلاعها ابان العصر العباسي بدور ضخم

هو تمثل مختلف الوان الحضارات ونقل هذا التراث الى الاجيال اللاحقة .

ثم اصاب العربية انتكاس نتيجة تخلف المجتمع العربي نفسه . وفي الوقت الحاضر تعرف هذه اللغة نهضة جديدة .

واشار المحاضر الى ظهور لهجات التخاطب في البلدان العربية ، مبينا ان هذه اللهجات على اختلافها تكون وحدة تمكن المتكلمين بها من التفاهم بجهد بسيط

وخلص المحاضر من ذلك الى القول :

باننا امام لغة قديمة قامت بدور اساسي وامام لغة خطاب مختلفة احتفظت بوحدتها . ثم امام ظاهرة ثالثة وهي ظهور ما يسمى باللغة المشتركة او العربية العصرية التي تجمع الاصالة ونوعا من التبسيط في متنها وتراكيبها يجعلها قادرة ومتفتحة على التيارات اللغوية المتصلة بها بشتى طرق الاتصال .

ثم اشار الى ان الاستعمار جعل ظل اللغة العربية يتقلص تدريجيا في المدرسة الجزائرية الى ان تفردت بها اللغة الفرنسية ، وهذا جعل المدرسة اداة لمسخ الشعب الجزائري وفرنسته .

وعند الاستقلال ، كان لا بد من تغيير هذه الوضعية ، وادخل في البداية وكخطوة اولى قدر ادنى من اللغة العربية كمادة درس اساسية في كل فصل .

وهنا وضعت مشكلة الاختيار أينصب على لغة واحدة للتعليم أم ينبغي الاحتفاظ بالازدواجية ؟ .

وقد راينا كيف ان هذا السؤال صعب الجواب نظرا لتشعب الموضوع ، وكيف ان طبيعة التشعب هذه تتخذ ذريعة لابقاء المشكل دائما تحت الدرس والمناقشة .

وقبل ان تتخذ الجزائر حلا جذريا ، حاولت الا يكون مجهودها المدرسي استمرارا لنشر الفرنسية في المدارس . فعربت مواد التاريخ والتربية الدينية والخلقية والمدنية والجغرافية مع كثير من التحفظ وعربت السنتان الاولى والثانية من التعليم الابتدائي واحدثت بعض الثانويات المعربة في اوائل الاستقلال . وكان هذا ما يمكن ان نسميه بالتجربة الجزائرية في حقل التعريب .

هل تكفي هذه الاجراءات لاخراج المدرسة الجزائرية من طبيعتها الموروثة وجعلها تعمل وفق الاختيارات الاساسية للجزائر ؟

اعتقادي الخاص وكثير من الاخوان في لجنة اصلاح التعليم ان ذلك لا يكفي وانها ان كانت خففت من هذه الطبيعة الموروثة ، فان المدرسة الجزائرية ما زالت وسيلة لنشر نوع من الفرنسية غير منظور . وهي لهذا السبب اخطر من المدرسة الفرنسية التي كانت تجابه الجزائريين بما يكرهون كاشفة القناع من وجهها .

والسبب الرئيسي لهذه الوضعية هو ان المدرسة الجزائرية لا عن اختيار بل لتوقفها على اختيار طريقة ناجعة للتعريب ، انتهت الى الازدواجية : العربية في الدراسات الادبية (النظريات) والفرنسية في العلوم

هذا الوضع يقدم للطفل الجزائري صورتين ، صورة الماضي متمثلا في اللغة العربية ، وصورة المستقبل وبالتالي للفعالية متمثلا في اللغة الفرنسية.

واذا استمر الوضع على هذه الحال فانه يوشك ان يحدث اختلال في شخصية المواطن الذي تكونه وان امتنا لا تريد ان تزيل ماضيا من الاذهان بعيدا عن الفعالية وقد يرتبط هذا الماضي عندها باللغة العربية .

وبعد ما اشار المحاضر الى الحجج التي يقدمها البعض عن قصد حسن بغية اصلاح جهاز التعليم وجعله ملائما لتوفير العدد الكافي من الاطارات لمقاومة التخلف ، وقولهم ان المهم ان يكون في البلاد مثل هذه الاطارات وان اللغة شيء ثانوي . هذا التيار في نظر المحاضر يعتمد على نظرة ليس فيها عمق ، لان التعريب لا يمكن ان يكون منافيا لهدف التنمية .

مقدرة اللغة العربية :

ويبدو من الوضع الحالي للتعليم بالجزائر ان هناك تعارضا ظاهريا بين تعريب التعليم وتقنيته . قد ينجم عنه الشك في مقدرة اللغة العربية كما قد يكون نتيجة نظرة سطحية الى واقع العالم العربي .

فمن حيث الشك في مقدرة اللغة العربية ، يمكن ان يرجع الى ان هناك دولة عربية تستعمل اللغة العربية كاداة لتعليم جميع المواد ، هي سوريا .

والمختصون بالدراسات اللغوية يؤكدون بان اللغة العربية قطعت شوطا بعيدا فى تطوير نفسها ، واصبحت مرشحة لان تكون لغة عالمية .

نعم هناك مشكل المصطلحات ما زال قائما لكون المجهودات الفردية بشانه مبعثرة غير منسقة . ولكن المشكل حاصل فى مستوى معين . هو غير حاصل فى مستوى التعليم الابتدائي ولا الثانوي ولا حتى بعض الدراسات الجامعية . وانما يوجد فى مستوى الاختصاص الضيق ـ والبحث العلمي ، والتبادل مع الغير .

فما يقال عن عجز اللغة العربية انما يقال بدون تمحيص . فهي صالحة كل الصلاحية بدون ادنى عائق فى مستوى الثانوي على الاقل .

على أن هناك الادعاء القائل بان اللغة العربية صالحة كاداة فى تلقين الدراسات الادبية والانسانية ، وغير صالحة لتلقين التقنيات .

أولا : مصطلحات العلوم الصحيحة قليلة ومحدودة .

ثانيا : الصفة التي تمتاز بها المصطلحات هي الدقة والوحدة .

وهذه مطالب غير عسير تحقيقها على جهود العاملين فى هذا المجال .

على أن هناك حقيقة يجهلها الكثير ، وهي أن مشكلة المصطلحات فى الدراسات الادبية والانسانية ، اكبر منها بكثير فى العلوم الصحيحة . وذلك لتشعب تلك الدراسات وصعوبة وضع المصطلح الدقيق بشانها

واعتقادنا ان هذا الامر المعكوس للغاية . وان القصد من ذلك تبرير الوضع القائم واكثر منه تعبير عن حقائق علمية .

الجانب الثاني : النظرة السطحية الى واقع العالم العربي .

تجارب العالم العربي فى ميدان التعريب :

اعتبر المحاضر ثلاث تجارب اساسية

1) تجربة سماها شاملة ، هي تجربة سوريا .

ليست جديدة،ابتدات اثناء الحرب العالمية الاولى تمت بتشجيع الخبراء الفرنسيين الذين كانوا يضعون التقارير تلو التقارير يؤكدون ان العربية صالحة فى جميع مراحل التعليم . وكان حافزهم الى الرغبة فى وقف انتشار اللغة الانجليزية فى المشرق العربي .

اعطت هذه التجربة نتائج يمكن ان تعتبر حجة كافية على صلاحية اللغة العربية . لكنها تصطبغ بنقص عابه السوريون انفسهم هو عدم اهتمامها بتدريس اللغات الاخرى .

هذا جعل المتخرجين ، وخاصة المختصين والمشاركين فى البحث العلمي يجدون بعض الصعوبة فى ميادين الاختصاص نظرا لضعفهم فى اللغات الاجنبية .

لكن هذا يمثل مرحلة هي الآن فى طريق الزوال.

2) تجربة وقفت فى نصف الطريق ، تمثلها ، مصر والعراق

وقفت عند الابتدائي والثانوي والدراسات الادبية والانسانية فى التعليم الجامعي ، وبقيت المواد العلمية باللغة الاجنبية .

وكان من نتائج هذه السياسة تناقض واضح يتمثل فى انشاء المجامع العلمية اللغوية من جهة ، ورفض استعمال العربية فى العلوم من جهة اخرى .

فوقوف التعليم فى الجامعة بالعربية لدى العلوم ليس منطقيا ، ولكنه مرتبط باوضاع .

هنا استعرض المحاضر الكفاح الذي خاضه الشعب المصري تحت الاحتلال الانجليزي لفرض اللغة العربية فى الابتدائي والثانوي ، واضطرار الحكومة للاستجابة واصرارها على عدم تعميمه على الجامعة .

وكيف ان الجامعات المصرية قامت بمجهودات الشعب الاهلية ولم تساهم فيها الحكومة .

وكيف أن القائمين عليها اقتصروا على تعريب النظريات لانها كانت فى متناول مجهوداتهم المتواضعة ولا تكلف كثيرا .

وكيف ان تجربة العراق تشابه كثيرا تجربة مصر ، ثم قال :

ان الاتجاه الذي فى سوريا ومصر والعراق هو التفكير الجدي فى اكمال الحلقة .

3) اقطار المغرب العربي :

تتميز تجربة اقطار المغرب العربي بالتوقيف عن البت فى اختيار لغة واحدة للتعليم ، وتخصيص اللغة الفرنسية لتلقين العلوم والتقنيات .

وهذه تجربة قد تؤدي الى مخاطر ، لانها مبنية على احكام سابقة غير ممحصة .

ثم لخص المحاضر الوضع فى العالم العربي ككل، فقال ان التجربة ككل تعتبر عامل اللغة ، وتتناسى اشياء اساسية ، وهي أن حركة التعريب بدأت فى وضع سياسي كان العالم العربي فيه خاضعا لنظم استعمارية، وان المجتمعات العربية فى ذلك الحين كانت مجتمعات اقطاعية او شبه اقطاعية .

ولهذا فان تجربة التعريب كانت منعزلة تعتمد تطوير اللغة بمفردها ، دون البحث فى الاسباب المؤدية الى تطوير المجتمع ككل . اذ مدى تطوير اللغة مرتبط بتطور المجتمع . وقد كانت تجربة تستهدف احداث ثورة فى اللغة، فى نفس الوقت الذى تريد تلافي احداث ثورة فى المجتمع .

وهذا من شانه ان يؤدي الى الاخفاق .

اذ كيف يمكن ان تتطور اللغة العربية فى مجتمعات اقطاعية او شبه اقطاعية لا وجود فيها لاساس مادي للعلوم والتكنولوجيا .

التعريب يبدأ الآن

وعلى هذا ، فان التجربة الحقيقية للتعريب تبدأ الآن بعد ان اصبح واضحا ان هذا لا يمكن ان يتم الا فى نطاق ثورة شاملة . فى اطار هذه الثورة يمكن ان تستكمل التجربة جميع اسباب النجاح .

النتيجة

انه اذا كان التعريب لم يؤد فى نظر الاجانب الى نتائج ايجابية ، فالمسؤول عن ذلك ليس اللغة العربية. ولكن فساد النظم التي كانت سائدة ، تعكس صورة للمجتمع، وفقا على طبقة محظوظة، محشوة بالنظريات، بعيدة من مجالات التطبيق يتميز بغلبة التكوين العام او الثقافة العامة على حساب العلوم الصحيحة والتقنية.

هذا الوضع لم يتغير جذريا . وهو قسمة مشتركة بين سائر اقطار العالم العربي ، ولا تشذ الجزائر عن ذلك .

ان الجزائر تحاول الآن ان تقوم بثورة شاملة فى جميع المجالات وسلوك سبيل الاصلاحات الجذرية بغية تطوير المجتمع اقتصاديا واجتماعيا. واننا متجهون الآن الى اصلاح نظم التعليم بما يوافق اختياراتنا الاساسية . وهذا عنصر مساعد جدا .

سياسة رجعية ؟

على اننا نرى بعض المتحمسين للثورة ينكرون امكانية ان تكون العربية فى الجزائر اداة للتربية . ويذهبون الى ابعد من ذلك اذ يتصورون ان العربية التي مضى عليها ردح من الزمن انكمشت فيه واصبحت لغة التعليم الديني فحسب ، وانقطعت عن تيار الحضارات والافكار الحديثة والعلوم التقنية ، لا يمكن ان تكون الا اداة لسياسة رجعية .

ومع ملاحظتنا على هؤلاء انه سواء بسواء يمكن ان تنفذ سياسة رجعية عن طريق الفرنسية ، فاننا اذا سلمنا ان العربية بما اصابها من تاخر بفعل تاخر المجتمع ، نرى ان احسن وسيلة لاجبار العربية على القيام بدور سلبي ، هو ابقاؤها بعيدة عن ميدان العلوم الصحيحة . لا فرق اذا اننا اردنا ان تلعب العربية دورا ايجابيا فى تطوير البلاد وتحقيق الثورة ، يجب ان نتخذها اداة للعلوم . هذه الاختيارات النظرية .

اضيف الى ذلك شيئا اساسيا هو الدعوة الى الازدواجية . وبهذا الصدد تعدد مزايا الازدواجية فى التعليم وفى الحياة .

اعتقد ان الازدواجية ليست ذات معنى واحد . فهذا اللفظ يمكن ان يطلق على اشياء كثيرة تختلف من حيث الدرجة كما تختلف من حيث الطبيعة .

ونحن نرفض الازدواجية مبدئيا لاسباب بديهية هي :

1) ان الازدواجية بين العربية والفرنسية ليس لها سند سكاني .

كان الامر يختلف لو ان الاقلية الاوربية قررت البقاء فى الجزائر اذن لكان المشكل قائما .

2) **نحن نفرض الازدواجية ، اذا كانت تعني اعتماد الفرنسية كوسيلة وحيدة للتفتح على الحضارة العصرية ، لاننا لا نسلم بعجز اللغة العربية عن تادية هذا الدور .**

يبقى هناك نوع من الازدواجية نسميه بالازدواجية التربوية . ويدعو اليه الكثيرون من المربين فى العصر الحديث . **معناها تعلم اللغات الاجنبية .**

والازدواجية بهذا المعنى يمكن اعتبارها اذا كانت لغة التعليم موحدة والعربية لغة تدريس لجميع المواد فى جميع المراحل ، يمكن اذ ذاك ان نفكر فى تعليم اللغات الاخرى من اجل التفتح والاتصال .

والازدواجية بهذا المعنى بدا تطبيقها فى بعض البلدان على سبيل التجربة وهي ما زالت فى طور التجربة .

ونحن نستطيع ان نسلم جدلا بان الجزائر فى استطاعتها ان تتبنى هذه التجربة فى النطاق الوطني العام . وهذا يمكن ان يناقش ويستفاد منه .

التعريب من الناحية العلمية

الجميع يقر بان **العملية لا يمكن ان تتم دفعة واحدة . والتدرج نفسه اذا لم يطبق بدقة قد يكون سببا فى الفشل وذريعة تتخذ لفرض مبدا التعريب نفسه .**

والتدرج يصطدم بصعوبات اهمها :

صعوبة توفير الوسائل البشرية والمادية والتربوية لتعريب صف كامل (التدرج العمودي من الاسفل الى الاعلى) . وهذا التدرج العمودي منطقي، ولكن صعب تخطيطه . فهو يضع المسؤولين امام آجال لا تقبل التاخير . وفيه ايضا اجبار التلاميذ على تغيير اداة التعليم فجاة (ابتداء من السنة الثالثة الابتدائية الآن) : هناك التدرج الافقي = ان تعرب كل سنة مجموعة من المدارس الابتدائية والثانوية تعريبا شاملا وفق سلم التعليم .

مثلا = مائة مدرسة ابتدائية

وفى نفس الوقت 10 اعداديات

وبعد سنة 5 ثانويات

وقد يمكن التوسع اكثر اذا سمحت الامكانيات.

هذه الطريقة تضمن للتلاميذ ترقيا فى السلك يوصلهم الى الباكلوريا بدون عائق .

ويمكن ادخال اللغة الاجنبية ابتداء من السنة الرابعة او الخامسة ليتمكنوا من مواجهة تعليم الجامعة بالفرنسية ، اذا لم نكن قد تمكنا من تعريب الجامعة اذ ذاك .

خصم لوحدة التعليم :

هناك من يرى فى هذا التدرج خصما لنظام وحدة التعليم الواقع ان الامر لا يخلو من ذلك . وقد نعيش لفترة طويلة على نظامين تعليميين يختلفان قليلا . ومع ذلك فان الفرق بين النظامين يكون **فى العلوم الصحيحة فقط** . ومن السهل ان نتصور **التلاميذ الذين يتابعون النظام الانتقالي الحاضر بما يحصل لهم من ملكة فى اللغة العربية ، يصبحون قادرين على مواصلة تعليمهم العالي باللغة العربية .**

هذا التدريج يمكن من التغلب على كثير من المشاكل ، الا انه لا يعفينا ايضا من الاحتياجات البشرية والتربوية والمادية ، ومن الآجال الواضحة .

واخيرا فان تعريب التعليم لا يمكن ان يتم بواسطة الجهاز التقليدي لوزارة التربية ولا بد من انشاء مؤسسات تسهر على حركة التعريب ؛ وهي فى نظري :

1) **مركز وطني لتيسير اللغة العربية ونشرها .** لا كمجمع ، اذ لا فائدة من ذلك بل مركز يجمع بين البحوث الاساسية فى العربية ومحاولة ايجاد الحلول لمشاكل العربية ، وليست العربية بدعا بين اللغات فى ذلك . وقد تكون المشاكل فى العربية تختلف من حيث الدرجة ولكنها لا تختلف من حيث الطبيعة بالنسبة للغات اخرى .

اتصور **المركز ملتقى الباحثين** من رجال التربية واللغة والتعليم ، **لايجاد احسن الحلول لتعليم اللغة العربية** لا فى المدرسة وحدها ، ولكن باساليب عصرية ووظيفية للعدد العديد من الجزائريين المتعطشين للتزود بهذه الاداة التي تمكن من الاسهام الحقيقي فى تعميق جذور الثورة وجعل معركة التعريب معركة الشعب .

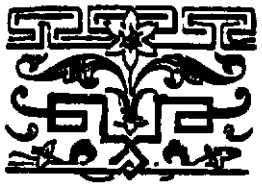
مدرسة الترجمة

من هذه النواة يمكن الانطلاق لاعطاء مفهوم جديد للترجمة يجعل منها لا عملا هامشيا ، ولكن أساسا لتطوير المجتمع وتنظيم العلاقة بينه وبين الشعوب .

ينبغي اذن تكليف المدرسة برسالة اخرى . لا ينبغي أن نقنع بتكوين التراجمة للاعمال اليومية ، بل أن ننزع الى تخصيص علماء في مختلف المواد والعلوم لتكريس جهودهم لعمل الترجمة الذي هو على ما اعتقد عمل اساسي في بناء النهضة العلمية .

المؤسسة الثالثة

تنظيم واسع شعبي اعتقد من السابق لاوانه تصور جميع عناصره. ولكن اتصوره على شكل مؤسسة تجمع بين مسؤولين معينين يحتلون مراكز حساسة بالنسبة للعمل الاداري والجماهيري ، يسهرون على تطبيق المخطط العام للتعريب وربط تعريب التعليم بتعريب بقية الميادين .



تأثير العربية في سنغال

الأستاذ مالك انجاي «سنغال»

احتلت فرنسا سنغال والعربية هي اللغة الحية الوحيدة المستعملة فيه ، ووسيلة التفاهم بين الملوك في مناطقه المختلفة اللغات . كان **الملوك يستعملون المستعربين** للكتابة والترجمة ، واتخذوا منهم القضاة والمستشارين في الشؤون الدينية ، **فكانت العربية لغة تدوين الوثائق** من معاهدات وعقود ورسائل ، واتخذت فرنسا نفسها العربية واستعملتها في التفاهم في الاعلانات والمناشير التي تهم الخاص والعام من الاهالي . وكان الملوك والمشائخ يراسلون السلطات الفرنسية بالعربية . وفي كتاب « دراسات اسلامية عن سنغال » يقول الافريقاني الفرنسي «بول مارتي» ان **جميع المشائخ كانوا يراسلون السلطات الادارية بالعربية** ما عدا الشيخ «بوكنت» زعيم الفرقة القادرية الكنتية ، وصكت النقود حاملة الكتابة العربية مع الكتابة الفرنسية ، وصدرت الجريدة الرسمية الاولى للحكومة الفرنسية في سنغال مكتوبة فيها الاخبار المهمة للاهالي بالعربية والفرنسية . وفتحت في سان لوي عاصمة سنغال الاولى مدرسة فرنسية عربية لاغراء الناس على تعلم الفرنسية مع العربية . قال الافريقاني الفرنسي « روبير ارنو » Robert Arnaud في كتابه (الاسلام وسياسة فرنسا الاسلامية في غرب افريقيا) :

« ... ما ترددنا عن فتح مدرسة عربية في كل من جنه وتمبكتو وسان لوي حيث يجد طالب العلوم الدينية تعليما فرنسيا رفيعا مع دروس النحو والفقه ... والفكرة الداعية لانشاء المدارس العربية الفرنسية هي ان تصير محل تلاق وتوافق بين العقلية القرآنية وروح العصر . » (1)

وهذا اقرار واعتراف بانه وجدت وتمثلت **عقلية قرآنية** تستحق ان تتكيف السياسة لمجاراتها والسلوك معها مسلكا خاصا ، ومعنى وجود عقلية قرآنية كهذه هو وجود ثقافة عربية دينية راسخة يعتبرها الاحتلال الجديد منافسا لا يمكن الافضاء عنه واخذ التدابير الحيلية للانتصار عليه .

ورغم اغراءات الحكومة وضغطها على الناس لارسال ابنائهم الى المدارس الفرنسية فلم تستطع ان تحمل الناس على الاعراض عن الكتاتيب ، ويشهد التقرير الرسمي لعام 1912 على ان 633 تلميذا فقط هم الذين كانوا يتابعون ، مع استمرارهم على دروسهم القرآنية في الكتاتيب ، دروس المدارس الفرنسية ، وهذا من بين 11.451 تلميذا الموزعين في كتاتيب سنغال البالغ عددها في العام المذكور **1385 كتابا** .

---

(1) L'Islam et la politique musulmane française en Afrique Occidentale

وفى مجموعة الجريدة الرسمية لعامي 1878 – 1879 م الموجودة فى مكتبة الاتحاد الثقافي الاسلامي، والتى نقلنا منها النصوص الآتية فى آخر هذا الفصل ، توجد الاخبار الهامة لدى الاهالي مكتوبة بالعربية والفرنسية. والورق المصكوك فى دكار بتاريخ 13 اكتوبر 1924 تحمل الكتابة العربية فى احدى جهتيها مع الفرنسية فى الجهة المقابلة .

دور الطرق الصوفية فى التعريب :

ومن اهم الدوافع للتعريب فى هذا القرن والقرون السابقة من غير شك الطرق الصوفية واهمها فى سنغال ثلاث : القادرية والتجانية والمريدية او القادرية المريدية بتعبير ادق . ويظهر تاثير هذه الطرق فى مجالين هامين هما مجال اعلام الاناس والاماكن والمنظمات والعوائد ومجال التعليم ، والمجال الثاني تتكفل ببيانه الفصول المعقودة للمدارس العربية الكبرى فى سنغال كمدرسة التجانية فى تراوون ومدرسة المريدية فى جربل

اما المجال الاول فان تعلق القوم بالشخصيات الصوفية البارزة فى هذه الطرق مثل الشيخ سعد ابيه والحاج مالك والشيخ الخديم احمد بمب كان سببا للتبرك بهم والتقرب اليهم بتسمية الابناء باسمائهم واسماء من تفرع منهم . ولكون هؤلاء متعلقين بدورهم بالوجهاء المشهورين فى التاريخ الاسلامي من النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وكبار المتصوفة فانهم لا يترددون فى اطلاق اسماء هؤلاء على ابنائهم وعلى ابناء من يخيرهم اسماء لمواليدهم من المريدين وعلى من اهتدوا الى الاسلام بواسطتهم بدلا من اسمائهم العائلية ، فمن هنا تنسخ الابوة الروحية عمل الابوة النسبية برضى ووفاق بين الطرفين . فما يلبث الولفي المهتدى الى الاسلام باسم « جبل » ان يتسمى باسم «محمد الامين» والسراري المهتدى باسم « لتير » ان يحمل اسم « ابراهيم » والفلاتي المهتدى باسم « جول » ان يحمل اسم «علي» وهكذا . ولو اراد الانسان ان يكتب عناوين الذين سموا الحاج مالك والخليفة ابا بكر سه والحاج منصور سه من الطائفة التجانية التواونية او عناوين الذين سموا احمد بمب ومصطفى البكي وبشير البكي من الطائفة القادرية المريدية للزمه للقيام بهذا العمل اضبارة من الاوراق . هذا ولم يمض على ميلاد اكبر هؤلاء سنا الا 115 سنة . فاذا عرفنا ان **هذا التعريب** يستمر بنفس الحماسة فى القادرية واللاهية . ادركنا اي سرعة يسير هذا التعريب الجماهيري فى اعلام الاشخاص ويتقدم نحو الشمول.

لا يسعنا وقد تكلمنا فى دور الطرق الصوفية عموما فى **تعريب اعلام الاشخاص** الا ان نتكلم عن دور المريدية والتجانية التواونية كل منهما فى فرع خاص من فروع المجال الاول من التعريب برت فيها غيرها من ضراتها . لقد فاقت المريدية فى **تعريب اسماء البقاع** وسبقت التجانية التواونية فى **تعريب اسماء المنظمات الداخلية** المسماة بـ « الدوائر » الموجودة فى جميع الطرق السنغالية والتى ابتدعها مجاراة للمريدية فى دساكرها الفلاحية .

ففي اقاليم بول وجلف وجنوب كجور يتجلى دور المريدية فى تعريب البقاع حيث قام الشيوخ المريدون بحماسة فائقة بتاسيس الدساكر والقرى والمدن حتى طبعوا المناطق المذكورة بطابع متميز عن طابع غيرها من المناطق السنغالية من حيث **تعريب كثير من اعلام قراها ودساكرها** . فنثروا على ارضها هذه الاسماء اللطيفة فى السمع مثل : طوبي – دار السلام – دار المعطي – دار الغفور – دار المنن – دار المنان – دار النعيم – دار العليم – دار الرحمن دار الرحمة – دار القدوس – الشام – مدينة – طائف – عالية – طوبي فال – طوبى كن ، وسموا سوق طوبي مهد المريدية هكذا .

ونشاط المريدية فى تعريب اعلام الامكنة يضاهيه نشاط التجانية فى تعريب اعلام المنظمات الداخلية « الدوائر » . ومنذ نشاة هذه الجماعات اختارت القيادة التجانية التواونية تعريب اسمائها فاطلقت على اول جماعة تكونت منها اسم « دائرة الكرام » ثم تتابعت الحلقات فى هذه السلسلة : دائرة المهتدين – دائرة المنة – دائرة المقتفين – دائر المتقين – دائرة الوفاء – دائرة المهاجرين والانصار – دائرة المقتدين – دائرة المحسنين – دائرة الابرار – دائرة الخليفة الاكبر – دائرة الخير والبر – دائرة المومنين . الى غير ذلك من **الاسماء الرنانة التى اطلقت على مئات الجماعات** .

وهذا التعريب الذى يتولى كبره قادة الطرق الصوفية فى الاسماء التى يختارونها للقرى والاشخاص والجماعات ادخل فى الشعب حماسة مماثلة فعرب الكثيرون منهم اسماء القرى التى اسسوها ويتجلى هذا فى الاحياء الشعبية فى المدن السنغالية الاساسية حيث اتخذت للكثيرة منها اسماء مثل : فاس ـ نمساط ـ طوبي ـ مدينة ـ دار السلام ـ مزدلفة الخ ..

خذ خريطة مفصلة للقرى والمدن السنغالية واجل بصرك فى اقاليمها المختلفة من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب او تناول سجل العمال لاحدى المؤسسات الصناعية او سجل الاعضاء المنخرطين فى احدى الجمعيات ، او اسماء الجنود فى احدى الثكنات العسكرية او اسماء التلاميذ فى احدى المدارس فسيكون اول ما يلفت انتباهك ذلك العدد الكثير من اسماء القرى والدساكر والاشخاص المعربة .

قمت انا شخصيا لاختبار سرعة التعريب فى اسماء الاشخاص فاعجبتني السرعة التى يتم ويسير بها هذا التعريب ، فبينما كانت النسبة المئوية تتردد بين 44 ٪ و 48 ٪ فى اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن اعتمادا على القائمين المئويتين المعدتين عن قوائم اسماء كثيرة من الجريدة الرسمية لعامي 1878م و 1879 م ارتفع خلال الستين سنة الماضية الى 69 ٪ و 77 ٪ فى عام 1966 م

اما الطريقة التى سلكناها فى هذا التحقيق فهي اننا اعددنا ست عشرة قائمة تتألف كل قائمة من مائة اسم . وقد مر فى السطور السابقة نتيجة القائمتين الاوليين . وثبتنا فى الجدول الملحق بهذا الفصل ثلاث مجموعات من القوائم تتألف المجموعة الاولى منها من ثلاثة قوائم مصدرها جريدة « دكار مثان» اليومية « Dakar Matin » فى عدديها الصادرين يومي الجمعة 22 ـ 7 ـ 1960 ويوم السبت 23 ـ 7 ـ 1960 . وهي قوائم اسماء النواب المرشحين للانتخاب للحزبين المتنافسين فى الحكم فى السنة المذكورة . والمجموعة الثانية مصدرها الجريدة المذكورة فى عددها الصادر يوم الخميس 18 ـ 1 ـ 1968 وهي قائمة اسماء النواب المرشحين للانتخابات التشريعية للعام المذكور مكملة بعشرين اسما من الوزراء وكبار المسؤولين فى الحكومة . والمجموعة الثالثة مؤلفة من عشرة قوائم مائوية مصدرها الجريدة المذكورة فى عددها الصادر يوم 2 ـ 8 ـ 1968 . وهي اكبر المجموعات الاربع واصدقها تمثيلا للواقع لانها تمثل قائمة اسماء الناجحين فى امتحانات الدخول فى السنة السادسة من التعليم الثانوي واصحاب اسماء هذه القائمة متقاربون فى السن لا يجاوز اكبرهم سنا ثلاث عشرة سنة ولا يقل عمر اصغرهم عن احدى عشرة سنة . ويزيد فى قيمة هذه المجموعة تمثيلها لجميع اقاليم السنغال السبعة لان الامتحان المذكور يجري فى جميع انحاء سنغال وتظهر نتائجه جملة مترتبة الاسماء فيها بترتيب ابجدي ومن هنا انتفت الاقليمية عن نتائج المجموعة .

تاثير العربية فى اللغات المحلية

اثرت العربية فى لغات سنغال المحلية ولاسيما الولفية والفلاتية فقد استعملت كل من الجماعتين الحروف العربية فى الكتابة بلغتها ، وذلك منذ زمان قديم مجهول يترسلون ويدونون بها خواطرهم ، اما الولفية فيوجد بينها وبين العربية شبه كبير من خصائص البناء ليس هذا الكتاب مجالا للتفصيل فيها مثل كون اكثر الافعال الماضية مركبة من ثلاثة حروف ، وتقديم علامة المضارع على اصل الفعل والتلفظ بعلامة الجمع . وتاخير الضمائر المتصلة بالماضي عنه الى غير ذلك .

ونظم الشعراء المستعربون الولف والتكلور القصائد ملتزمين فيها قوانين العروض العربية من التفعيلات والقوافي والبحور واستحدث الشعراء المستعربون الوف فنا شعريا سموه البديع وهو قصائد منها «المصدور» يتالف البيت منها من صدر ولفي وعجز عربي . ومنها المعجوز صدره عربي وعجزه ولفي . ومنها المحشو يحشي القسم الولفي بين جزئين عربيين ومنها غير ذلك . وسنلحق بهذا البحث نماذج من هذا الفن لبعض الشعراء الولفيين.

طبق المستعربون الفلاتيون والولفيون قواعد العروض ونظموا قصائد ذات اغراض مختلفة كالقصة والوعظ والمدح والهجاء والرثاء . ولا ينافي ذلك ان يستنكف الكثيرون من كبار المستعربين عن نظم الشعر

بالاعجمية ، ولعل ذلك ناتج عما يسود هذا المجال من اللغو المنافي للورع والمقاصد الصوفية .

يجد الباحث في العلاقات بين الولفية والعربية ظاهرتين لا محيص من ملاحظتهما والاقرار بهما والاعتراف بهما وهما **ظاهرة تاثير العربية في الولفية من حيث الحفظ وابقاء الكثير من مفرداتها وظاهرة تاثيرها فيها بانسداس الكثير من مفرداتها اليها .**

ففي الظاهرة الاولى نلاحظ ان **الكثير من المفردات الولفية المهجورة** في المخاطبات ومن ذواكر الاغلبية العظمى من الشعب ـ غير المستعربين ـ **بقيت محفوظة في صدور المستعربين من الفقهاء** واللغويين الولف ، وذلك بفضل المنهج الذي كانوا يسلكونه في الدرس بتفسير كل كلمة عربية على انفراد بالكلمة الولفية المرادفة لها . وبمرور قرون عدة على تدريس كتب الفقه والاصول والحديث واللغة مثل مختصر خليل في الفقه والورقات ومقامات الحريري ودواوين الشعر الجاهلي وغيرها . ولا شك انه اثناء تطور لغة الحديث بقيت اللغة الشبيهة بالمكتوبة متحجرة يتناقلها المستعربون كابرا عن كابر وحفظت الكثير من المفردات المندرسة من الذواكر . وفي العصر الحاضر **لا يمكن لاحد تاليف معجم ولغوي كامل قوي دونما استمداد واستعانة بهؤلاء المعممين** المدرسين في الحلقات المحظوظين بالدراسة على المنهج القديم المستحفظين في ذواكرهم جميع الكلمات الولفية المرادفة لما في مقامات الحريري ومختصر خليل وغيرهما من كتب الفقه والادب . وكفى للاستثبات من هذا الراي ان يستمع اكبر خبراء الولفية غير المستعربين الى عدة دروس لدى احد المعممين .

اما الجهة الثانية من تاثير العربية في الولفية وهي انسداس كثير من مفردات العربية الى الولفية **تتجلى في تسرب الكلمات العربية العديدة الى الولفية خلال الاحتكاك الطويل بين اللغتين** . والكلمات التي اقتحمت على الولفية عرينها ما اتيح لها ذلك النصر الا بالصبر على الجروح الغائرة التي اصابتها اثناء المعركة وهي متمثلة في التحريف المبنوي والمعنوي اصابها من اللحن والتحريف ما يصيب كلمات كل لغة عندما تغزو غيرها وتتسرب اليها .

والحق ان التحريف المبنوي للكلمات العربية المولفة اكثر شيوعا من التحريف المعنوي وهذا لا يعني ان كلمة من اطهر الكلمات العربية « صادقين » جمع صادق اقبلت ان تفتح دالها وان تكون لها معنى « فاسق » جزاء لدخولها الولفية .

يجرنا الكلام على تاثير العربية في الولفية الى ذكر ما يعترض الكلمة العربية من التحريف حينما تدخل في اللغة الولفية والى شرح ابرز قواعد التحريف . **ان الكلمة العربية قد تفقد بعض حروفها بالحذف ويتشوه البعض الآخر بالتحريف .**

العربية بتضمنها اثني عشرة حرفا غير موجودة بالولفية ، اصلا، تتعرض لتحريف لا محيد عنه، وهذا زيادة على ضروب التعبير التي تترك اثرها في الكلمة العربية . وهذه الحروف هي : ث ح ذ ز ش ص ض ط ظ ع غ هـ . اما اشهر دواعي التحريف المبنوي فهو :

1 ـ **الترخيم** : هو ضرب من التحريف يأتيه الولفي لاظهار التحنن على المعبر عنه وهو مستعمل في العربية ايضا ولكن بصورة تختلف عن الصور الولفية في الترخيم ، وقد يكون بحذف اول الكلمة او حذف آخرها ، وهكذا يقولون في :

زينب	نب	سي	جارية	جاد	فاطمة	فات
خديجة	جة	خد	محمود	مود	رقية	رق
نفيسة	نف	«	عبد	اب	حليمة	المه
صفية	سف	«	ابراهيم	اب، ابر	آدم	آد
فرمة	فر	«	هرون	ار	رحمة	رم

ولعلنا لاحظنا ان العلم «زينب» اصبح شبه مجهول الاصل بعد حذف الحرفية الاخيرين وتبديل الزاي في اوله سينا فلم يبق فيه من اصله العربي الا الياء ومثل هذا يقال في «هرون» وغيره .

2 ـ ويتحرف العلم بزيادة حرف مد في آخره عند النداء وعدم مراعاة قاعدة الوقف العربية : مود (محمود) مودو ! . سال (صالح) سالو ! . آد (آدم) آدا . .

3 ـ تقلب العين والهاء والحاء همزة في اول الكلمة وتحذف غالبا في وسط الكلمة : حبيب (ابيب) حليمة (المة) عبد الله (ابلاي) هادي (آد) عائشة (ايسة) هرون (آرون) محمد (ممد) معاذ (ماس) مهدي (مدي) .

4 ـ يقلبون الثاء ، والذال والزي والشين والصاد والظاء سينا لانها غير موجودة في لغتهم : زينب (سينب) صالح (سالو) .

5 ـ ويقلبون الضاد لاما والظاء تاء .

قال الدكتور عبد الواحد وافي في كتابه « علم اللغة » ص 231 ط : 4 : « والمفردات التي تقتبسها لغة ما عن غيرها من اللغات يتصل معظمها بامور قد اختص اهل هذه اللغات او برزوا او امتازوا بانتاجها او اكثروا استخدامها » وفيما يلي قائمة من الكلمات العربية المولفة التي يبين تاثير العربية في الولفية خصوصا من الناحية الدينية .

الكلمات العربية المولفة :

اجل (نعم)
آدم
ابيس
الاثنين
الاحد
الآخرة
الاربعاء
اسرافيل
الاول (الكاس الاولى من الشاي خاصة)
البيت (الجزء من القصيدة)
البدعة
البرادة
البرزخ (مقر الارواح بعد الموت وقبل البعث)
البركة
البطاقة
البلاء
البهيمة
التخمة
التربية (بالمعنى الصوفي)
الترجمان
التسبيح
التفسير
التهمة
التهجي
التوبة
التوفيق
التيمم
الثلاثاء
الجائحة
الجامع
الجان! (الحية)
الجاهل
جبريل
الجلباب
الجمعة
الجن
الجنة
الجنازة
الجهاد
جهنم
الجو
الجيب
الحاج
الحاجة
الحج
الحديث
الحرام
الحرف
الحرمة
الحق
حواء
الخاتم
الخبر
الخطبة
الخليفة
الخميس
الدائرة
الدابة
الدار
الدبران
دجنبر
الدراهة
الدرجة
الدرهم
الدنيا
الدواة
الدية
الدين
الذكر
ذو الوجهين
الراية
الربا
الركعة
الركوع
الروح
الروضة
الزاوية (مكان تجمع الصوفية للذكر)
الزيارة
الزكاة
الساعة
السبب
السبب
سبوح
الشر
السجادة
السجود
السر
السطر
السطل
السكر
السلام
السلام عليكم
السماء
السنة
السورة
الشرح
الشرط
الشريف
الشغل
الشيطان
الصابون
الصبح
الصدقة

الصراط	القلم	ما رضيت عليه	الناقة
الضر	القفطان	مارس	النصراني
الضعيف	القوال	المحراب	النفس
الطالب	القياس	المداراة	الهدية
الطبل	القيمة	المربط	الهلاك
الطريقة	لقصة	المسيح	الورقة
الطرة	الكافد	المسيح الدجال	الوقت
عزرائيل	الكافور	المسك	الوكيل
العادة	الكاس	المسكين	الوظيفة
العورة	الكامل	المصلحة	الورد
العيب	الكمال	المصيبة	الوفاة
الغوث	الكرامة	المعنى	الولي
الفتنة	كش !	المقامة	يرحمك الله
الفجر	الكفر	المكان	يهديك الله
القاضي	الكلام	الملحفة	يوم القيامة
القبر	الكوب	الملاك	الزمن
القبة	لا بد	المهدي	العرش
قدوس	الله	المنبر	اليهود
القصيدة	اللوح	الميراث	القصبة
القطب	الماموم	ميكائيل	الشر
القرنفل	المثال	المنافق	الفوقية
		لنافلة	الآية

لم انهمت بعد شيب عبرة وبمه
اراقها كلمتا سعدى بمه وبمه !

اذ كلمتني بتين الكلمتين بلا
هزل ومزح بدا لي انها بنمه

وان حبل وصال صار منصرما
او واهنا خلقا تجديده تنمه

مالي اراني ان لامست فانية
عصر الشباب تقبل او تقل ببمه

واليوم ان لمست خودا يدي لعبا
تافقت ثم نادت : « يا أبي سرمه ! »

وكل ناهدة الثديين تلحظني
بعين سخط فتعلي صوتها نومه

وان لهوت تلهت او دنوت نأت
وان اسل فجواب عندها خممه

كل كاعب واعدتني زورة عشقا
زمان شرخي ولما جئتها نخمه

ما قالت اذ كنت أملودا كلمتها
بهيم ليل سوادا فادة منمه

لكن للشيب في فودي وجمجمتي
وخطا وخطا فعذراء النسا نبمه

— * —

الا ارعواء لمن ولت شبيبته
وآذنت بمشيب معلم هرمه

بل كل ضيف كريم القوم حوله
قرى عليه وهذا شيبه كنمه

فاقره — ان ترى ما عشت شادي من
هو الشفيع وكل قائل تلمه

من ذاته كل ذات لازمت عرضا
في عشر شعرتها لو تفتدى سقمه

من كل جرم له قدر يعمره
عند الفراغ فداه والفداد يمه

من دونه كل منطوق بحرف هجا
في الأسم الا الها غيره سكمه

من تحته كل موجود له جهة
من أي ست وربي انني نرمه

محمد سيد السادات لا احد
منهم مدانيه او قالا كنمه

صلى عليه الله العرش ما رجيت
شفاعة منه او قول له ولمه

يا من شفاعته يرجو ويأملها
اهل الكبائر امثالي فدا تنمه

فان جاهك عند الله منجمل
هو العظيم ففي الاهوال فتلكمه

اهوال دنياي او اهوال آخرتي
أو برزخ ثم من ذكراك ديلتمه

لا زلت انبك واسمع ما اردده
يا خير من يرتجيه مرتج ويمه

وقال الشيخ ماجورسيه متحديا للقاضي
مجنحت كل ومنوها بشان الشيخ احمد بمب :

ابدى الكجوري فنا فى البديـع « كمن
ندف » بديعـا كما ابدى وما بدعـا

ان الحقيقة بحر غـاص فيه « تفـر
درمو » عند التقاط الغـائص الودعا

اجاد مدح النبـي الهاشمـي « تـوخ
سخلا ميتم » واجاد المـدح والقذعـا

فالليث ليث عريض الساعدين « كجس
جفم « تيقن ان قد طال ما صرعـا

نفى وحوش الفلا عن ارضه « بجـدو
جستى ج سو فم س» لاسيدا ولا ضبعا

— * —

لكن هنالـك شبـل رابـض « بجكـى
ج خمن » ان سيجيد الصيد والنقعـا

لولا حيـاء وتقـوى ربـه « اكتـم
د دول يم » شب بـرا عالـا ورعـا

وحرمة الشيخ « اكتم موك مك ث بدون
ك ملن من » رد مـاء حيثمـا نبعـا

نظرة في الصلات العربية الفارسية حتى مطلع الإسلام

الدكتور محمد التونجي

(2)

وكان من نتيجة اتجاه الحكم وجهة الشرق ان تأثر العرب بأساليب حكم الفرس ، وبمظاهر حياة جديدة اقوتهم جدتها وجدبهم لمعانها ، مما اضطر بعض خلفاء بني العباس خاصة الى التعرف على تاريخ الفرس والاطلاع على اخبار ملوكهم ومواعظ حكمائهم كجزء هام من ثقافة الخليفة او الامير . ولا زلنا نذكر ان المأمون حكم في بلاد فارس ردحا من الزمان، واستعان بالفرس على اخيه الامين في بغداد.

ولقد تطورت نظم الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة ، وشاع الترف واللهو والطرب ، وتعددت الازياء والفرش والاثاث والآنية . وكان كثير من هذا غير معروف للعرب ، فسموها باسمائها الفارسية او اليونانية او الهندية .

ونحن اذا تصفحنا المعجمات العربية ــ وليس ذلك بعسير ــ وجدنا **عددا وافرا من المفردات كتب المؤلف عنها انها اعجمية او معربة او ان اصلها فارسي.** كذلك اذا نظرنا الى القواميس الفارسية وجدنا **اكثر من ثلث الفاظهم** ــ ولم اغال في ذلك ــ **عربية ومستخدمة في لغتهم الى اليوم .**

ولم يتوان العربي عن اخذ اية مفردة احتاج اليها من جارته ، وقد تجرأ على تغيير شكلها بحرية بشكل يلائم نطقها العربي ، فابدل الحرف بحرف يدنو من مخرجه ، ان لم يكن هذا الحرف نفسه ، لان نطقه في الفارسية لا يوازن نطقه في العربية ، فحور في الشكل ، ولاءم في المخرج .

وقد جرى هذا ، اما بابدال حرف مكان ءاخر ، واما بزيادة حرف او حرفين ، واما بتغيير البناء كله ليصير من ابنية العرب ويتمكن من الاشتقاق منه . وقد ينقص حرفا او يبدل في الحركات ، او يسكن ، او يحرك الساكن . وقد يتركه على حاله دون تغيير ان لم يحوجه الامر الى ذلك .

والجدير بالملاحظة ان **العربي اخذ اسماء ولم ياخذ افعالا او حروفا** ، وحينما احتاج الى افعالها اشتق ما حلا له وما شاء . فمن (لجام) قال : الجمت الفرس . ومن (مهر) : مهر الكتاب . ومن (ديوان): دون الحساب. ويمكن حصر هذه الاسماء ، فهي اما اسماء نبات او حيوان او معادن او ءالات او ماكولات او مشروبات او عادات مما لم يكن يعهدها العربي من قبل .

فكلمة (طبرزين) التي هي في الفارسية (تبرزين) اسم لسلاح ، كان يحمله الفارس الفارسي معه . وقد تكلمت به العرب . قال جرير

في رجل من بني كليب ، يقال له (مجيب) ، اتهم بقرفة ، فلم يلحقوا عليه شيئا فخلوا عنه :

كان مجيد الخبث تلقى يمينه
طبرزبن قين مقضبا للمفاصل

تداركه عفو المهاجر بعدما
دعا دعوة يا لهفه عند نائل

وكانوا يبدلون الحرف (ب) بثلاث نقط باء احيانا ، واحيانا اخرى فاء ، لان نطقه واقع بين الباء والفاء ، والثلاثة من الحروف الشفوية . فقالوا لـ (برند) فرند وافرند وبرند وهو السيف او جوهره. وكذلك قالوا لـ (بنكان) فنجان . ومثلها : الاصفهاني والاصبهاني وكلاهما واحد . وكذلك قلبوا الشين سينا . فقالوا للصحراء (دست) وفارسيتها (دشت) قال الاعشى :

قد علمت فارس وحميـر والـ
اعـراب بالدسـت ايكـم نـزلا

وحولوا كلمتي (بنفشه ولشكر) الى بنفسج وعسكر . اما حرف (الكاف الفارسي) فقد اكثر من تبديله وتحويله . فبعض الكلمات الفارسية قلبت كافها الفارسية الى كاف عربية مثل : (كردن : عنق) فقالوا لها: كردان . وقالوا لـ (الكنج) كنزا . وهنا حصل ابدالان ، فالقاف مكان الكاف والزاي مكان الجيم . وقد تبدل الكاف الفارسية فينا كما في غربال التي اصلها (كربال). اما تحول الكاف العربية والكاف الفارسية الى جيم وقاف ، فقد كان كثيرا مثال : لكام ــ لجام . كربه ــ قربق ، ويعربها بعضهم (كربج وكربق) ، وهي بمعنى دكان البقال قديما ، لاننا سنرى بعد اسطر انهم كانوا يبدلون الهاء جيما او قافا اذا كانت في اخر الكلمة .

اما الكلمات الفارسية التي تنتهي بهاء السكت فانهم بدلوها جيما ، فكلمة (بالوده) عربت الى (فالوذج)، وهي حلوى من الطحين والنشاء والشراب ، والعوام عندنا يلفظونها (بالوظا) لفظا تركيا . و(برده) عربوها الى (بردج) وهي السبي من الجواري او الغلمان . قال العجاج :

كما رايت في الملاء البردجا

وقالوا للقصر (جوسق) واصلها (جوسه) وقد تحولت في العامية الى (كشك) . وقد يبدلونها قافا كما في (باشه) وهو صقر الصيد ، قالوا له (باشق).

واذا اتى قبل الهاء حرف الدال فانهم يبدلونها بالدال فالجيم مثل : ساده ونموده، قالوا : ساذج ونموذج . وبدلوا التاء طاء ، فقالوا لـ (تازه) طازج .

وقد يزيدون على الكلمة حرفا او ينقصون منها حرفا ، فقالوا لـ (كليد) التي هي بمعنى المفتاح (مقليد) او (اقليد) . قال الراجز :

لم يؤذها الديك بصوت تغريده ولم تعالج غلقا باقليد

ونلاحظ انه لم يجتمع في كلمة عربية الجيم والقاف الا بحاجز ، ولا الصاد والجيم . وليس في ابنية العرب اسم فيه نون بعدها راء مثل : نرجس . ولا زاي بعد دال مثل : اندازه ، ثم ابدلوا الزاي سينا فصارت هندسة. كما انه ليس في العربية كلمة مبنية من باء وسين وتاء ، واذا وجدنا كلمة رباعية او خماسية وليس فيها حرف او حرفان من حروف الزلاقة ، وهي ثلاثة من طرف اللسان : الراء والنون واللام ، وثلاثة من الشفة وهي : الفاء والباء والميم ، فالكلمة ليست عربية مثل : صهريج وشبارق وهو فلذات اللحم التي تقطع للطبيخ .

كما كان **يتم التاثر عن طريق الجواري او الاميرات الفارسيات** اللواتي انتقلن الى البيت العربي فكان لابد لهن من ان تؤثر لغتهن وعاداتهن في ازواجهن واولادهن ، وكم عشق الشعراء هؤلاء الجواري وكم نظموا فيهن . فلقد اهدى الوليد بن يزيد ابن ميادة الشاعر جارية طبرستانية رائعة الجمال ، كان نقصها الوحيد في نظره انها لا تحسن العربية ، فقال فيها :

باهلي ما لذلك عند نفسي
لو انك بالكلام تعربينا !

ويتبدى هذا التاثر بواسطة الاسر الفارسية التي هاجرت من ايران الى البلاد العربية ، كما حصل لوالد المهلب الذي هجر بلاده ، وسافر الى عمان ، فطلق ديانته الزردشتية ، واسلم وجعل اسمه ابا صفرة. والعرب اذا كانوا ياخذون اللفظة للحاجة ، فقد اخذوها للتفكه ، كقول ابي المهدي :

يقولون لي شنبل ، ولست مشنبلا
طوال الليالي او يزول ثبير

ولا قائلا زوذا ليعجل صاحبي
وبستان في صدري علي كبير

وشنبذ : من الكلمة الفارسية شنبه اي يوم السبت . وزوذا من زود معناها عجل . وبستان : خذ . او ياخذونها للتفاصح بمعرفتهم الفارسية ، كما نجد الامثال الكثيرة على ذلك فى كتابي : يتيمة الدهر ودمية القصر .

وعلى هذا فقد **تاثر العرب بالفرس لغويا كما تاثروا بالامم المجاورة** ، على ان تاثرهم بالفرس اكثر واوسع نطاقا . وقد جرت **هذه الالفاظ الى العربية فى ازمان متفاوتة** . فلم تزحمهم كثرتها ولم يعقهم نطقها . ومن الحق ان نقول **ان للفارسية فضل رأب الحاجة الحضارية وسد النقص اللغوي الذى تطلبه العصر الجديد بعد الفتح** ، فدخلت فى قرآننا ، وشعرنا ، ونثرنا ، وامثالنا .

واذا كنا تاثرنا بهم حكما وسياسة وتابعية ودينا ولغة قبل الاسلام ، فاننا اثرنا باستقلالهم واديانهم وعاداتهم ولغاتهم بعد الاسلام ، ولما ضاع استقلالهم ، واندمجوا فى دولة الاسلام التى قادها العرب ، ولما ضاعت اديانهم وذابوا فى الديانة الاسلامية ، انغمسوا فى اللغة العربية وعاداتها وعاداتها .

وكنا ذكرنا فى مقالنا السابق ان **الاثر العربي الاول فى الفارسية كان فى تغيير الخط البهلوي الصعب بالخط العربي السهل** .

على اننا لا نلبث نراهم يقتبسون الالفاظ الدينية لتتبعها الالفاظ العلمية ثم الالفاظ الادبية . ورغم ان **اللغة العربية هيمنت على الارض الفارسية** ، ورغم ان القرون الثلاثة الاولى كانت العربية لغة العلم فيها، فان العربية لم تستطع ان تمحو الفارسية تماما . فقد ظلت متداولة بين الناس على الاقل ، ويبين الشعراء لحاجتهم الى القوافي ، ولا يمكنهم استخدام الالفاظ الفارسية فى القافية دائما لان الفاظهم غير كافية لذلك . ويكفي ان ينظر المرء فى ديوان فارسي ليجد ان ثمانية بالمئة تقريبا من الفاظ القوافي عربية .

ولقد **بدا الفرس فى مقاومة العربية منذ القرن الرابع** ، فقد خاطبهم ان تكون العربية رائجة كل هذا الرواج فى بلادهم ، وان يكون العرب حكاما لهم ، واول هذه المقاومات كان استقلال الدويلات الفارسية فى مناطقها ، وتشجيع الشعراء الفرس على نظم القصائد الحماسية والقومية . فقام شعراء ينظمون الشاهنامات ، ويتعمدون الاقلال من ذكر الالفاظ العربية . وقام ادباء يحضون على الكتابة الفارسية — غير ان هاتين الطبقتين لم تستطيعا الحد من التاثر اللغوي للحاجة الماسة الى كل ما دخل من الفاظ، حتى انهم انفسهم استخدموا الالفاظ العربية فى موضوعاتهم الحماسية والقومية هذه .

وكما دخلت القرءان الكريم الفاظ فارسية فقد **دخل الحياة العربية كثير من الفاظ دالة على الزينة والترف** مما لم يكونوا راوها ، كما راوا من تنظيم الحكومة وتدوين الدواوين ما لم يخطر لهم على بال. فاضطروا ان يقتبسوا من الامم المفتوحة الفاظا يدخلونها فى لغتهم ، وكانت اللغة الفارسية اقرب نبع يستقون منه ما يحتاجون .

— فمن اسماء الازهار الفارسية : النرجس. البنفسج . النسرين . الخيرى . السوسن. الجلنار. الارجوان .

— ومن الطيب : المسك . العنبر . الكافور . الصندل . القرنفل .

— ومن الاطعمة : السميد . الكمك . السكباج. الدجاج . الكبة . الخربز وهو البطيخ . الفستق .

ومن الحلوى : الفالوذج (وعربت الى البالوظة). الجوزينج . اللوزنيج . الزرده . الجلاب .

— ومن التوابل : الفلفل . الزنجبيل . القرفة. الكراوية (وهي الاكلة المعروفة فى دمشق خاصة) .

— ومن المفردات الحضارية: مهندس. روزنامة. نرد. برسيس (برجيس) . طربوش . بابوج . كوز ابريق . طست . خوان . طبق ، كاسة (عربت الى قصعة) . خز . ديباج . سندس . لجام . غربال . كردان . ساذج . طازج . نموذج . برنامج . سمسار دهقان . صولجان . فنجان . نيزك . زنديق . بازار.

— ومن مفردات الدواوين : مهر . ديوان .

— ومن الاسلحة والحرب : سبهبد وهو كالامير والقائد عند العرب . درفش (علم) . طبرزين . جند . عسكر . لجام . صولجان .

— ومن الحيوانات : شاهين . باشق . جاموس جؤذر (كاونر) . ذئب .

ولقد عمد العربي الى ما خف على اللسان ، واستعذبت الاذن جرسه ، وان كان عنده اسم لها، فاستعار : مسك . توت . رصاص . ميزاب .

مكان : مشموم . فرصاد . صرفان . مشعب .

ـ كما اخذوا بعض التراكيب منها :

ـ جلاب (ماء الورد) . ميزاب (سيل ماء) . سرداب (الماء البارد) سراب (راس الماء) . زركشة (التطريز بالذهب) .

ـ كما استعملنا في عاميتنا عددا كبيرا من الالفاظ كانت الخلافة العثمانية سببا هاما في نقل بعضها لان اللغة الرسمية في بلاط استانبول كانت اللغة الفارسية :

كبة . كفتة . نازيك . سيخ . كباب . كفكير . بشكير . خولية . عرموط . جادة . جاكوج . بوقالة . تهنا . بقلاوة . ارمغان . برشت . كشتبان . باروج . طربوش .

ولقد استخدم الادباء العرب الكلمات الفارسية في تراكيبهم . من ذلك قول الجاحظ في البخلاء : « ويسكروا الدرياجة على صغار السمك » . والدرياجة هي البحيرة ، و (سكر) كلمة سريانية . وكان الاخفش يقول لتلاميذه : لا تقولوا عندي كلمة هم وبس . وهكذا لا تقولوا لفلان بخت . وفي حديث مجاهد : يغدو الشيطان بقيروانه الى السوق . وقيروان معربة عن كاروان معناها القافلة .

اما المفردات العربية التي استخدمها الفرس في لغتهم ، فقد كانت في كل باب . اذ انهم اخذوا :

ـ مفردات دينية : زكاة . حج . مسلم . مؤمن . كافر . منافق . فاسق . حنث . خبيث . قرءان . اقامة . تيمم . متعة . طلاق . زواج . قبلة محراب . منارة . ابليس ـ زقوم . سلسبيل . حلال . حرام . بركة .

ـ ومفردات في الادارة والسياسة : خليفة . ملك . امير . وزير . حاجب . قاض . غلط . خطا . عارية . نصح . فضيحة . جلاد . سياف . مستخدم

ـ ومفردات الدواوين : كتاب . حبر . قلم . مداد . خط . درس . فصل . باب . الاعداد حتى العشرة .

ـ ومفردات الالبسة : جبة . ازار . لحاف . مخدة . طراز . رداء .

ـ ومن اسماء الاطيار : فاختة . قمري . بلبل . لقلق . غراب .

ـ ومن اسماء ادوات الزينة : حناء . غالية . بخور .

ـ ومن اسماء البلاد والافلاك : بلد . صحراء . طبيعة . بركة . حوض . سهيل . فلك . مشرق . مغرب . شمال . جنوب . طالع . صبا : دبور .

ـ ومن اسماء اصحاب المهن : خياط . قصاب . بيطار . بقال . صراف . دلال .

ـ واسماء خاصة بالاطعمة واللهو : قمار . سفرة . قنينة . شراب . خمرة . غذاء . حلواء . هريسة . قطائف . قلية . نقل .

ـ واسماء في الحرب : حرب . جهاد . علم . طبل . عرادة . منجنيق . ركاب . لواء . نصل . دبوس . حربة . حلقة . قفل .

ـ واوصافها : نبيل . لطيف . ظريف . عاشق . شاعر . كاتب . وفاء . احمق . جاهل .

ـ كما اخذوا تراكيب وافعالا ، واعتبروها بشكل مفرد :

سرحدات : راس الحدود . فهميدم : فهمت (من الفهم) .

مرد لا ابالي : رجل مهمل . زمين لا يزرع : ارض لا يمكن زرعها . بالاضافة الى عشرات المفردات التاريخية . وعشرات المفردات الجغرافية ، وكذلك الطبية والفلكية . واذا طالعنا نثرا او شعرا فارسيا وجدنا ان النسبة المائوية للمفردات العربية تبلغ احيانا 45 او 50 ٪ ، واذا سعى الاديب ان يقل من الالفاظ العربية ، فانه لا يمكنه ان يستغني عن 20 ٪ من المفردات العربية .

والجدير بالملاحظة ان اغلب الالفاظ العربية التي دخلت الفارسية بقيت محفوظة على شكلها الذي اخذوه لعدم وجود الاشتقاق عندهم ، اما اللفظة الفارسية التي دخلت العربية فانها صهرت بالعربية واشتقوا منها حتى ضاع اصلها على المطالع . وربما قيض الله يوما لائمة اللغة من الامتين تجمعهم حمية العلم وفريضة الادب ليتحلقوا حول الدواوين والمعجمات سنوات ليصفوا ما لنا وما علينا ، وما احسب ان الامر يسير ، لما حدث من تلاحم واندماج ، بل لما هنالك من تشابهات وصدف . وهل اخذت اللفظة من العربية ام من العبرية ام من السريانية . ومن ناحية ثانية هل

اخذت من البهلوية ام السنسكريتية ام الفارسية الدرية ؟ .

ملاحظة اخرى جديرة بالانتباة تدل على **مدى التبادل اللغوي بين الامتين** . ذلك ان **العرب استخدموا اسماء فارسية لمسميات ، في حين ان الفرس استخدموا اسماءها العربية** . وقد حصل هذا في العصر الحديث خاصة :

فنحن نقول روزنامة ومعناها (كتاب اليوم) والفرس يستخدمون (تقويم)

ونحن نقول كهرباء ومعناها (جاذب القش) والفرس يستخدمون (برق)

ونحن نقول دستور ومعناها (قانون) والفرس يستخدمون (قانون)

ونحن نقول اركيلة ـ نارکيلة ومعناها (جوز الهند) والفرس يستخدمون (غليان)

ونحن نقول كنار ومعناها (طرف) والفرس يستخدمون (حاشية)

ونحن نقول كاسة ومعناها (زبدية) والفرس يستخدمون (باطية)

ونحن نقول دستور ومعناها (القانون الاساسي) والفرس يستخدمون (مشروطة)

ونحن نقول شرشف ومعناها (غطاء الليل) والفرس يستخدمون (ملاءة اي ملحفة)

ونحن نقول خرضة ومعناها (القراضة والاشياء الدقيقة) والفرس يستخدمون (خرزة)

ونحن نقول بخشيش ومعناها (الانعام) والفرس يستخدمون (انعام)

وقد اخذ العرب اسماء فارسية وتسموا بها مثل : قابوس وهو معرب عن (كاووس) . وقد لقب بها النعمان بن المنذر . ومن النساء دختنوش ، وهو اسم بنت لقيط بن زرارة وهو معرب عن (دخت نوش) .

كما اننا نلاحظ وجود **مدن عربية اسماؤها فارسية** مثل : بغداد ومعناها اعطى الصنم او الله المعطي . البصرة ومعناها بعد الطريق وكانت (بس راه) . الانبار ومعناها المخزن ثم حورت الى عنبر . القيروان ومعناها القافلة . ونجد عددا من القرى والنواحي حول دمشق اسماؤها فارسية مثل : مزة ، كيوان ، برامكة ، بلودان . زبداني . جرجانية . وقد تكون هذه التسميات اطلقها النازحون من بلاد فارس الى بلاد الشام .

وقد استعملنا اعلاما فارسية حديثة مثل : شيرين . مهتاب . شهرزاد . شهناز . سوزان . كيتي . مهيار . فرهود . جهان . فرزان . وقد تكون هذه الاسماء اسماء غلمان وجوار وقد نكون استخدمناها تحببا برقتها .

واذا دخلت الاعلام الفارسية . فان **اغلب اسماء الفرس كانت عربية او مركبة مع العربية** . فقد تاثرت الاعلام الفارسية بالاسلام فاستقوا من الدين الاسلامي ، ومن المذهب الجعفري خاصة هذه الاعلام . فمنها : خير الله . شكر الله . وقد تكون هذه الاعلام غير مستعملة عند العرب مثل : ذبيح الله ، قدرة الله ، يد الله . وقد يركب العلم من كلمة فارسية وكلمة عربية مثل : خدا مراد . خدا رحم . خدا كرم . وقد يستخدمون اسماء الانبياء واسماء ءال البيت مثل : عبد . محمد . عبد الرسول . عبد النبي . وقد يتغير اسم محمد الى ممد ، واسم محمد علي الى ممد لي . ويسمون كلثوم فيقولون لها كرسوم .

ثم هناك : علي . حسن . حسين . باقر . صادق . اصغر . كاظم . رضا . تقي . نقي . وقد يحرفون بعضها فيقولون لزين العابدين زينل او زنيل لابدين . وقد يركبونها او يدخلون عليها لفظة (عبد) : عبد الحسين . على اصغر . عبد الرضا . غلامحسين . غلامعلي . كما ادخلوا عليها اسماء الاشهر الهجرية فقالوا : صفر علي . رجب علي . رمضان حسين .

وقد **تاثرنا باعيادهم التقليدية القديمة** ، واهمها النوروز والمهرجان . وبالرغم من ان الامويين لم يتعمدوا التاثر بالاعياد الفارسية . فانها اخذت تتسرب الى العرب بدون استئذان ، حتى اذا كان العصر العباسي نقلوا الينا الكثير من عاداتهم ، والتي كان لها النفع الكبير لمحبي اللهو والطرب ، والاثر في الادب العربي .

ونوروز ومعناها اليوم الجديد اي عيد راس السنة ، ويأتي في 21 ءاذار من كل عام ، ويعتبر اول الربيع ، وهو اعظم اعيادهم . اما المهرجان ولفظه الفارسي مهركان ، فهو عيد الخريف ، ويبدأ في اول الخريف ، واوله 23 ايلول . واهم امر في هذين

العيدين اهداء الملابس والاموال الى الشعب وتقديم الاطعمة المنوعة . يحكى انه قدم لسيدنا علي كرم الله وجهم طعام فارسي ، فاحبه وسأل : ما هذا ؟ قالوا : هو النوروز . فقال : نورزونا كل يوم . كما يحكى ان الحجاج اول من رسم هدايا النوروز والمهرجان في الاسلام ، وابطلها عمر بن عبد العزيز . وشاعت في العصر العباسي اذ كان الامراء يوزعون البستهم على حاشيتهم ، كما كان يفعل الاكاسرة . وصار من الشائع ان نسمع عن النوروز في الشعر ، كما في قول البحتري وهو يصف الربيع :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد ان يتكلما

وقد نبه النيروز في غسق الدجى
اوائل ورد كن بالامس نوما

وقد مدح المتنبي ابن العميد وهو يهنئه بعيد النوروز بقوله :

جاء نوروزنا وانت مراده
وورت بالذى اراد زناده

عظمته ممالك الفرس حتى
كل ايام عامه حساده

ووصف ابن الرومي عيد المهرجان حينما هنأ عبيد الله بن عبد الله به فقال :

ما رات مثل مهرجانك عينا
اردشير ولا انو شروان

مهرجان كانما صورته
كيف شاءت مخيرات الامانى

اما **الحركة الادبية فقد حصل فيها تبادل تام بين الامتين** : ولكن هذه الصلة وهذا التبادل يقل ظهورهما في الجاهلية ، الا ما ذكرنا من الفاظ وصور. واذا بقي الشعر الجاهلي الى اليوم واستطعنا تمييز ما اقتبسوه من الفرس ، فان الادب الفارسي ضاع قبل الاسلام ، فلم نعد نعرف بماذا تأثر العرب وبماذا اثر العرب .

على اننا عندما نقول الادب الفارسي فانما نعني الادب الذى يظهر بعد الاسلام ، وبعد ان ترعرع ونشأ في حقل الادب العربي ، وبعد ان غذته اللغة العربية والثقافة الاسلامية بجملها وتراكيبها وامثالها واساليبها وبلاغتها .

واذا طالعنا **كتبهم الادبية وجدناها زاخرة بالاقاصيص العربية والحكايات الشهيرة** كحكايات حاتم الطائي ولقمان الحكيم وقيس وليلى . ومن اهم هذه الكتب : كلستان . بوستان . منطق الطير . قابوسنامه . كما انهم اقتبسوا من القرءان والحديث وقصائد الشعراء المشهورين كالمتنبي والمعري ، وكذلك تاثروا بالمقامات . والفوا على منوالها في القرن السادس الهجري . على انهم اذا بداوا مقلدين لمذاهب واغراض الادب والشعر فانهم ما لبثوا ان تخطوا مراحل تجديدية ومبتكرة لدرجة انروا فيها بالادب العربي والهندي والتركي .

اما **الادب العربي فقد تاثر بدوره بالادب الفارسي وثقافته** ، ذلك ان **كثيرا ممن دخلوا في الاسلام اضطروا الى تعلم اللغة العربية** ، وسرعان ما ظهر منهم ومن نسلهم **كتاب وشعراء بالعربية** في حين ان نطقهم للحروف العربية لم يكن سليما — في بادىء الامر — ومن اقدم هؤلاء : زياد الاعجم ، اسماعيل بن يسار النسائي . ابو العباس الاعمى . موسى شهوات. فهؤلاء وغيرهم نشاوا نشأة فارسية، وتادبوا بالاداب الفارسية ثم صاغوا ادبهم بالقالب العربي فاحكموا التقليد اذ ان الفاظهم عربية وتراكيبهم عربية واوزانهم عربية ، وكان الخيال الفارسي ، والروح الفارسية ، والمعاني الفارسية بادية في شعرهم العربي الذى يصوغونه .

وعندما كان الشاعر الفارسي يفخر بقومه على العرب ، كان يستوحي من تراث اجداده ما يقدر ويتخيل ما كانوا فيعرضه بشكل تفاخر ، كقول اسماعيل :

رب خال متوج لي وعم
ما جد مجتدى كريم النصاب

انما سمي الفوارس بالفر
س ، مضاهاة رفعة الانساب

فاتركي الفخر يا امام علينا
واتركي الجور وانطقي بالصواب

واسالي — ان جهلت — عنا وعنكم
كيف كنا في سالف الاحقاب

اذ نربي بناتنا وتدسو
ن سفاها بناتكم في التراب

وكان اشعب في السامعين ، فقال له : صدقت والله ، اراد العرب بناتهم لغير ما اردتموهن له . قال

اسماعيل : وما ذلك ؟ . قال الشعب : دفن العرب بناتهم خوفا من العار ، وربيتموهن لتنكحوهن ، (ويقصد انهم كانوا يتزوجون بناتهم) . فضحك القوم وخجل اسماعيل .

ومع قلة ما وصلنا ، فقد استفاد من ذلك الادب قدماؤنا فكثيرا ما يقول ابن قتيبة في عيون الاخبار: وفي كتب العجم كذا ، وقرات كتاب ابرويز الى ابنه شيرويه . وكثيرا ما ينقل صاحب التاج اشياء عن اخلاق ملوك الفرس وعاداتهم وكتبهم .

كما ان كثيرا من الشعراء والادباء من العرب كانوا ينزلون فارس او العراق ، ويخالطون اهله ، ويرون مدنيته ، ويكون لذلك اثر في ادبهم وفي شعرهم . فقد نزل الطرماح وابو النجم الراجز وجرير والفرزدق العراق ، وابو تمام والمتنبي فارس. وقد كان الفرس شديدي الاعجاب بالشعر العربي فكانوا يتوخون محاكاته في كل اشكاله واغراضه .

فالموضوعات التي نظموا فيها ، بعضها تابع لموضوعات العرب **كالمديح والفخر والهجاء والغزل والرثاء والوصف والحكمة** ، وتفوقوا في **موضوعات الحماسة والقصص ووصف الطبيعة** . وقد قلدوا العرب في وصف الاطلال مع انه عربي خالص كالشاعر منوجهري في القرن الخامس الهجري وهو اول من قلد الاطلال . كما قلدوهم في بكاء الديار والآثار كما فعل خاقاني في وصف ايوان كسرى الذي سبقه البحتري بقرون في وصفه . وكذا بكى حميد الدين البلخي مدينة بلخ عندما خربها الغز سنة 548 هـ . كما انهم غالوا في الموضوعات الشعرية التي اخذوها من العرب كالمديح والخمرة والغزل . وبرعوا في الشعر القصصي، وتجلت براعتهم في نظر الفردوسي للشاهنامة التي يزيد عدد ابياتها على خمس وخمسين الفا من الابيات على بحر واحد هو المتقارب . ثم هناك يوسف وزليخا ، خسرو وشيرين ، ليلى والمجنون .

والتصوف من الموضوعات التي تاثر العرب بها واهم الشعراء المتصوفين الفرس جلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي . اما الاوزان والقوافي فقد نشا العروض الفارسي في احضان العروض العربي وفي دوائره وبحوره واصطلاحاته وقوافيه . الا ان الفرس غايروا بعض الاوزان العربية لانها اكثر طواعية للغتهم واقرب الى انطباعهم ، واضافوا ثلاثة ابحر وهجروا بعضها ، واكثروا من المثنوي اي الشعر مزدوج القافية بين الشطرين . كما اخترعوا الرباعيات ونظموا بها قبل الخيام وقبل العرب . وخالفوا الموشحات العربية بموشحات سموها ترجيع بند منذ اوائل القرن الخامس الهجري .

ومن الشعراء العرب الذين تاثروا بالصور الفارسية : الكميت . المتنابي . الفرزدق . البحتري ابو تمام . المتنبي . المعري . وتورد بعض الكتب الادبية قطعا وابياتا تشير الى انها مقتبسة عن الشعر الفارسي كالبيان والتبيين للجاحظ ، ويتيمة الدهر لابن قتيبة ودمية القصر للباخرزي . على ان المجال الضيق لايسمح لنا باستعراض نماذج من ذلك. ونذكر ان ابا نواس له قصائد فارسية لا يعرفها الادباء العرب ، سميناها (فارسيات ابي نواس) .

وما يقال عن الادب والشعر والعروض يقال عن البلاغة ، فقد كانت **قواعد الاسلوب الادبي الفارسي مطابقة تماما لقواعد الاسلوب العربي** من حيث الايجاز والاطناب والتشبيهات والاستعارات . كما ظهر نوع من الشعراء زادوا من التبادل الثقافي ، لانهم نظموا باللغتين فسموا (ذو يالسانين) .

ويحسن ان اتوقف لحظات عند الخمرة والغزل المكشوف قبل ان اختم الموضوعات الشعرية . فالخمرة كانت معروفة في الجاهلية ، تاجروا بها ، وشربوها ، وحرمها القرءان ، ووصفها الشعراء . وازدادت مع الزمان حتى بلغت اوجها في الاتساع والجراة في العصر العباسي . وعلى هذا فالشعراء العرب الذين وصفوا الخمرة لم يقتبسوا من الشعراء الفرس لسبب بسيط هو ان ميلاد الشعر الفارسي لم يبدا قبل اواخر القرن الثالث الهجري ، ونعلم ان الاخطل وبشارا وابا نواس ومن لف لفهم عاشوا وماتوا قبل ذلك بكثير . ولكننا نقول ان الترف الذي عرفه العرب عند تماسهم بالفرس فسح الطريق لمثل هذا اللهو اكثر .

والغزل المكشوف كان معروفا كذلك عند امريء القيس والنابغة والاعشى منذ الجاهلية ، وعند الاخطل وعمر والوليد وغيرهم في العصر الاموي . وبزداد الغزل المكشوف حرية حتى يبلغ العصر العباسي عند بشار وابي نواس واسماعيل بن يسار وغيرهم . ولم يتاثر الشعراء العرب بالغزل الفارسي للسبب الذي ذكرناه في الخمرة، ولكنهم تاثروا بالحضارة الفارسية التي زادت من جهة هذه الجراة في الكشف . اما الغزل الغلامي فالجاهلية لم تعرفه

ولا القرن الاول ، ولكن جاء به الترف والحضارة الجديدة وكثرة الغلمان والسقاة . على ان الفرس ليس عندهم ضمير خاص بالمؤنث وضمير خاص بالمذكر ، فالضمير لكليهما واحد ، وكذا الامر في المخاطب والمخاطبة واسم الاشارة ، لذا فاذا نادى الفارسي لم يعرف السامع هل المنادى مذكر ام مؤنث، على ان هذا ليس دفاعا عن الفرس فهذا هو الواقع ، كما ان الفرس لم يقولوا الشعر قبل رواج الغزل الغلامي ، وبعدئذ برعوا فيه ، انما الحضارة وكثرة الغلمان والترف هي التي ساقت الشاعر والحياة الى هذا اللون من الغزل . وجدير بالملاحظة ان العرب في الطرف الغربي من الامبراطورية العربية لم يفعلوا فعل الشرقيين في الغزل المكشوف والغزل الغلامي .

وما يقال عن كل ما مضى من تبادل في التاثر والتاثير نقوله عن القصص والحكايات ، فقد تاثرنا باساطيرهم وحكاياتهم واثرنا بهم في حكاياتنا وقصص قرءاننا . وكذا استفاد الفرس من الامثلة العربية ، كما استفاد العرب من الامثال الفارسية .

وتعتبر العقائد من اكثر الامور تاثيرا في الامم وفي ءادابها . فقد عرف العرب في الجاهلية الزردشتية وهي المجوسية ، والمانوية ، والمزدكية . وقد تجلى ذلك بتقديس العرب للنار المقدسة عند المجوس بحلفهم بها وبوصفها ، كما عبد بعض العرب الشمس وهي من عناصر الطبيعة التي عبدها الفرس والشرق ، وبدا كل ذلك في شعرهم . ونجد بقايا ذلك في اشعار الشعراء بعد الاسلام كبشار والمعري والمتنبي وابي تمام . ولا ادل على تاثرهم بالاديان الفارسية من قول ابن قتيبة في كتابه (المعارف) ، عند كلامه على اديان العرب في الجاهلية : « وكانت النصرانية في ربيعة وغسان ، وبعض قضاعة . وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث ابن كعب وكنده ، وكانت المجوسية في تميم ، وكانت الزندقة في قريش . اخذوها عن الحيرة » . وقد رفض المنذر الثالث اعتناق المزدكية فعزله قباذ وعين مكانه الحارث ابن عمرو امير كندة بعد ان اعتنق المزدكية .

وقد تاثر الاسلام بالزردشتية كما يقول احمد امين بعقيدة العامة من المسلمين في بعض الامور ، كما تاثرت المعتزلة بمسالة الجبر والاختيار . ومن الجدير بالذكر ان الاعاجم عندما دخلوا الاسلام كانوا على دين خاص ورثوه عن اجدادهم ، ولم تمح من مخيلتهم هلائم دينهم القديم فاضافوها على ما يتعلمونه من الدين الاسلامي .

ووجود الزندقة ، وبقايا المجوسية خلق حركة فكرية ومعركة ادبية جديدة ممثلة في مدارس علماء الكلام واهمهم المعتزلة . وقد الفوا الكتب ضد هؤلاء الزنادقة ، ونظم الشعراء القصائد في الرد عليهم او مشاركتهم ءاراءهم . ومن اهم من الف في هذا المضمار واصل بن عطاء في كتابه (الالف مسالة) للرد على المانوية . والجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) .

ورغم كل ذلك فقد ازال العرب من ارض فارس تلك الديانات التي وزعتهم فرقا ، وشتتتهم مزقا ، فجمعتهم تحت راية التوحيد ، الطاهرة ، وحررتهم من النظم الاجتماعية والطبقة الفاسدة .

وقد تبع هذه الحركة الفكرية ، حركة ادبية قريبة الشبه منها وفي مسالة تفاخر الموالي على العرب ، ورد العرب مزاعم الموالي الشعوبيين . ومهما كانت النتائج ونوعية الخصام فقد نتج عن ذلك تبادل ثقافي تام الاركان فيه التاريخ والفلسفة ، وفيه الشعر والنثر ، وفيه التاليف الواسعة ، والاطلاع على الفلسفة . ومهما غشت هذه الحركة من مزاعم يشوبها الخطا ، فان نتيجتها الادبية والفكرية الجديدة واقعة على الادبين العربي والفارسي على السواء .

ولقد كانت حركة المناواة شديدة في العصر الاموي، وتضعف الحدة ويتسع نطاقها الادبي كلما دنونا من العصر العباسي او خطونا فيه . ولقد شرقت قصور الخلفاء العباسيين بالموالي رجالا ونساء وغلمانا وغصت الجيوش بهم .

واذا كان الموالي يتخوفون من الرد على الشعراء العرب في العصر الاموي فانهم لم يتورعوا عن التفاخر بجدودهم امام خلفاء العصر العباسي ، وها هو الشاعر المتوكلي ، شاعر المتوكل ونديمه يقول :

انا ابن المكارم من نسل جم
وحائز ارث ملوك العجم

ومحيي الذي باد من عزهم
وعفى عليه طول القدم

الى ان يقول :

فعودا الى ارضكم بالحجاز
لاكل الضباب ورعي الغنم

فاني ساعلو سريـــر الملـــوك
بحد الحســـام وحـــرف القـــلم

ويتهجم ابو نواس على العرب بوسيلة اخرى ، هي تهكمه الكثير بطريقة العرب في التقديم لقصائدهم بالغزل وبكاء الاطلال ، ودعوته الملحة الى بدء القصائد بالخمريات . ولا يمكننا ـ كعرب ـ ان نعتبره تجديدا في الادب لان ابا نواس احاط رغبته هذه بالسخرية والوضع من قواعد الشعر العربية ، وقد كان يستطيع ان يجدد بغير تندر ، كما في قوله :

عاج الشقي على دار يسائلها
وعجبت اسال عن خمارة البلـد

دع ذا ، عدمتك ، واشربها معتقة
صفراء تعتق بين الماء والزبـد

كم بين من يشتري خمرا يلذ بها
وبين باك على نـؤى ومنتضـد

اما التجديد الحق ، فهو الذي قام به المتنبي، حينما عجب من الشعراء المتكلفين للحب ، اذا افتتحوا مدائحهم بالغزل ، فقال صادقا :

اذا كان مدح فالنسيب المقـدم
اكل فصيح قال شعرا متيـم ؟

لحب ابن عبد الله اولـى فانـه
به يبدأ الذكر الجميـل ويختـم

على ان الامر لم يقف في هذه المعركة على الشعر بل انبرى الطرفان بتاليف كتب في هذا المضمـار. فمن الكتب التي الفت انتصارا للشعوبيين من الموالي:

ـ فضل العجم على العرب وانتصار العجم من العرب . تاليف : سعيد بن حميد البختكان .

ـ ادعياء العرب . لصوص العرب . فضائـل الفرس . تاليف : ابي عبيدة معمر ابن المثنى .

ـ المثالب . تاليف : علان الفارسي . المثالب الكبير والمثالب الصغير. تاليف : الهيثم بن عدي .

ومن الخير للطرفين ان هذه الكتب فقـدت ، ولم يبق بين ايدينا الا الاسـم ، والا النـزر القليـل منتشرة في كتب الادب وعيون اخبارها . ومن اهم الكتب التي ردت على مزاعمهم :

ـ العرب ـ لابن قتيبـة . البيـان والتبيـين للجاحظ .

وقد امتدت حركة الشعوبية الى ارض الاندلس بلون ءاخر ، فقد الف ابن فرسية رسالة في التهجـم على العرب ، فرد عليه عدد من الادباء منهم : يحيى ابن مسعدة وابو جعفر احمد البلنسي .

كما ان الموالي ناهضوا افكارهم بتلفيق احاديث مكذوبة على لسان النبي (صلى الله عليه وسلم) . من ذلك : لا تسبوا فارسيا ، فما سبه احد الا انتقم منه عاجلا او ءاجلا » . كذلك اخترع العرب احاديث ترفع من قيمة العرب وتحط بالعجم ، من ذلـك : « من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ، ولم تنلـه مودتي » . على ان هذه الحركة لم تنفع التبادل الثقافي ولم تنفع الحركات الادبية بل ضرتها . كما ان انتصار الموالي للرواة الفرس كابي عبيدة، وانتصـار العرب للرواة العرب كالاصمعي لم يات بالنفع بـل اتى بالضرر . ومن اجمـل الـردود على مزاعمهـم الشعوبية قول المتنبي :

وانمـا النـاس بالملـوك ومـا
تفلـح عـرب ملوكهـا عـجـم

لا ادب عنـدهـم ولا حسـب
ولا عهـــود لهـم ولا ذمـــم

اما الحكم والامثال : فالانسان مع انه يغمـض عينيه اذا سمع حكمة فانه ينصت اليها ويميل الى الاستفادة منها والاستشهاد بها . ولقد كان للفـرس اثر كبير في الاخلاق الساميـة والآداب من ناحيـة حكمهم . ذلك ان الاخلاق الاسلاميـة تاثرت بثلاثـة مؤثرات :

1 ـ بالتعاليم الدينية التي وردت في القرءان والاثر ، ومن الانجيل والتوراة .

2 ـ بالفلسفة اليونانية التي نقلت في العصـر العباسي .

3 ـ وثالثا بحكم واقاسيص الفرس او ما نقل بواسطتهم عن الهندية ، بما نقل عن الملوك والوزراء ورجال الاديان الفارسية ووعاظهم . وقد ملئت كتب الادب بها، ومن اهم الكتب التي ملئت بامثـال هـذه الحكم، عيون الاخبار، سراج الملوك ، وكتب الجاحظ وابي حيان . العقد الفريد.

ومن جملة الامثال الفارسية التي عرفها العرب واستخدموها :

ـ اذا جاء البعير حام حول البير .

ـ سألوا الثعاب اين شاهدك ؟ قال : ذنبي .

ـ احذروا صولة الكريم اذا جاع ، واللئيم اذا شبـــع .

ـ اذا اردت ان يقبل قولك فصحح رايـك ولا تشوبنه بشيء من الهوى . فان الراي الصحيح يقبله منك العدو ، والهوى يرده عنك الولد والصديق .

ـ اذا كلمك الوالـي فاصـغ الى كلامـه ، ولا تشغل طرفك عنه بنظرة الى غيره ، ولا اطرافك بعمل ولا قلبك بحديث نفسي .

ـ استح الحياء كله من ان تخبر صاحبك انك عالم وانه جاهل ، مصرحا او معرضا. الى غير ذلك مما تزخر به كتب الادب والحكم .

على ان **الفرس اخذوا حكمهم كذلك من القرءان والحديث ومن حكم حاتم ولقمان والمتنبـي والمعـري** وغيرهم واستفادوا منها بعد الاسلام .

ومن اهم الامـور التـي ادخلت العربيـة في الفارسية ، والفارسية في العربيـة **التـــرف** ، والجواري خاصة من اسباب الترف . فلقد ادخـل نظام التسري الى الاسر العربيـة عادات وتقاليـد والوانا من الامور الاجتماعية ، وفنونا وموسيقا مـا كانت معروفة عندهم انما جاء بها هؤلاء الجواري من بلادهم .

ولقد كان العربي يشتري القينة لفن تجيده ، والشعراء كان عندهم قينات ، وافرموا بهن وعرفوا منهن اسماء الآلات الموسيقية والازهـار ورقة الغناء والوان الطعام . كان كل ذلك ينابيع للشعراء علـى تاوين شعرهم وتطعيمه باوصاف وتشبيهات لم تكن عربية . واذا استهجن الأمويون ابناء الاماء فان اغلب امهات الخلفاء العباسيين كن اماء وقينات فارسيات وغير فارسيات .

وختاما لحديثي ، انه لمن الخطا والغلو ـ كمـا يقول احمد امين ـ أن نعتبر ان العرب كانوا بمعـزل عما حولهم من الثقافات والاديـان ، وان آراءهـم وآدابهم وعلومهم نبتت وحدها من عقول عربية ، من غير ان تغذى بغيرها.

فقد راينا انهم ـ حتى في جاهليتهم ـ لم يكونوا بمعزل ، وانهم كانوا بعد الاسلام اكثر اتصالا والتحاما وعلاقة . ولا يقدح التبادل الثقافي اية امة ، فالعلـم ملك شائع ومرفق مباح يغترف منه الناس جميعا ، وليس له حدود فاصلة كالتي ترسمها السياسات ، وانما الذي يقدح في الامة حقا ان تغمض عيونهـا ، وتسد ءاذانها عما حولها من نظريات وافكار ، او ان يدفعها التعصب الاعمى ان تنسب لنفسها ما ليس عليها ، وتعزو اليها خلق ما لم تخلق ، وابتداع ما لم تبتدع . كما على الامة أن تبحث عن تراثها، ولا تتهاون فيه ، وتحافظ عليه ، فهو الذخيرة الدسمة والمجـد الاثيل الذي عليها ان تبقى عليه .

ولشدة الارتباط الوثيـق بيـن الادب العربـي والادب الفارسي الاسلامي في العصر العباسي غـدا لزاما على دارسي الادب العربـي من الفـرس دراسة الخطوط العريضة على الاقل للادب العربي ، واصبح من الضروري لفهم الادب العباسي العربي تفهم الثقافة العربية التي كانت مفرغة من ارض الجزيرة العربية شرقها وغربها ، او مستقاة من الامم المجاورة ودراسة تطور الادب الفارسي لمعرفة الجديد في ادبنا والجديد في ادبهم .

لغة البادية

الأستاذ عبدالله بن خميس
«الرياض»

البادية خلاف الحاضرة ، وجمعها بـــوادي ، وتسمى بداوة بالكسر ، والنسبة اليها : بـــداوي ، بالفتح والكسر ، وبدوي أيضا .

وهي من بدا اذا نشأ ، أو اذا ظهر وبرز . وهو الارجح ، لبروز البادية في الفيافي والقفار ..

والبادية هم سكان الوبر ، الذين يتتبعـــون مساقط الغيث ، ويطلبون الكلأ والمرعى لماشيتهم ، ولا يستقر بهم القرار في مكان معين ، الا في فصـــل الصيف حيث يقطنون المناهل ، ويدنون من المياه . والبادية هي اصل العرب ، وسكان جزيرتهم الاولون ، وسفر لغتهم المعتمد ، منها تكونت الحواضر ، واليها ترجع الارومات الاصيلة ، ومنها تفرعت الشعـــوب والقبائل ..

وهي في الجاهلية رمز العرب ، ووجههم الامثل، وفي الاسلام ـــ كما قال عمر ـــ اصل العرب ومـــادة الاسلام . صريح اللغة ومصيحها مصدره البادية ، وعادات العرب الكريمة، وتقاليدهم الاصيلة، ومميزاتهم الاثيرة .. مصدرها البادية ، والشعراء المقاويـــل ، والخطباء المصاقع ، والمتكلمون اللسن .. اعلامهـــم ، ومبرزوهم ، من البادية .. لم تفسد الحضارة سجنهم ، ولم تلن السنتهم ولم تغمز لهم صعدة ، ولم تقل لهم حد .. يتكلمون بالسليقة والفطرة ، فتفتر شفاههم عن قول فصل ، وكلام جزل ، وبيان سليم مستقيم .. يصدر عن طبع أبي ، وخاطر ذكي ، ولسان ذرب طلق ..

هذه الصفات دفعـــت بالامراء ، والرؤســـاء والخلفاء ، وعلية القوم ، وذواتهم .. ان يبعثوا بابنائهم الى البادية ، المدرسة الاولى لتربية اصيلة ، تعطـــي الشاب الى جانب الرشاقة ، وبناء الجسم بناء رياضيا متينا ، وتكوينا متكاملا فارها .. تعطيه قوة الشخصية، واستحصاد الراي ، ونفاذ الارادة ، ومصادر الشجاعة والدربة ، وسلامة المنطق ، وقوة العارضة ..

قال بعض الاعراب : نحن امراء الكلام ، فينـــا وشجت عروقه ، وعلينا تدلت غصونه ، فنحن نجني منها ما احلولى وعذب ، ونترك ما املوح وخبث ..

وقال الجاحظ : ليس في الارض كلام هو امتع ، ولا انفع ، ولا آنق ، في الاسماع ، ولا اقود للطباع ، ولا افتق للسان ، ولا أجود تقويما للبيان .. من كـــلام الاعراب الفصحاء العقلاء .

ووصفهم الحارث بن كلدة امام كسرى فقـــال : لهم انفس سخية ، وقلوب جرية ، وعقول صحيحة ، وانساب صريحة يمرق الكلام من افواههم مـــروق السهم من الرمية ، اعذب من الماء ، وارق من الهواء يطعمون الطعام ، ويضربون الهام ، وعزهم لا يرام ، وجارهم لا يضام .. ووصف احدهم امراة فقال : كاد الغزال يكونها ، لولا ما نقص منه وتم منها .

واوجز احدهم قصيدة كاملة في جملة مقتضبـــة فقال : سبقنا الحي ، وفيهم ادوية السقام ، فقران بالحدق السلام ، وخرست الالسن عن الكلام ..

في هذه البيئة المتابية ، واللغة الصريحة .. تربى سيد العرب عليه السلام ، وتربى اعلام الخلافة ، وكبراء القادة ، ونبلاء المجتمع الاسلامي .. ولم يكن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، من ثقفته البادية ، واصلحت لسانه ، فكان لحنة ، وظل لحنه وصمة عار في تاريخه . قال ابوه : اضر بالوليد حبنا له حيث لم نبعثه الى البادية .

خطب الناس يوم عيد فقرأ في خطبته : يا ليتها كانت القاضية بضم تاء ليت . فقال عمر بن عبد العزيز: عليك واراحنا الله منك .

وعن البادية اخذ علماء اللغة فصيحها ، ومتوحها ، وتعلموا في اختيار الافصح ، والا بعد عن الحواضر ، ومجاورة الاعاجم .. فعنوا عناية فائقة بما دونوه ، فاخلصوا لغة العرب في صميمها الذين لم ترتضخ لغتهم عجمة ، ولم يخدشها شذوذ ، ولم يداخلها تقصير .. دونوا لغة قريش ، وقيس ، وتميم ، واسد ، وهذيل ، وبعض كنانة ، وبعض طيء ..

وتحاشوا الاخذ من لغة لخم ، وجذام ، وقضاعة، وغسان ، واياد .. لمجاورتهم اهل الشام . وكذلك تحاشوا لغة تغلب ، ويمن الجزيرة ، وبكر ، وعبد القيس ، وازد عمان ، واهل اليمن ، وبني حنيفة ، وثقيف .. لمجاورة بعضهم للفرس ، ولمجاورة الآخرين للاحباش ، ولان بعضهم اهل تجارة ، ونقلة ، واختلاط بمشبوهي اللغة ..

فاخلصوها من تلتلة بهراء ، ومن طمطمانية حمير ، ومن كشكشة ربيعة ، ومن ككة هوازن ، وفحفحة هذيل ، ووكم ربيعة ، ووهم كلب ، وعجعجة قضاعة ، وشنشنة اليمن ووتمها ، وعجرفة ضبة ..

وممن أخذ عن البادية ، ولقيهم في مرابعهم ومراتعهم ، وسمع منهم : يونس بن حبيب الضبي ، وخلف الاحمر ، والخليل بن احمد ، وابو زيد الانصاري ، والاصمعي ، وابو عبيدة ، والكسائي.. وهؤلاء هم من أول من رحل الى البادية واخذ عنها ، وهم من علماء القرن الثاني ..

وكان العلماء في القرن الاول يعتمدون الفطرة ، ويرجعون الى السليقة ، ويستانسون بمن يلقونه من الاعراب ، ولما أوغل العلماء في التحقيق ، وتأنقوا في الاحصاء والاستقصاء ، وبعدت الحواضر الاسلامية عن البادية ، وداخل لغة البادية المجاورين للحواضر ما داخلها .. بدأ عصر الرحلات ، ولقيا الاعراب ..

وكانوا اذا لقوا الاعرابي وشكوا في سلامة لغته ، امتحنوه ، وربما وضعوا له قياسا غير صحيح ، او جمعا غير وارد ، أو لفظا غير فصيح ، فان نطق به ، أو اقره ، طرحوا لغته ، وان أبت سليقته ذلك أخذوا عنه ..

قال الاصمعي : سمعت أبا عمرو يقول : ارتبت بفصاحة اعرابي ، فاردت امتحانه ، فقلت بيتا . والقيته عليه وهو :

كم رأينا من مسحب مسلحب
صار لحم النسور والعقبان

فأفكر فيه ، ثم قال رد على ذكر المسحوب ، حتى قالها مرات : فعلمت ان فصاحته باقية ..

وقال ابن جني : سألت مرة الشجري ـ وهو اعرابي من عقيل ، كانوا يرجعون اليه في اللغة ـ ومعه ابن عم له ، كان دونه في الفصاحة ، وكان اسمه غصنا ـ فقلت لهما : كيف تحتران حمراء ؟ فقالا : حميراء ، ووالله من ذلك احرفا وهما يجيئان بالصواب ، ثم دسست في ذلك علباء ، فقال غصن : عليباء وتبعه الشجري فلما هم بفتح الباء : تراجع كالمدعور ، ثم قال : آه عليبى ..

وقال في موضع آخر : سألته يوما ـ يعني الشجري ـ : كيف تجمع دكانا ؟ فقال دكاكين . قلت : فسرحانا ؟ قال : سراحين .. قلت فعثمان؟ قال : عثمانون ! فقلت له : هلا قلت عثامين ؟ قال : أيش عثامت ؟ أرأيت انسانا يتكلم بما ليس من لغته ؟ .

وهكذا خاطب القرآن هؤلاء القوم ، بمستوى من البيان على غير مثال سبق ، ونهج من التعبير على غير مهيع عرف ، وبلاغة من القول هي المثل الاعلى ، والقول الفصل .. في كل ما تكلمت به أمة الضاد ..

لقد كان ازدهار لغة العرب بين يدي الاسلام برعيل ممتاز من الشعراء المقاويل ، وبصفوة من الخطباء المصاقع ، وبصيارفة من النقاد ، يزنون ما تفيض به قرائح القوم ، وما تجود به خواطرهم .. كانت تلك اليقظة اللغوية ، توطئة بين يدي الاسلام ، وترشيحا للذهن العربي لاستقبال المعجزة المنتظرة .. فكان البيان العربي قبيل ظهور الاسلام ، غاية في الابداع ، ونموذجا حيا في تاريخ اللسان العربي .. والا لما وقعت آية محمد عليه السلام من هؤلاء المقاويل ، موقع الذهول ، ثم الاستسلام ..

لم يكن الاعراب بلغتهم الصافية، وذكائهم الفطري واستعدادهم الذهني .. قوم استماع ولهم فحسب ، بل رشحتهم هذه الصفات ، ليكونوا مرجعا فى تفسير القرآن ، وايضاح غريبه ، وتاصيل لغته ..

سأل عمر بن الخطاب وهو على المنبر جماعة المسجد عن معنى قوله تعالى : او ياخذهم على تخوف. فسكت القوم ثم قام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا التخوف : التنقص . قال عمر : هل تجد له شاهدا من لغة قومك ؟ قال نعم . قال شاعرنا :

تخوف الرحل منها تامكا قـــــردا
كما تخوف عود النبعة السفـــــن

وكان ابن عباس ــ وهو حبر الامة ، وترجمان القرآن ــ يقول : الشعر ديوان العرب ، فاذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي انزله الله بلغة العـرب ، رجعنا الى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه .

وكان رضي الله عنه يجلس بفناء الكعبة ، ثـــم يكتنفه الناس ، يسالونه عن التفسير ، وثبته مـــن كلام العرب ، وقد استشهد على جواب سؤال واحـد بنيف وتسعين بيتا من الشعر العربي الفصيح .. وهو ما سأله عنه نافع بن الازرق .

وتابى سليقة الأعـراب ان تقبـل ما خـرج عن مقاييسها الفطرية ، او تفهم ما جاءى لسانها . بل ترد كل ما سمعته الى اصوله ..

دخل اعرابي على الوليد بن عبد الملك ــ وقـد اسلفنا انه لحان ــ وكان عنده عمر بن عبد العزيز ، فقال الوليد للاعرابي : من انت بوصل الهمزة ؟ فظـن الاعرابي انه يقول : مننت فقال : المنـة لله ولاميـر المؤمنين . فقال عمر بن عبد العزيز : ان امير المؤمنين يقول لك : من انت ؟ قال : فلان بن فلان . قال الوليد : ما شانك وفتح النون ؟ قال جدري فى وجهي ، ونحج بساقي . فقال عمر بن عبد العزيز : ويحك ان امير المؤمنين يقول : ما شانك وضم النون ؟ قال ظلمنـي ختني . قال الوليد : ومن ختنك وفتح النون ؟ قال : وما سؤالك عن ذلك يا امير المؤمنين حجام عندنـا بالبادية قال عمر : ان امير المومنين يقول لك : من ختنك وضم النون ؟ قال : فلان . وهكذا نـدرك ان البادية مصدر اللغة العربية الاول ، ومعدنها الاصيل ، وهي المرجع فيما اختلف فيه ، حتى فى الفاظ القرآن والسنة .

ورغم ما اصاب الامة العربية من نكبات وهزات، عبر القرون المتتالية ، ورغم ما لحق لغتهـا مـــن انتكاسات ، وعلق بها من أوضـار ، وداخلها من عجمة.. مما جعل المعول فى حفظها ، وبقائها .. على القـرآن الكريم ، وعلى معاجم علمائها البررة .. رغم ذلك كله فقد بقيت البادية الى يومنا هذا ، تعتز بلغتها ، وتدل بلسانها الذرب ، وبيانها الجميل .. ففي هضبة نجد ، ومرتفعات الحجاز ، ومناكب السروات .. قبائل تابت لغتها على الواكـز واللاكـز ، وانفت من اللغـة الحضرية اللينة الملحونة . وهي وان كانت لا تنطق لغة القرآن سليمة مستقيمة، ولا تواكب لغة امرىء القيس، والنابغة ، وزهير .. واضرابهم ، على نحو ما وصل الينا من شعرهم ، الا اننا نجعل فى الحسبان اختلاف اللهجات ، بشكل واضح ، ربما يصل الى استعصاء فهم قبيلة لهجة اخرى فى بعض الاستعمالات والمسميات. ومعلوم ان لغة القرآن حصرت فى لسان قريش .. كما نجعل فى الحسبان ايضا ما هنالك من تسهيل فى الهمز، وتسكين لاواخر الحروف ، وادغام لبعضها فى بعض .. ونحو ذلك مما يكاد يتفق فيه نطق الجميع .. بحيث اذا اجتمع بهم دارس العربية ، واستمع اليهم ينطقون.. ظنهم يرتضخون عجمة موغلة .. واذا تدبر ما يقولون ، وتفهم حقيقة النطق .. تكشفت له حقائق ما كان يظنها باقية فى قومه .. وابرز ما يكون هذا فى بلاد عسير ، وسراة تحطان ، ومنحدرات جبال الجنوب ، وسهول نجـــد ..

فى احدى زياراتي لتلك المناطق ، كنت يومـــا جالسا فى دكان احد الاخوة فى مدينة ابها ، فدخـــل الدكان رجل مؤتزر بازار مصبوغ باللون الاحمر الغامق، ويلف اعلى جسمه ما عدا منكبه الايمن ، وجزءا مـن جنبه ، برداء سمك اغبث ، يشد وسطه على خنجـر مفرطة الطول ، بحزام من الادم ــ هذا الرجل قصير اسمر ، نحيف ، عاري الاشاجع ، تتوقد عينـــاه ، وتريغان نظرهما هنا وهنالك ، مكشوف الراس ، عن لمة منسدلة على مؤخرة رقبته ، مشدودة برباط من الادم ، غارزا فى جوانبها طاقات من اغصان البعيثران والشيح .. فتكلم بما يشبه النقيق ، فهمه صاحب الدكان وانا لم افهمه .. ولما قضى حاجته احب هذا البائع ان يعرفني مكانة هذا من اللغة العربية ، سليقة ، وفطرة، وكان البائع يعرف اهتمامي بمثل ذلك . فاجلسه معنا ، وقال لي تفهم كل ما يقول ، فاخذ يساله عن قبيلته ، وعن ارضه ، وماشيته ، ومن اية الطرق اتى ، وبماذا هبط المدينة.. الخ واذا به يتكلم اللغة العربية الفصيحة،

التي بعضها مهجور الاستعمال ، مودع بطون المعاجم ولولا سرعة نطقه ، وادغام بعض الفاظه ، وترك الهمز في بعضها ، لم يفتني من عربيته الاصيلة شيء..

قلت لصاحبي : ممن هذا ؟ قال : من قبيلة ربيعة. ومعلوم انها ربيعة اليمن لا ربيعة اخت مضر .

اما بادية نجد ، فهم صميم القبائل القحطانية ، والعدنانية . قحطان ، والدواسر ، وسبيع والعجمان، وآل مرة ، وبنو هاجر ، وبنو خالد ، والسهول ، وعتيبة، ومطير، وشمر، وحرب، وعنزة، والقرينية.. وغيرهم من القبائل الضاربة في نجد وما جاورها ، هؤلاء لكل منهم لهجة خاصة به ، من اليسير على العارف ان يلقى فردا لا يعرفه ، ولا يعرف من اية القبائل هو .. وبمجرد مخاطبته يدرك انه من القبيلة الفلانية ..

فمثلا قبيلة شمر ، نشير الى شيء من لهجتها : هي تقلب الهمزة (شيء) الى نون ، فتقول : ما رايت شينا ، وما وجد شين ، وما حظيت بشين .

وهي ايضا تستعمل لفظ (دهج) بمعنى مر ، او الم ، تقول : دهجت المنهل الفلاني : يعني مررت به ، او المت به .

وتستعمل (نهج) بمعنى ذهب ، ومرادفاته ، تقول : نهج فلان : بمعنى ذهب او سافر ، او راح ..

كما ان لهجتهم على مذهب القائل :

ايها السائل عنهم وعني
لست من قيس ولا قيس مني

فهم يحذفون نون الوقاية ، من (عن) و (من) الشاذ حذفها فيهما لغة ، اذا اتصل بها ضمير المتكلم . فيقولون : ليس عليك مني ، بكسر النون فقط . وهل سأل عني بكسر النون فقط وهكذا ..

وهم ايضا يقلبون الهمزة من (ماء) نونا فيقولون: مان :

وباء الجر المتصلة بالضمير يضمونها ، فيقولون: ما به مان : اي ما به ماء .

ويسمون الجدول : سريا ، وهذه موافقة للغة القرآن .

ويسمون السنبل : سبلا

ويسمون المنجل : مخلبا

ويسمون البندقية : بارودا .

وهكذا تتميز لهجتهم ، كما تتميز كل لهجة من اللهجات الاخرى ، عن اختها .. غير انها تلتقي في صميم اللغة وفصيحها .. وتجمع على محاربة الدخيل والشاذ .. ويتفق اهلها على نقد ما تأباه اللغة وتنكره.. ادخل احد الحضريين انفه في حديث في الابل ، بحضرة رجل كبير في بلادنا ، فجاء هذا الواغل بمفرد للابل ، فقال : ما راينا ولا (بلة) واحدة ، فكانت مثار سخرية ، وهمز وغمز ، واستهجان ومعروف ان الابل لا مفرد لجمعها ، وفي لهجتهم : يقال : ابل واحده للمجموعة الواحدة من الابل، وفي المجموعتين من الابل يقال : فلان يملك ابلين . ويقولون اذا تجاوزت الابلين: فلان يملك ثلاث رعايا ، او ثلاث عصي ، فيكنى بالعصا عن الابل . وهكذا .

واسماء اعضاء الناقة ، واجزاء جسمها ، تختلف عن اسماء ذلك . من الفرس ، ومن الشاة ، ومن غيرهما ، وكذا الحال بالنسبة للطير ، والوحش ، وسائر الدواب .. فاذا اعطى حضري ، او مستعرب ، اسما او صفة لجنس من ذلك هو معروف للجنس الثاني، فقد استهدف للنقد، وتعرض للسخرية والهزء..

ونجد ان من يعيش في احضان البادية من الحاضرة ، او يكثر الاحتكاك بالاعراب ، او يعيش في قرى او مواضع تربها البادية .. نجد لغته تتسم بالفحولة ، والجزالة والقوة ..

ولما كان الشعر حليفا للعربي منذ اقدم العصور، تغنى به وفخر ، ووصف وبكى ، ومدح ورثى .. وسلك به شتى المذاهب، وولج شتى الابواب .. ولم يزل كذلكم فما هو شعر بادية اليوم ونحن لا نزال نعترف لهم بسلامة اللغة واصالة المنطق !

رغم ان شعر البادية اليوم يسمى شعرا شعبيا، ويسمى شعرا نبطيا ، ويعيش في عصر فارق فيه شعر السليقة والطبع ، وسلامة اللغة ، منذ ما يزيد على الف سنة ، ولكنه ينزع الى اصله ، ويمت اليه .. تقرؤه على انه شعر شعبي ، ويقرؤه الكل كذلك ، ولكن اذا وقفت عنده وقفة الدارس ، واردت ان تواشج بينه وبين الفصيح ، وجدته يعود اليه ، ويعول في اوزانه ، ورويه وقوافيه ، عليه ، ويلتقي معه في اغراضه ومناحيه ، ويحمل صورا من الجمال، ودقات من الفن ، والموسيقى ، والجرس تطرب وتعجب ..

ان من يتذوق هذا الشعر ، بعد دراسة ورياضة طبع.. يجده ذلك الشعر الفصيح بعينه ، بل يمتاز عليه شعر البادية اليوم ، أو الشعر الشعبي ، بانطلاقه من بيئة عربي اليوم ، ومجتمعه ، وحمله طبع العربي ، وصفته كما خلقه الله ، من غير تحمل ، ولا تعمل ، حيث ينطلق من الخباء ، والمزرعة ، والريف ، والفلاة، والقرية ، والمعسكر . الخ .. أما شعرنا الفصيح اليوم، فهو ابن المدرسة ، أو المدينة المترفة ، أو المجتمع المتحضر ..

تعالوا نستقرىء طاقة من شعر البادية، ونتلمس خلالها صلتها بشعرنا العربي الفصيح :

قال الشاعر الشعبي ما جد القباني :

فما الناس الا من تراب معادن
وما طاب من تلك المعادن طابا

بيت من قصيدةشعبية طويلة، قالها اعرابي فيشملته انطلق فيها عن سجيته، وقرأها كما يقرؤها غير من رواة الشعر الشعبي، ومريديه، بلغة عامية دارجة .. ولكن حينما تعود بهذا البيت الى أصله ، بصفتك دارسا للشعر الفصيح ، ومتذوقا له، الست تجده بيتا موزونا مقفى ، سليم اللغة بكر السبل يرمز الى حكمة نبوية كريمة : الناس معادن كمعادن الذهب والفضة .. الخ.

ثم اقرأ للشاعر نفسه :

نديت على الدنيا شقا لو نديبه
على الدين ما مس النفوس عذاب

يقول نداب في طلب الدنيا ، دأبا لو دأبناه على ديننا ، ما مس نفوسنا عذاب . جرى شاعرنا على لغة من لا يهمز ، وقلب الهمزة ياء ، كما هو شأن الشعر الشعبي .

وللشاعر الشعبي راشد الخلاوي :

ولا يد الا يد الله فوقها
ولا غالب الا له الله غالبه

كل يد مهما تويت فهناك يد أقوى منها ، هي يد الله ، وكل غالب قاهر ، فالله أقوى منه ، وقادر على قهره ودحره .

وله أيضا :

غلي من قديم العمر نفس عزيزة
أعض على عصيانها بالنواجد

منذ نعومة أظفاري ، ونفسي لا تقبل الدون ، ولا ترضى بالهون ، واذا راودتني عصيتها ، وعضضت على عصيانها نواجذي ، فهي عزيزة أبدا ..

وقوله :

مقام الفتى في منصب العز ساعة
ولا ألف عام يصحب الذل صاحبه

فلا بالتمني تبلغ النفس حظها
ولا بالتأني فاز بالصيد طالبه

حياة الفتى هي العز ، ولو لم يكن الا ساعة واحدة ولو عاش ألف عام ، وهو في ذل ، فليست حياة الذل بحياة ..

ثم دعا في البيت الثاني الى العمل ، ورفض التمني ، ودعا الى انتهاز الفرص ، واهتبال الاوقات.. فبئس من كانت بضاعته الاماني ، وتعس من فرط في الفرص واضاعها ..

وقال الشاعر الشعبي ابو حمزة العامري :

نأبى عن الطمع الزهيد نفوسنا
وفروجنا تأبى عن الفحشاء

نفوسنا أبية لا تقودها المطامع الى ذلة ، وفروجنا عفة لا تستهويها الفحشاء .. ونعم الصفات صفاتهم .

وقال بركات الشريف :

فلا تعد تعدلاني لاني من وقوفي بربعها
فمن قبلكم خالفت بالنصح عذالي

أروم الامور العاليات بهمة
ويمنعني خذلان قومي واقلالي

وجزت فجاج الارض شرقا ومغربا
على كل عيس تقطع البيد مرقال

وليس يلام المرء بعد اجتهاده
ولا يدفع المقدور حيلات محتال

الى ان قال مادحـــا :

فتى لا يرى الامـــوال الا ودائعـــا
لديه سوى سيف ورمح وسربـــال

وعدة بولاد ولدن مـــن القنـــا
وصقرا علنداة من الخيل مصهـــال

الستم معي في ان هذا الشعر الى جانب كونه صحيحا فصيحا ، فهو يحمل صورا حية من الجمال ، ولفتات بارزة من المعاني الشعرية ، المؤثرة .. وانـــه بهذا يمثل الشعر العربي الفصيح ، رغم انه قيـــل بالسليقة ، ونبع من البيئة العامية ؟ !

وبعد فهذه هي لغة البادية ، نثرها وشعرها ، تبرز من خلالها سجايا هؤلاء الاعراب ، وتشف عن طباعهم الكريمة ، واخلاقهم المثلى ، وتنبيء عن الاصرة التي تربطها بالفصحى ..

لنا اذا لغة في بطون الاسفار ، نجترها ، ونرجع اليها ، ونصدر عنها .. تلتقي اخرى توارثتها السنة الاجيال ، وتناقلها الخلف عن السلف ، وبقيت مصدرها السليقة ، ومنطقها الطبع ، وحارسها الغيرة ..

وعلى الغياري من علماء هذه الامة وادبائها في هذا الجيل مسؤولية حملها اياهم اسلافهم البـــررة الاوفياء ، الذين خلصوا هذه اللغة من كل شائبـــة وريبة ، ولم يزالوا قوامين عليها ، غيرا على حماها.. يلقون ما يخدش لغتهم بالنقد اللاذع ، ويتقبلـــون ما يانفونه بالرد الموجع ، ويلاحقون الواغل الدخيـــل ، كما يلاحق المجرم .. حتى وصلت الينا ..

فما هو موقفنا من هذا التراث الضخم ، في عصر العلوم ، والفنون ، والمخترعات . وعصر تواشـــج الامم، وتقاربها واندماجها .. وعصر التقليد والمحاكاة ــ تقليد الاضعف للاقوى .. ان هذه الامانة تستهدفها هذه التيارات ، وتنقصها من اطرافها ، وتنازعها البقاء .. تريد منا غيرة ولا كغيرتنا على التراب ، والكيـــان ، والمصالح ..

وتريد منا لغة البادية ــ وقد علمنا مكانتها من لغتنا وقومنا ــ ان نتخذ الوسائل الكفيلة برعايتهـــا ، وحمايتها وجعلها منطلقا لاحياء لغة الضاد ، سليقة وطبعا ، في السواد الاعظم من بني جلدتنا ، على نحو ما كان اسلافنا يعملون ، في الاستفادة من لغة البادية، وطبعها ، وخشونتها ، ورجولتها ...

واننا ان شاء الله لفاعلون .

الصراع بين الفصحى والعامية
أو
أثر الازدواج اللغوي في أسلوب يوسف السباعي

الدكتور زكي عبد الملك
أستاذ الأدب العربي والعلوم اللغوية
جامعة يوطا (الولايات المتحدة)

في العالم العربي ازدواج لغوي قوامه اللغة الفصحى واللهجات العامية الدارجة . فاما اللغة الفصحى فتستخدم في اكثر الاغراض الكتابية كما تستخدم في اكثر الاحاديث التي يغلب عليها الطابع الرسمي . واما اللهجات العامية فيستخدمها الناس في غير تكلف لقضاء حاجاتهم العادية . والاغلبية الساحقة من المثقفين في البلاد العربية يرون ان **اللهجات العامية لا تصلح للتعبير الادبي** ، ولهم في ذلك حجج يجدر بنا ان نعرض لها في ايجاز :

واهم تلك الحجج ان **اللغة الفصحى لغة القرءان** وعلى معرفتها يتوقف فهم القرءان . لذلك تحمل علماء اللغة فيما مضى الوانا من المشقة وضروبا من العناء في شرح قواعدها (1) ، ولذلك يابى العرب اليوم ان يستبدلوا بها اللهجات العامية في كتابة الادب فيقصوها من حياتهم اقصاء لا ندري اتعود بعده ام لا تعود .

ثم ان **اللغة الفصحى** تعتبر عند العرب **ارقى من اللهجات العامية واعذب** ، واتقانها دليل عندهم على الثقافة العالية والذوق الرفيع . ليس غريبا اذن ان يرد طه حسين جهل فريق من الشعراء بالفصحى الى الكسل والتقصير والقصور (2) .

واللغة الفصحى مشتركة بين العرب اينما وجدوا فالمغربي يقرا ما يكتب في مصر فيفهمه ، والمصري يقرا ما يكتب في المغرب فيفهمه . اما اللهجات العامية فتختلف باختلاف المناطق ، واستخدامها في كتابة الادب يحول بين الادباء في كل منطقة وبين القراء في المناطق الاخرى .

بقيت حجة اعرب عنها الدكتور محمد مندور حين زعم ان العامية الدارجة تضيق عادة بالتعبير عن اعمق المشاعر وادق المعاني « بحكم انها لا تزال مقصورة على حياة الاميين الذين لا يستعملونها الا في التعبير عن حاجات حياتهم الضيقة في نوع المشاعر ودقة التمييز بينها ، فضلا عن عمق الخاطر او اصالته » (3) .

ولما ظهرت القصة الحديثة في الادب العربي ونشا فن المسرح العربي الحديث ، اخذ بعض الادباء يتبرمون باضطرارهم الى انطاق الشخصيات القصصية والمسرحية باللغة الفصحى . وتساءل اولئك الادباء : اليس عجيبا ان يجري الحوار بلغة فصيحة متينة السبك بين اشخاص لم يصيبوا من الثقافة كثيرا ولا قليلا ؟ اليس ذلك مما يفسد القصة والمسرحية ويناى

(1) « المقدمة » للعلامة ابن خلدون (القاهرة:مطبعة التقدم) ، الجزء الاول ، ص 455 .
(2) « حديث الاربعاء » لطه حسين (القاهرة :دار المعارف ، 1957) ، الجزء الثالث ، ص 200 – 201 .
(3) « المسرح النثري » للدكتور محمد مندور(القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية ، 1959)، ص 81 .

بهما عن الواقع الذي تجتهدان فى تصويره ؟ ومع ذلك ظل اكثر الادباء والنقاد يرون **اللغة الفصحى خير اداة للتعبير فى المسرحية والقصة ، ويقاومون استبدال العامية بها** ؛ فالدكتور محمد مندور مثلا لا يتردد فى رفض الدعوة الى استخدام العامية فى المسرحية ، وهو يعلل رفضه على النحو التالي :

« كل مسرحية انما هي حكايـــة حال ... ولا يمكن أن تكون حكاية لسان ، فالمؤلف لا ينطق لسان مقال شخصياته الروائية بل ينطق لسان حالهـــم ، والواقعية ليست فى اللغة وانما فى التصوير النفسي للشخصيات ومدى مطابقة هذا التصوير لواقع الحياة الظاهر منها والخفي ، والذي تستطيع الشخصيات التعبير عنه أو لا تستطيع . والذي يحدث فعلا هو ان المؤلف يعبر بلغته هو وبلسانه ، وكل ما يطلب منـه هو أن يأتي تعبيره صادق التصوير لواقع شخصياته . وسيان فى ذلك ــ من الناحية الفنية ــ أن يستخـــدم لغة عربية فصيحة أو عامية أو اية لغة اخرى » (4) .

والاديب المصري يوسف السباعي ممن يرون ان للعامية فى القصة والمسرحية دورا يجب ان تؤديه . وقد عرضه ذلك لنقد عنيف رد عليه اكثر من مرة ثم تظاهر بالاعراض عنه ، ولكنه تاثر به ما فى ذلك شك ، فقد مر اسلوبه القصصـــي بمراحـــل ثـــلاث : كان فى المرحلة الاولى اسلوبا جـــزلا فصيحـــا يكثر فيـــه الاستشهاد بالشعر ويوشك أن يبرا من العامية . ومن خير الامثلة على اسلوب هذه المرحلة كتاب «اطياف» (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 1947) ، فانت تقرا فيه الصفحة تلو الصفحة فلا تجد من العامية (5) الا الفاظا قلائل متفرقة ، يدل عليها المؤلف ويميزها من بقية الالفاظ كانه يعتذر منها الى القارىء : (6)

اني لم أرك منذ كنت تصطـــاد الســـمك على شاطيء الترعة « بالبنطلون القصير »

ما زالت ذاكرتك قوية « يا عم محمد »

ساجهز لك « سنارة » لصيد السمك .

وقد تجد بين صفحات الكتاب احيانا ما يبعث فى نفسك شعورا قويا بأن المؤلف يشق على نفسه فى الكتابة ، ويتكلف من العناء شيئا غير قليل فى اختيار الالفاظ حتى تستقيم له العبارة ويبرا اسلوبـــه من العامية : (7) .

— قم يا ابن اللئيمة . ماذا تفعل هنـــا ؟ تالله لئن رايتك خطوت الى هنا مرة ثانية لادقن عنقك .

— لتقر عيناك يا ابا لهب ، ولتهدا بالا . لتتخذن لك من داري مأوى ومخبا .

وفى المرحلة الثانية تنقسم القصة من حيـــث الاسلوب الى قسمين : القسم الاول هو ما يقدمـــه السباعي نفسه بين يدي القارىء من تحليل ووصف للزمان والمكان والاحداث والشخصيات . واسلـــوب هذا القسم فصيح رغم أن الالفاظ العامية تتسرب اليه بين الحين والحين . والقسم الثاني هو الحـــوار ، واسلوبه عامي ليس فيه من آثار الفصحى الا الهجاء . ومن خير الامثلة على اسلوب هذه المرحلـــة كتـــاب « السقامات » (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 1952) الذي شرح السباعي فى مقدمته موقفه من العامية :

« التقيت ذات يوم بالاستاذ احمد بك عباســـي كبير مفتشي اللغة العربية بوزارة المعارف ، فانباني ان الوزارة كانت توشك أن تقرر بعض كتبي لمدارسها لولا أن اللجنة المختصة رات ان الكتب تحوي بعض عبارات بالعامية ....

« وعلى هذا فلم اكد ابدا هذه القصة حتى ذكرت وزارة المعارف ومطالبها التي تتفرع عن اللغة العامية، وعزمت أن اقيم سياجا منيعا يحـــول دون تســـرب الالفاظ العامية التي تابى الا أن تفرض نفسها فرضا فى سياق الحديث . واخذت فى الكتابة محاولا اجـــراء الحوار بين ابطال القصة باللغة الفصحى ، ولكني لـــم اكد اكتب بضع صفحات ، ولم اكد « احمـــي » فى الكتابة ، حتى وجدت ابطال القصة ينطلقون على الرغم مني فى الحديث بالعامية ...

---

(4) المرجع السابق ، ص 57 ــ 58 .
(5) اللهجة العامية التي يستخدمهـــا يوسف السباعي فى قصصه هي اللهجة القاهرية .
(6) ص 82 .
(7) المثال الاول مقتبس من صفحة 25 والثاني مقتبس من صفحة 28 .

« ولست اشك اننا في فترة صراع بين العامية والفصحى ....

« وهذه قصة يبدو فيها هذا الصراع بين الفصحى والعامية . ولا جدال هناك في ان الغلبة ـ في الحوار ـ للعامية ، لانه من المستثقل المعجوج ان نحاول انطاق اشخاص القصة باللغة الفصيحة وهم لا يمكنهم في حياتهم الطبيعية ان ينطقوا بها » . (8)

واستئثار العامية بالحوار جاء في العبارات التالية التي نقتبسها من الكتاب : (9) .

ـــ ما فيش لزوم يا شحاتة افندي . انا رايح القهوة بتاعتنا عشان عندي شوية شغل عايز اقضيهم .

ـــ وماله . تقضي شغلك وبعدين نروح سوا .

بقي اسلوب المرحلة الثالثة ، وهو يفوق الاساوبين السابقين في الاهمية لسببين :

اما السبب الأول فهو ان السباعي يلتزم ذلك الاسلوب في اكثر ما كتب من قصص ، ولعله قد استقر واتخذه مذهبا دائما . واذن فقد يكون ذلك الاسلوب النتيجة التي انتهى اليها الصراع بين العامية والفصحى عند السباعي . وما دامت **خصائص الازدواج اللغوي واحدة في كل مكان** (10) فقد يكون في اسلوب هذه المرحلة من الخصائص ما هو شائع في الاساليب القصصية اينما يوجد الازدواج اللغوي .

واما السبب الثاني فهو ان السباعي من اكثر العرب انتاجا ، فقد نشر بين عامي 1947 و 1968 خمسة واربعين كتابا ، منها خمس مطولات مسرفة في الطول هي : « رد قلبي » و « ناديا » و « جفت الدموع » و « ليل له آخر » و « نحن لا نزرع الشوك » . واكثر قراء السباعي من الشبان الذين تبدأ حياتهم الادبية عادة بتقليد ما يطالعون . وقد ظفر السباعي من ثناء النقاد (11) بما يغري القراء بتقليده ان كانوا في حاجة الى الاغراء ومنهم من يعجبون به اعجابا يخرجهم من طورهم احيانا . (12) لن يدهشنا اذن ان يكتب عدد كبير من قصص المستقبل باسلوب المرحلة الثالثة .

لهذين السببين يجدر بنا ان نحلل اسلوب المرحلة الثالثة في شيء من الاناة والتفصيل . واول ما نلاحظه **ان السباعي في تحليله ووصفه يصطنع اسلوبا فصيحا تعترضه احيانا الفاظ عامية او اجنبية** كالالفاظ التالية:

برنيطة ، معبز ، بنج بونج ، دكة ، شلة ، شورت ، بوز ، تنس ، مد موازيل .

لكن الجديد حقا في اسلوب هذه المرحلة هو ما تجده في الحوار . ذلك ان لغة الحوار ليست فصيحة صرفا ولا عامية صرفا ، وانما هي بين بين ، تاخذ من هذه بمقدار ومن تلك بمقدار . ومن خير امثلة على هذا الاسلوب كتاب « نادية » (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 1960) . تقرأ ذلك الكتاب فيخيل اليك ان الاشخاص يتخاطبون على فطرتهم بالعامية ، ولكنك تتامل ما يقولون فاذا انت مضطر الى الاعتراف بان للفصحى اثرا ظاهرا لا سبيل الى انكاره . **على هذا النحو يجتهد السباعي في التوفيق بين العامية والفصحى** وهو يتوسل الى هذا التوفيق باربع وسائل هي : اقتباس ، واصطناع كلمات « الطبقة الدنيا » ، وترجمة التعابير العامية الى الفصحى ، وتجريد الكلمات من علامات الاعراب . ولنفصل :

الاقتباس

يقتبس السباعي من الانجليزية والفرنسية عددا غير قليل من المفردات ولكنه ، كما يتضح من الامثلة التالية ، قل ان يقتبس العبارات :

هالو
ول
تيم
جمنزيم
بونجور

---

(8) ص 6 ـ 8 .
(9) ص 261 .
(10) Charles Ferguson, « Diglossia », Word, Vol. XV (1959), pp. 325-340.
(11) من هذا الثناء ما كتبه توفيق الحكيم في « يا امة ضحكت » ليوسف السباعي (القاهرة : مطبعة روز اليوسف 1955) ، ص 5 ـ 8 .
(12) سجل يوسف السباعي شيئا من هذا الاعجاب في كتابه « اني راحلة » (القاهرة : مؤسسة الخانجي 1950 ، ص 10 ـ 15 .

غير ان ما يقتبسه السباعي من اللغات الاجنبية قليل اذا قيس بما يقتبسه من العامية . ذلك أن السباعي لا يقنع فى اقتباسه من العامية بالمفردات بل يتعداها ، كما ترى فى الامثلة التالية ، الى التعابير ولا سيما التعابير المجازية والامثال السائرة :

ماما	فسحة	عبيطة
بابا	جاكتة	يزغد
شماعة	فانلة	طس
زور	فتلة	
امال	سي (سي عمر)	
الله !	يا ريت	
اما (اما مفاجاة !)	ومالة	

على سن ورمح ـ عيون فارغة ـ يفتح الله
لا هنا ولا هناك (انا لا هنا ولا هناك)
جه نقبها على شونة
اكف الجرة على فمها تطلع البنت لامها
الله يخرب بيته ـ الله يعمر بيته ـ لا مؤاخذة
راح النه لا يرجعه ـ اشيل مين فيهم ـ راجل اليط
انت بنت مايعة ـ مياعة بنات ـ مش بطال ـ برك على انفاسي ـ حاضر يا فندم .

وثمة نوع آخر من الاقتباس يتميز به الحوار فى المرحلة الثالثة هو اقتباس التراكيب من العامية . ومن امثلة ذلك :

(1) العطف بدون حرف عطف :
قومي البسي

(2) تكرار اللفظة للدلالة على الاستهتار :
شيوعيون شيوعيون

(3) مخالفة البدل للمبدل منه فى التعريف والتنكير :
عند دادة فاطمة

(4) استعمال الواو للدلالة على الاستمرار :
ثلاث ساعات وانا واقف على قدمي

(5) مخالفة بعض الصفات للموصوف فى التذكير والتانيث ، او فى الافراد والتثنية والجمع :
فستان بمبة ـ زهور بمبة ـ ناس بلدي

ولنلاحظ ان السباعي فى اقتباسه من العامية متاثر بالفصحى من حيث لا يدري . فما ينطق فى بعض الكلمات العامية همزة يكتبه السباعي قافا ، وما ينطق فى البعض الآخر دالا يكتبه ذالا :

نقبها ـ خد بالك

اصطناع كلمات « الطبقة الدنيا »

الكلمات المشتركة بين اللغة الفصحى واللهجة العامية القاهرية ثلاثة انواع :

(1) كلمات لا تختلف صيغها العامية عن صيغها الفصيحة ، ومن هذه الكلمات « كتب » و « درس » و « بلد » و « من » وهلم جرا .

(2) كلمات لكل منها صيغة فصيحة واخرى عامية : والصيغتان تختلفان اختلافا يقرره قانون لغوي عام . فالصيغ الفصيحة « نائم » و « صائم » و « عائم » و « دائم » و « فوائد » تختلف عن نظائرها فى اللهجة القاهرية (« نايم » و « صايم » و «عايم » و « دايم » و « فوايد »)
اختلافا يقرره القانون اللغوي القائل ان المشتقات من مجرد الثلاثي الاجوف تكون عينها فى العامية القاهرية ياء اذا كانت فى الفصحى همزة .

(3) كلمات لكل منها صيغة فصيحة واخرى عامية : والصيغتان تتشابهان الى حد وتختلفان الى حد ، ولكن ما بينهما من فرق لا يقرره قانون عام. فالفروق التي تميز الصيغ الفصيحة « رجل » و « امراة » و « عربة » من نظائرها فى اللهجة القاهرية (« راجل » و « مره » و « عربيه ») لا تقررها قوانين عامة .

ومن الكلمات المشتركة ما له مترادفات تنفرد بها الفصحى من دون العامية ، ومنها ما ليس له مثيل هذه المترادفات : فالفعل « دوخ » مشترك بين العامية والفصحى ، وله مرادف فصيح لا تشترك فيه العامية هو « ارهق » . واسم الفاعل « صائم » مشترك بين العامية والفصحى كذلك ، الا اننا لا نجد له مرادفا تنفرد به الفصحى من دون العامية .

يمكننا اذن ان نقسم الكلمات الفصيحة الى ثلاث طبقات : طبقة عليا تائلف من كلمات تنفرد بها الفصحى من دون العامية (مثل « حذاء ») ، وطبقة وسطى تائلف من كلمات مشتركة فصيحة الصيغة ليس لها مترادفات بين كلمات الطبقة العليا (مثل « صائم ») ، وطبقة دنيا تائلف من كلمات مشتركة فصيحة الصيغة لها مترادفات بين كلمات الطبقة العليا (مثل « دوخ »).

وكلمات الطبقة الدنيا تتسم بطابع عامي مصدره وجود مترادفات لها فى الطبقة العليا . لذلك يزور انصار الفصحى عن كلمات الطبقة الدنيا ؛ اما يوسف السباعي فيتعمد اختيار تلك الكلمات ليبلغ ما يريد من التوفيق بين العامية والفصحى . وفيما يلي بعض ما يستعمله السباعي من كلمات الطبقة الدنيا ، وما يؤثره انصار الفصحى من كلمات .

كلمات الطبقة الدنيا	كلمات الطبقة العليا
قومي	انهضي
راقدة	مضطجعة
يدوخونه	يرهقونه

ترجمة التعابير العامية الى الفصحى

نصح الدكتور محمد مندور للقصاصين بترجمة اقوال العامة كلما دعت الى ذلك مشاكلة الواقع (13). وقد وفق السباعي الى نوع من الترجمة لا نزعم انه يرضي الدكتور محمد مندور ، ولكنه ابرز ما يتميز به الحوار فى المرحلة الثالثة .

يعمد السباعي الى العبارة العامية فيبقي فيها على النوع الاول من الكلمات المشتركة ، اما بقية الكلمات المشتركة فانه يستبدل صيغها العامية بالصيغ الفصيحة ، واما الكلمات التي تنفرد بها العامية من دون الفصحى فانه يستبدلها بنظائرها الفصيحة . وفيما يلي بعض العبارات العامية ، والترجمة التي يستعملها السباعي ، والعبارات التي يؤثرها انصار الفصحى :

العبارات العامية	الترجمة	العبارات الفصيحة
سليم اربعة وعشرين قيراط	سليم اربعة وعشرين قيراطا	معافى تماما
سليم ميه فى الميه	سليم مائة فى المائة	معافى تماما
زي الجن الازرق	كالجن الازرق	معافى تماما
فاتك نص عمرك	فاتك نصف عمرك	ضاع عليك الكثير
وراني نجوم الظهر	اراني نجوم الظهر	ارهقني من امري عسرا
تشتغل عليه	تشتغل عليه	تنصب له اشراكها
ادهاني وانا واقف	اعطاها لي وانا واقف	اعطاني اياها فى الحال
ميهمنيش رمضان	لا يهمني رمضان	رمضان لا يعنيني فى شيء
راجل امير	رجل امير	رجل طيب القلب
تعملي العمله	تعمليين العملة	تاتين ما يشين
لمي جسمك	لمي جسمك	احتشمي
لازم الفستان ما جاش عند المكوجي	لا بد ان الثوب لم يات من عند المكوجي	لا بد ان الثوب لا زال عند الكواء

(13) « فى الميزان الجديد » للدكتور محمدمندور (القاهرة : مطبعة نهضة مصر) ، ص 55 .

ونحن نصر على ان نقطة الانطلاق ليست العبارات الفصيحة ، اي ان السباعي لا يعمد الى العبارات الفصيحة فيختار منها أقربها الى العامية . ولو كان ذلك مذهبه لما عثرنا فى كتبه على تعابير مثل « رجل امير » و « تشتغل عليه » لانها لا تؤدي فى اللغة الفصحى ما يقصد اليه من معنى .

تجريد بعض الكلمات من علامات الاعراب

اكثر الكلمات التي يجردها السباعي من علامات الاعراب هي اسماء العلم ، وهو يجردها عادة من علامة النصب ومن التنوين . غير ان السباعي احيانا يجرد من علامات الاعراب ومن التنوين كلمات غير اسماء العامية . وستجد فى الجمل التالية امثلة على ما نقول: العلم ، ولا سيما اذا كانت تلك الكلمات مقتبسة من

ساعود الى البيت لارى فاضل

لا بد ان اذهب لارى عصام

انا احب عصام

اريد غيار لنادية

وضع الدكتور لها مرهم

اتظنين الرئيس جمال عبد الناصر فاضي ؟

يرى تشارلز فرغيسون ان « التخصص من اهم مميزات الازدواج اللغوي » . (14) وهو يقصد بذلك ان العامية قل أن تؤدي من وظائف الفصحى شيئا ، وان الفصحى قل ان تؤدي من وظائف العامية شيئا. ذلك حق ، ولكنا نرى مما سبق ان العامية والفصحى تتنازعان فى بداية الامر ، وان ما يكون بينهما من تنازع على وظيفة بعينها لا يتمخض عن نصر حاسم الا بعد مرور زمن قد يطول . فظهور وظيفة جديدة فى الادب العربي ، هي القصة الحديثة ، قد اثار بين العامية والفصحى خصومة شديدة وصراعا عنيفا . وليس اسلوب المرحلة الثالثة عند السباعي الا اثرا من آثار هذه الخصومة وصدى من اصداء ذلك الصراع .

(14) Charles Fergusson, « Diglossia », Word, Vol. XV (1959), p. 328.

أساليب ومناهج صياغة اللفظ في التعبير العربي

للدكتور باناهي (باكو) "الاتحاد السوفياتي"
ترجمة الأستاذ فؤاد حمودة "الرباط"

لم تزل صياغة الكلمات التي تعالج شتى مناحي الحياة الاجتماعية تشكل القضية العلمية التي تواجه المصطلح اللغوي او الفني الحديث في اللغة العربية ، والتي لما يتوصل بعد الى حلها .

ان مراجعة معاجم اللغة واستقراء المواد والنشرات العلمية لتعطي للقارىء فرصة الوقوف ـ بين الحين والاخر ـ على بعض المصطلحات الاوربية الدخيلة .

وفي العصر الحاضر وخلافا لما كان سائدا في العصور الوسطى فان عددا وافرا من تلك المصطلحات الاوربية الغربية ، تحيد عن قواعد اللغة العربية من حيث الصرف والاعراب وفن تركيب الكلمات وضبط التهجئة بل وفي قواعد علم الاصوات والسمعيات اللغوية ويتمثل ذلك في علوم الفسيولوجيا . والمترولوجيا . والجيولوجيا . . . الخ .

ولا مناص من القول بان اقحام مثل هذه الكلمات في اللغة العربية من شانه ان يتهدد مستقبل تلك اللغة وعوامل تطورها ، فضلا عما يؤدي اليه من بلبلة واضطراب في ضبط التهجئة واحكام الاملاء وصحة اللفظ وصياغة الكلمات واخيرا في قواعد الاعراب .

فاذا وقرت في الاذهان تلك الحقيقة العلمية فانه يجب ان يكون التدرج في الاخذ بتلك الكلمات الاوربية وفسح مجال لها في معاجم اللغة العربية ومراجعها بكيفية محدودة للغاية .

وثمة خطر آخر يواجه اللغة العربية يتمثل في نقل المصطلحات الفنية انطلاقا من اللغات الاوربية وترجمتها الى العربية . وليس بخاف ان معظم الكلمات المركبة والاوربية الاصل قد استعارتها بحالتها الانشائية الثابتة اي اخذت الكلمة بصورتها الاوربية وكتبت باحرف عربية. بالرغم من انه كثيرا ما نجد ان الكلمة الاوربية تلك انما يتكون هيكلها من مزيج مركبين او اكثر الامر الذي ينتج عنه في بعض الحالات ان العديد من تلك الالفاظ لا يتواءم ومقتضيات مفهوم الكلمات ومعناها . لا سيما وان منها ما هو متعدد المعنى ، اي يمكن استعماله للدلالة على اكثر من معنى واحد فهي ـ والحال هذه ـ ليست محكمة الضبط للتعبير عن معنى بعينه ، مما قد يؤدي في النهاية ـ حال استعمالها بتمام شكليتها الاوروبية معربة ـ الى عدم تحديد مؤداها وما تستهدفه على وجه التدقيق ـ من معنى او صفات وسمات مميزة تلك هي النتيجة المبتسرة التي يؤدي اليها استعمال تلك الكلمات والتي مردها عدم احكامها وتوثيقها والاقتصار على مجرد تغيير ملامحها باستبدال الحروف العربية بالاحرف الاوربية. ولهذا فانه لمن الاهمية بمكان الاشارة الى ان اي تركيب لغوي ـ يراد تحويله الى كلمة مركبة او تغيير فني او مصطلح علمي ـ يجب التيقن بادىء ذي بدء انه يتوفر على صيغة متماسكة معينة كما يحتوي على مضامين مدققة فكما ان من شان ذلك تلخيص هذا التركيب من خاصية تعدد المعنى وتكريسه للدلالة على مفهوم محقق ومضبوط ، فانه من شانه ايضا ان يؤدي الى

تفهم صياغة الكلمات المتزاوجة وليدة هذا التركيب . وهذا التركيب فى اللغة العربية يطابق ما يسمى بالمركب المزجي الذي يساير كل القواعد اللغوية . وكما ان اساليب متنوعة قد استخدمت فى انشاء التركيب المزجي هذا فان طبيعة المادة التي هي موضوع التركيب تسهم فى الدور الذي يؤديه التركيب المزجي فى تشكيل علم الاصطلاح اللغوي لوضع الاسماء العلمية ومصطلحات الفنون .

وتسود علم اللغات العربية آراء متضاربة فيما يتعلق بكيفية تاليف تلك المصطلحات الفنية فى نطاق المركب المزجي .

وعلى ضوء ما هو ملموس لدينا يمكن القول بان استيعاب المؤلفين لاسلوب صياغة المصطلح من خلال المركب المزجي لا يرتكز على قواعد التحول او التطور الذاتي للغة العربية .

كما يبدو لنا انه فى صدد صياغة المصطلح الحديث ـ نجد لزاما علينا استخدام نماذج واساليب من تلك التي كانت سائدة فى العصور الوسطى والاستعانة بها. ومن ثم ، فان النماذج يجب أن تكون ـ دون غيرها ـ الانماط التي تتمثلها اللغة العربية وتهتدي بهديها . كما ينبغي ان تكون الكلمات المركبة الوليدة متوائمة وقوام اللغة العربية .

ويختلف تركيب هذه العناصر اختلافا جذريا عن تركيبها فى اللغات التركية والهند و ـ أوروبية

ولما كانت الكلمات المركبة يجب ان تتساوى مع نماذج ثابتة محددة المعالم فى بنية اللغة العربية فان عملية المركب المزجي قد تتم بالاحتفاظ بحرف ساكن أو حرفين من كل مركب وطرح ما تبقى من احرف ، اما الآحاد المعجمية واللغوية فتتركب من عناصر مختلفة بواسطة الابقاء على ثلاثة او اربعة حروف او خمسة ـ فى حلات نادرة ـ تتشكل طبقا لقواعد قارة .

والتركيب المزجي الذي كان بمثابة حقل تزدهر فيه صياغة الكلمات المركبة فى العصور الوسطى قد لا يكون هذا شانه اليوم . وقد يكون العكس صحيحا . اذ بمقارنة النماذج التي تؤلف فيما بينها المصطلحات الحديثة فى اللغة العربية المعاصرة مع تلك كانت سارية فى اللغة التقليدية ـ نلاحظ ان هناك توافقا فيما بينها وقصورا فى الصلة بين اللغتين فى هذا المجال :

ففي العصور الوسطى كانت الكلمات المؤلفة فى سياق المركب المزجي تنشأ من ادغام اداة النفي (لا) فى الاسم أو اسم الفعل على الشكل التالي :

(لا + بد) = لا بد ، (لا + شيء) = لاشيء ، (لا + أبالي + يه) = لا ابالية ، (لا + مبالاة) = اللامبالاة .

وبتتبع هذا المنهج من مناهج المركب المزجي فى معاجم اللغة العربية نلمس انه لم يكن له نصيب وافر فى صياغة الكلمات المركبة ، بينما نجد فى الطور المعاصر من اطوار اللغة العربية أن مثل هذه الصياغة للمصطلحات الحديثة معتادة مالوفة .

وعلى ضوء هذه الحقيقة اقر المجمع العلمي العربي بدمشق صلاحية العديد من الكلمات المركبة طبقا للقاعدة المذكورة واجاز استعمالها فى مجالات الفلسفة والاحياء والطب والصيدلة الخ مثل :

اللا ادريه ، اللادينية ، اللاسياسية ، لا تمري ، لا توبجي ، اللاتزاوجي اللاتزامل ، اللادماغية ، اللامقلة اللامكوسية ، اللاجفن ، لاسلكي ... الخ .

وهناك ايضا عدد من الكلمات المركبة نشأ من دمج الاداة (ما) فيما يتلوها من كلام مثل :

(ما + هي + ية) ماهية ، (ما + جرى) = مجريات اوماجريات ، (قل + ما) = قاما ، (حيث+ما) حيثما ، (لا + سى + ما) = لا سيما .

وهكذا نجد فى اللغة العربية المعاصرة بعضا من تلك المصطلحات الفنية فى ميادين الفلسفة والصيدلية وسائر فروع العلوم صيغت جريا على قاعدة دمج حرف (ما) فيما يلحقه من كلمات مثال ذلك :

(ال + ما + لا + عرف) = المالايعرف . و (ال + ما + كشف) = المايكشف ، (ما + فوق × بنفسجي) = مافوسجي) .

وعلى اي حال فان استعمال تلك المصطلحات الحديثة على النمط المشار اليه ـ ما زال يحدوه عامل الندرة فى الوقت الحاضر .

هذا وان استحالة التركيب اللفظي المستقل الى مزيج لغوي قد لوحظت فقط بالنسبة للغة العربية المعصرية نتيجة لترجمة بعض المصطلحات الحديثة من اللغات الاوربية مثل :

حيهوائـــي = حي بالهـــواء ـ airobic ،
الحلماة ـ التحليل بالماء = hydration يحلمىء =
يحلـل بالمـــاء hydrolyse (to)

ويتبين من استقراء تلك الامثلة ان النهج الذي اشيع في صياغة تلك الكلمات المركبـــة كان باضافـــة الحرفين الاولية من المركب الاول الى المركب الثاني، وتلك القاعدة كانت متبعة من زمن بعيد في اللغة العربية تشهد بذلك الامثلة الآتية :

(مش « من مشمس » + لوز) ـ شلـــوز ،
(شق « من شق » + حطب) ـ شقحطب ، (حـــب « من حب) او عب « من عب » ـ حبقر .

ونجد اليوم ان تلك الصياغة اضحت نسبيـــا مثمرة وان المصطلحات الحديثة التي صار تشكيلها على هذا النمط قد حظيت بموافقة المجمع العلمي العربي مثال ذلك ما تم اقراره منها مثل :

(حرارة + ماء) الحرمائي ، (بر + مـــاء) =
البرمائية ، (تحت + تربة) التحتربة (شبه + بلور) = شباور ، (ماء + غول) ـ ماغول ، (شبه + غراء) شبغـــراء .

(لبنان + ارز ـ لبارز ، (حيـــز + زمن) =
حيزمن ... الخ .

فاذا ما كان الحرف الاول او الثاني في التركيبين همزة ساكنة فانها تحذف عند صياغة المركب المزجي: مثل : (راس + مال) ـ رسمال .

وقد كان العديد من الافعال والصفات الموصولة تتم صياغته منذ زمن بعيد يرتد الى العصور الوسطى بوصل الحرفين الاولين من كل مركب على وزن تفعلل، فعلل وقد كانت صياغة التركيب على هذا النحو اجدى في ابتكار العديد من التركيبات بالقياس الى غيره مثل:

(جعلت فداك) ـ جعفد ، (عبد شمس) =
عبشم ، (عبد القيس) = عبقس ، (عبد الدار) ـ
عبدري ، (امرىالقيس) ـ مرقسي) .

ويظهر الكثير من تلك المصطلحات الحديثة في الادب العربي المعاصر مصوغا على نهج الامثلة السابق تبيانها وقد حظيت هي ايضا بموافقة المجمع العلمي العربي عليها ومثال ذلك :

(انف + فم) ـ انفمي ، (بروم + حديد) =
برحد ، (كبريت + أكسوجين + حديد) = كباحد .

وبانعام النظر في التركيب الاخير (كباحد) يتضح ان اشتقاقه تاتى من وصل الحرفين الاولين في كل من المركبات الثلاثة بعضها ببعض .

وتحتوي اللغة العربية القديمة على عـــدد من النماذج لم تعهدها في العصر الحديث مثال ذلك مـــا تتضمنه من كلمات مركبة تصاغ باضافة الحرف الاول الصامت من المركب الثاني الى المركب الاول مثل :

(عين + دم) ـ دمع حيث اخذت ع من عيـن واضيفت الى دم فصار دمع (خرم + شرم)ـ خرمش، اضيف الحرف ش اخذا من شرم الى خرم فصارت خرمـــش .

ويمكن متابعة نفس القاعدة في الكلمات المركبة التي يرجع اصلها الى اللغة الفارسية والتـــي صـــار استعمالها من قبل اللغة العربية مثل :

(ك ماخوذة من كاه . P = ق A + خوردن = خوردن .) الخورنق A = خوردنكاه . P
وليس ثمة جدال ان اللغة العربية كانت تشمـل على الكثير من الانماط في كيفية صياغة الكلمات وان بحثا خاصا في تاريخ جذور اللغة العربية وصلتها باللغـــات الاخرى التي كانت متآخية معها ليبدو ضروريا للتعرف على ماهية هذه الانماط وتبيان معالمها .

ولقد استطاع اللغويون في العصور الوسطى ان يتعرفوا على العناصر او المركبات التي صيغت منهـــا الكلمات التالية :

(برق + نقش ـ برقش ، (برق + رقعه) =
برقع الخ .

بيد انه من الصعوبة بمكان تحديـــد الاحـــرف الماخوذة من كل مركب في المثال السابق ، فبالنسبة للمصطلح الاول نجد انه يشتمل على الاحرف ب، ر ،ق من الكلمة الاولى، كما يشمل على الحرفين ق ، ش من الكلمة الثانية . وايضا بصدد المصطلح الثاني نجد انه يشتمل على الحرف « ب » من (برق) والحرف «ع» من الكلمة الثانية . الا انه بموزنا الاساس او الدليـــل حتى يتاتى لنا الجزم بأن الحرفين (ر، ق) انما ينتسبان الى واحدة من الكلمتين دون الاخرى لان كلا الكلمتين تشتملان على ذات الحرفين فليس من وسيلـــة الى ارجاع كلا الحرفين الى الكلمة الاولى دون الثانية او العكس . وما يقال عن المصطلح الاول في هذه الحيثية ينصب على المصطلح الثاني .

وانه من المتعذر تحديد النمط او النهج الذي استعمل فى صياغة مثل هذين المصطلحين الاخيرين او التعرف على الاسلوب المتبع فى تدبيرها . كما انه يتعذر ايضا مقارنتهما او القياس عليهما بالنسبة للمصطلحات اللغوية الحديثة التي تشكلت فى اللغة العربية المعاصرة .

هذا ولا غرابة فى ان وصل الحرف الاخير من الكلمة الاولى بالحرف الاول من الكلمة الثانية من شانه ان ييسر عملية الاشتقاق وتوليد المصطلح المقصود بمعنى ان نهج هذا الاسلوب من خاصيته توفير الجهد وتخفيف المشقة فى صياغة الكلمات المركبة . مثل :

حيز + من او حي + زمن او (حيز + زمن) ـ حيزمن .

وهناك عدد من التغييرات الحديثة فى اللغة العربية المعاصرة تختلف عن المصطلحات المشار اليها فى طريقة صياغتها وعن الانماط التي يمكن اتباعها من أجل توليدها ، ويمكن تحديدها فى النقاط التالية : والتي صيغت من امتزاج المركبين (orthos + pteron) يتضح لنا ان الاختزال قد تناول المركبين معا وليس احدهما فحسب كما بالنسبة لصورة الكلمة بالعربية السالف شرحها .

الكلمات المركبة التي تشير الى ظرفين الزمان والمكان والمترجمة حرفيا عن الاصل الاوروبي والتي صيغت من وصل المقطع الهجائي الاول من المركب الاول بالمركب الثاني مثل :

قبل التاريخ ـ قبتاريخ واصلها الفرنسي ... Préhistoire

ثم الصفات المركبة التي تكونت من تواكب اسمين جغرافيين متساويين . ومما يميز هذه الحالة من الصياغة ان المركب الثاني من تلك الصفة المركبة لا يفقد قوامه الذي كان عليه قبل التركيب بحيث يبدو دائما وكانه كلمة مستقلة تؤدي ذات المعنى الذي كان متعلقا بها قبل الصياغة والكلمات التي من هذا القبيل قد صيغت فى العربية مرتكزة على حرف الوصل « ي » الذي استبدل بحرف o فى اللغات الاوروبية مثل :

انجلو امريكي Ingilu : amriki

افرو آسيوي Ifru : asiiavi

أسيوي افريقي asiiu : afriki

هذا وان استعمال التراكيب المقتضبة طبقا لهذه الحالة فى الخطابة ولغة الصحافة قد حظى بقبول المجمع العلمي العربي فى سنوات 1946 ـ 1947 الامر الذي ثارت بسببه المجادلات والمساجلات بل واحيانا مشادة بين العلماء .

وختاما لهذا البحث لم يبق الا ان نقرر ان نشاة المصطلحات الحديثة فى ظل المركب المزجي وانتشارها انما يرتكز على الاصول الآتية :

اولا : من المسلم به ان الكلمات المركبة قد شاع استعمالها فى اللغات الاوروبية وهكذا نرى الكثير من المصطلحات الحديثة التي ذاعت فى الوقت الحاضر فى شتى مجالات العلوم ، قد قامت صروحها على هذا التركيب . كما ان تلك المصطلحات الحديثة قد وجدت طريقها الى اللغات الاخرى ومنها اللغة العربية ومن ثم كان ظهور الكلمات المركبة وفقا لاسلوب التركيب المزجي فيها .

ثانيا : ان المصطلحات المركبة هذه ليست بالشيء الجديد او الغريب على اللغة العربية التي عهدت انماطها وطرق صياغتها ومناهجها منذ زمن بعيد وهذا ما يفسر تقبل اللغة العربية المعاصرة لهذه المصطلحات وتبنيها .

1 ـ التعابير التى تتكون من تزاوج كلمتين مثال:

(عرض + حال) ـ عرضحال ؛ (قائم + مقام) = قائمقام ؛ (قبل + فكى) ـ قبلفكى ؛ (يا + نصيب) = يانصيب .

فاذا ما كانت الهمزة هي حرف استهلال المركب الثاني فى مثل هذه الكلمات فانه ، كقاعدة عامة ، تسقط من الحسبان عند الصياغة كما تبين من الامثلة التالية :

(حمض + أمين) حمضمين ؛ (غول + أثير) ـ غولثير .

واحيانا ما تجوز الصياغة بتآلف الكلمتين بتمامهما معا مثل :

البادزهر ، يوسف افندي .

2 ـ الكلمات المركبة من حرفي التصدير من المركب الاول والحرفين الاخيرين من المركب الثاني على وزن فعلل مثل :

(قل « من قلم » + بر « من حبر ») ـ قلبر .

3 ـ الكلمات المصوغة من المقطع الهجائي المكون من حرفين من المركب الاول والحرف الاخير من المركب الثاني فتاتي الكلمة المشتقة على وزن فعليل مثل :

(كهرباء + مغنطيس) ـ كهرطيس .

4 ـ الكلمات المولدة من ربط المركب الاول بالحرفين الاخيرين من المركب الثاني وبذا تكون الكلمة الناتجة على وزن فعليل مثل :

(حمض + اسيل) ـ حمضيل .

5 ـ الكلمات المركبة من اضافة الحرفين الاولين من المركب الاول الى المركب الثاني ـ اي الحالة العكسية للكلمات المشتقة وفقا للاسلوب المتبع في البند السابق ـ ومثل هذه المصطلحات تستعمل في حالات المجمع مثل :

(جوف + معى) ـ الجومعيات ، (مستقيم + جناح) = مسجناحيات ، (شمال + غرب) ـ الشمغربيات .

والكلمات المركبة وفقا لهذا الاسلوب دخلت اللغة العربية عن طريق استعارتها من اللغات الاوروبية بعد ترجمتها الى العربية وتشكيلها وفقا لما يتلاءم وقواعدها مما ادى الى تباين في كيفية صياغة الكلمة في اللغتين ـ (لغة الاصل واللغة الناقلة) ـ ففي كلمة مسجناحيات التي تاتت من امتزاج المركبين (مستقيم + جناح) يلاحظ انه عند الصياغة قد جرى الاختزال بالنسبة للمركب الاول وحده في الوقت الذي ظل بمناى عن المركب الثاني اي ظل هذا بكامل هيئته. بينما لو انعمنا النظر في اصل كلمة مسجناحيات هذه في اللغة الفرنسية : orthoptères (1)

ثالثا : ان استعمال المصطلحات الحديثة يجب ان يكون بكيفية واضحة لا يكتنفها غموض .

رابعا : ان استعارة تلك الكلمات المركبة من اللغات الاخرى ونقلها الى اللغة العربية حرفيا دون تعديلها بما يتوامم وقواعد تلك اللغة قد يضربها بل قد ينتهي الامر تدريجيا الى افسادها .

---

1) يبدو ان هناك نقصا في الاصل .

"الشعر العربي"

اللغة عنصر من عناصر الحياة يجب أن يتجدد باستمرار

الأستاذ إلياس فنصل ، بوينوس آيريس"

ترجمة الاستاذ محمد محمد الخطابي

تلقينا هذا البحث القيم من الاستاذ الياس فنصل وهو عبارة عن محاضرة القاها حضرة الاستاذ باللغة الاسبانية من الاذاعة الارجنتينية تحت رعاية المعهد الثقافي الارجنتيني ـ العربي بعنوان : « تمهيد لمعرفة الثقافة العربية » وقد نشرنا الاصل في مكان آخر من هذا العدد

ليس هناك شعب من بين الشعوب القديمة فاق الجنس العربي في تقديره للشعر ، ونستعمل كلمة « تقدير » ونحن على علم انها لن تستطيع ان تعطينا التعريف القاطع للاحترام الذي كان يوليه العرب لفن الشعر .

البديهيات على ذلك كثيرة ، فحتى **تاريخ العرب في الجاهلية انما هو تاريخ الشعر .**

وكل ما نعرفه من اخبار الحقبة التي سبقت الاسلام جاءت مروية ضمن « القصائد » التي وصلتنا منذ ذلك العهد ، والتي ما زالت حتى ايامنا هذه موضع بحوث ودراسات مختلفة .

تلك القطع الشعرية الموضوعة على نسق واحد ـ التي جادت بها القرائح في عزلة الصحراء وفي لحظات الضيق الروحي ـ رغم القرون البعيدة ـ ما زالت تحتفظ حتى الآن بالنكهة التي تصور لنا حنينا موسيقيا نحو الاوطان .

واذا استثنينا من هذه القطع الشعرية الكلمات التي فقدت مدلولها بمرور الزمن ـ ونحن نعتبر **اللغة عنصرا مجهزا من عناصر الحياة ينبغي له أن يتجدد بصفة مستمرة** ـ اي اذا استثنينا الكلمات التي لم تعد تكتسب صبغة الحاضر ـ والتي هي قليلة جدا ـ فاننا سنجد في **الشعر العربي الجاهلي تعبير الروح النقية الصافية لمشاكل الحياة العصرية ، هذه** الروح التي هي شبيهة « برادار » كفيل بالتقاط اقل ذبذبات القلق الانساني .

لقد كانت « الكعبة » التي تقع في مدينة « مكة » بمثابة المكان المقدس لدى القبائل العربية ، وفي مطلع كل عام ، كان يهرع نحو هذه المنطقة ، ذوو الوقار والمهابة من مختلف الميول والاتجاهات ، لاقامة تجمعات كبيرة ، كانت ذات موضوع مميز الا وهو الادب ، حيث كانوا ينشدون القصائد التي تخضع لنقد بناء ، ويحللون فيها تلك التي تتوافق واهواء العامة ، واجود هذه القصائد ـ اي التي كانت تحظى برضى الحكام الثقات ـ كانت تكتب على رقوق فاخرة ثم تعلق على « الكعبة » . في هذا المكان الذي كان ينال احترام الجميع من شيخ القبيلة العظيم الى الرجل العادي المجهول ، كان في امكان الجميع قراءة هذه القصائد ، وبهذه الوسيلة يصبح **للفن والبلاغة شعائر وطقوس .** ولما جاء الاسلام الغى هذه العادة التي كانت تتضمن بعضا من الوثنية البدائية . وفي تلك الحقبة نفسها كانت تقام دعائم **المباريات الادبية** التي ما زالت لها ردود فعل عديدة في الوقت الحاضر . لقد كان « **سوق عكاظ** » ضربا من « **الاولمبياد** » **الفني** ، كان يضم

احسن الشعراء ينشدون امام الجميع آلافا من اجود القصائد المنتقاة . ودائما كان هناك مراقبون من « حكام الكلمة » المتسمين بالنزاهة والانصاف ، يدلون بافكارهم القيمة ، والذين كانوا صريحين فى آرائهم وموجهين فى احكامهم ، **وكانت القصائد المختارة بمثابة البرهان الكبير على عظمة القبيلة التي ينتمي اليها الشاعر الفائز .**

ان الاسلام لم يضع حجر العثرة فى طريق الشعر المزدهر ـ كما يزعم ذلك بعض المستشرقين ذوي النظرة السطحية العجلى ـ وانما **جعل الاسلام حدا لعبادة الوثنية وحولها الى اهتماماته العادية ؛ ويحسن القول انه احل محلها معرفة فنية خالصة .**

« حسان ابن ثابت » الشاعر العظيم الذي كان صديقا حميما للرسول « محمد » رافقه فى عديد من غزواته ، وتغنى بانتصاراته ، كان النبي يوليه اهمية خاصة واضعا بذلك الشعر فى مكانه المناسب من الاعتبار دون ان يسمو به الى قمة الالوهية او يهوى به الى سفح الانحطاط .

وحينما بسط العرب نفوذهم حول العالم ظفر الشعر العربي ظفرات جديدة ، تحول الى وسيلة لنشر الافكار ، وتعضيد قوى الفتح الجديد ، وتسخير الاتجاهات السياسية ، رافلا فى ثوب جديد من اثواب البيان ؛ تحول الى **قاعدة للنشر والذيوع ، وقام بالدور الذي تقوم به الآن الجريدة والمذياع والتلفاز .**

كانت الامور غريبة ، بحيث يحدث أن نجد اثنين من الشعراء المرموقين ذوي نزعات متباينة وهما يجاهدان تحت سياسة واحدة ، ذات مصلحة عليا تهم العالم العربي واماراته التي كانت تمتد من الشرق الى الغرب .

وكانت للمعركة ايديلوجيات مختلفة ، فاحيانا تكون معمقها ذات سلاح متنوع قاطع ، تكون الكلمة البليغة احده واخطره ، واحيانا اخرى تكون سخرية حرة من خلال تطاحن الكلمات ، الشيء الذي يوضح لنا بجلاء التمكن التام من اللغة ، ويبرز لنا ـ فى ذات الوقت ـ الذكاء الخارق للعادة المسخر لخدمة المثل العليا .

سيطول بنا الحديث اذا عددنا الامثال ، وترجمنا القصائد ، او اذا شرحنا المواقف ، غير انه لا بد لنا ان نورد **ثلاثة من الشعراء الذين يشكلون فى رأينا ـ صروح القمة فى الشعر العربي القديم .**

انهم **الوان مختلفة ذات قدرة بلاغية ، دعائمها الخيال الخصيب ، والملاحظة الحازمة والحجة الناطقة.** ان دواوين الشعراء الثلاثة ما زالت تدرس ـ حتى ايامنا هذه ـ فى المدارس ، وسوف تظل دائما موضوعات بحث وتحليل .

« **المتنبي** » الشاعر الذي اودع الخيال العربي فى القصائد ، وهو الذي عين فى امثال سيارة طريقة التفكير عند العرب ووسيلة تصويرهم للحياة وكل ما هو موجود فيها من سمو وقوة .

ككل عبقري كان « المتنبي » يعد من المفتونين الاكابر الذين ينشرون ـ فى كل مكان ـ اشعارهم وامثالهم بين الاعداء المتطرفين الذين كانوا ينتقدون على المتنبي كبرياءه وفروره اللذين جاوزا كل حد .

لقد كان المتنبي ، فى نظرته الرجولية يمي جيدا طموح الماضي العربي ، كان **نذيرا متحمسا لوحدة العرب ، وواحدا من المبشرين بالقومية النقية من كل تعصب .**

الشاعر الثاني هو « **المعري** » الذي كان ضريرا منذ طفولته البعيدة ، **الرجل الواسع المتبحر العارف باحاسيس البشرية** ، لقد كان **فيلسوفا** بالمعنى الدقيق للكلمة ، وكانت فلسفته متنوعة بحيث شملت كل انواع الاضطرابات وجميع مستويات العقل ، سواء كان يتخللها حزن متعاقب او يعلوها حدث سعيد. انه ساخر رقيق تكاد تكون سخريته غير مرئية ، ولقد كان يضمن سخريته هذه افكاره التي كانت تتعارض ووجهات نظر الحكام .

وحسب البحوث الاخيرة الخالية من كل تعصب، فقد تاثر « دانتي » فى كتابته لعمله الخالد « الجحيم » او (الكوميديا الالهية) ـ تاثر « برسالة الغفران » للمعري التي كانت مترجمة فى ذلك العهد الى لغات مختلفة .

الشاعر الثالث هو « **ابن الرومي** » وهو الذي يكمل **الثالوث الحاكم فى الشعر العربي** ، هذا الشاعر الذي **اثرى الشعر العربي بفنائياته التي هي جديرة بكل اعجاب** ، هذا العاشق الواله للجمال فى جميع اشكاله ، لقد استطاع هذا الشاعر ان يسبر ابعد اغوار التفكير ، نطبع كل ذلك فى قصائد حافلة بالحركة والحياة . لقد كانت عيناه المتلهفتان ابدا الى التقاط كل مظاهر الحياة ، بمثابة عدستين فوتوغرافيتين غاية

في الحساسية تلتقطان ادق دقائق الامور ، باعثتين الحياة في كل الاشياء ، ان اوصافه لما كان يراه او يحس به او يجري وراءه ـ انما هي استعراض متوال من الصور التي تفوق كل شيء حيوية ونقاوة ولمعانا.

لم تتوان المرأة العربية في مشاركتها المحمودة في الشعر العربي ، لقد عرفت الكثيرات ممن قرضن الشعر ، ولكي تتضح لنا مشاركة المرأة في عالم الفن نورد الحكاية التالية :

سأل خليفة أحد رعاياه المشهورين مرة فقال له :

ـ بلغني انك تستطيع ان تنشد الف قصيدة فهل هذا صحيح ؟ .

فأجاب الاعرابي :

ـ اجل يا صاحب المهابة ، ولكن هل تريدون ان اسمعكم الالف قصيدة من شعر الرجال أم من شعر النساء .. ؟ (1)

ان الشعر العربي المعاصر قد تأقلم مع طبيعة الحياة العصرية ، مدفوعا بتجدد العقل العربي بعد ان عاش احداث اربعمائة سنة من الضيق الخارجي محتفظا ـ في جوهره بكآبة خفية ـ عن اجياله الماضية.

ان الشاعر العربي المعاصر يقف حاملا بين اعطاف قلبه حيرة يصعب تحديدها ، هذه الحيرة التي كانت تستولي على روح الاعرابي الذي كان عليه ان يقطع كل يوم صحاري لا نهاية لها ، محدقا في الآفاق التي تنتهي عند خط مستقيم دون حافز للتساؤل .

ولا ندعي القول بان الشعر العربي المعاصر قد احتفظ بماضيه المشرق ، ذلك لان ((فن القول)) في العالم قد تقهقر ازاء الاكتشافات العلمية الحديثة ، ولم تكن الثقافة تكتسب قيمتها من الخيال الفسيح ولا من الكلمة المؤثرة الجميلة ، **ولكن رغم كل ذلك ما زال الشعر العربي يحتفظ ـ باصالته وقدرته الهائلتين ـ** في مقل هذا الجنس ، وهذا عامل من الاهمية في شيء بالنسبة للنهوض العربي الفائق .

لا نقول ان الشعر العربي المعاصر يتميز بطابع معين يحدد هذا الشعر ، ذلك انه عانق كل ـ او تقريبا كل ـ القوالب المعقدة للحياة العصرية ، ولا نجزم بان الشعر العربي الحديث يسير في طريق محكم يسهل توضيحه بل انه قد تعرض لجميع المشاكل المتنوعة في حياتنا الراهنة .

ان المؤرخ النزيه الذي يؤرخ لتطور الشعر العربي المعاصر لا يستطيع الاستغناء عن ذكر ـ **ظاهرة من ظواهر هذا الشعر ـ التي تكاد تنفرد بنفسها بين تواريخ الادب عامة** . فاذا كان حقا ان الشعر العربي قد بلغ اوج عزه في مواطنه الاصلية ؛ فانه لحق كذلك ان **هذا الشعر قد اكتسب لمعانا واشراقا ملحوظين في بلاد امريكا** .

ان مئات من الآلاف المهاجرين وعلى الخصوص في الارجنتين والبرازيل ـ كان من بينهم شعراء كبار ، ساهموا مساهمة محمودة في الادب العربي .

ان سماء هاتين الجمهوريتين ، وجمهوريات اخرى قد جمعت تحتها كثيرا من الشعراء العرب الذين رفعوا عاليا امجاد اوطانهم النائية معبرين بدلك عن الحب الذي يكنونه لبلادهم الام الكائنة وراء البحار ، ومشيدين ـ في نفس الوقت ـ بعظمة الاثر المكتوب

ان هؤلاء الشعراء البعيدين عن مسقط رؤوسهم والذين كانوا ملجمين من طرف قوات اجنبية ، قد وجدوا فرصة نشر قصائدهم الحماسية بعد ان تهيا لهم جو من الحرية ، كانوا يتوقون اليه من قبل .

لقد وجد هؤلاء الشعراء في المواطن الارجنتين الاخ الذي فتح لهم ذراعيه بحرارة وصدق ـ ونحن نقول هذا عن تجربة ـ ووجدوا في الارجنتين نفسها الركن الذي رحب بهم أشد الترحيب ، وهو بالنسبة لهم ينبوع الهام لتفكيرهم وتاملاتهم .

بهذه الكلمات الختامية ، نقدم شكرنا عن هذا الكرم النبيل ، ونستأذن لنحمل لهذا الوطن الجديد تحية شعرية من اوطاننا الاصلية .. مرات تفوق الآلاف .

---

1) وفي رواية اخرى ان شاعرا زار شاعرا آخر ، فلما طرق باب بيته خرج خادمه ، فقال له : ان سيدي لا يستقبل الا من كان يحفظ ـ على الاقل ـ الف قصيدة ! . فاجابه الشاعر الزائر : اذهب وقل لسيدك هل يعني الف قصيدة من شعر الرجال أم من شعر النساء ! (المترجم)

الألقاب عند العرب والمسلمين

الشيخ طه الولي « بيروت »

اذا اردنا ان نتحدث عن الالقاب عند العرب والمسلمين ، فليس لنا بد من طي السنين بله القرون والعودة باذهاننا الى صدر الاسلام اذ نجد بين المؤرخين من يقول بأن الالقاب عرفت سبيلها الى العرب منذ هاتيك الايام. وبالفعل فاننا نعرف ان اول لقب اطلق بين يدي الاسلام كان ذلك الذى اطلقته قريش على النبي صلى الله عليه وسلم قبيل بعثته وهو « **الامين** » فلما كانت البعثة اصبح لقبه عليه السلام : « رسول الله » وبهذا اللقب كان يخاطب الناس ويكاتب رؤساء القبائل العربية وملوك الدول الاجنبية . وكانت كلمة « رسول الله » منقوشة على خاتمه الشريف الذى استعمله هو بنفسه كما استعمله من بعده ثلاثة من خلفائه الراشدين وهم ابو بكر وعمر وعثمان ، وفى عهد هذا الاخير سقط هذا الخاتم فى بئر اريس وفقد منذ ذلك الحين كما هو معروف فى التاريخ .

ثم ان **كبار الصحابة رضي الله عنهم عرفوا كذلك القابا** رافقت اسماءهم بل هي حلت محل هذه الاسماء فى بعض الاحيان حتى ان بعض هؤلاء الصحابة عرفوا بالقابهم دون اسمائهم لدى المؤرخين فيما بعد ، وكان عبد الله بن ابي قحافة ابو بكر الخليفة الاول يعرف باسم « الصديق » الذى لقبه به النبي صلى الله عليه وسلم . وكان عمر بن الخطاب الذى تولى الامر من بعده يعرف «**بالفاروق**» الذى قيل ان قوما من السريان اطلقوه عليه لان معناه فى لغتهم الرجل الذى يفرق بين الحق والباطل . وكان عثمان بن عفان يعرف «**بذي النورين**» لزواجه من اثنتين من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد اطلق على علي الخليفة الرابع بعد وفاته لقب « ابي تراب » هذا اللقب الذى قال قوم بانه من صنع خصومه الامويين لنبزه وتحقير شانه بنسبته الى التراب كما قال قوم ءاخرون بانه من صنع شيعته الذين ارادوا به التعبير عن تواضعه وكثرة التصاق جبهته بالتراب لملازمته الصلاة ءاناء الليل واطراف النهار . ولعلنا نستطيع ان نعتبر كلمة « **صحابي** » من الكلمات التي اصبحت لقبا على كل رجل ادرك النبي صلى الله عليه وسلم واجتمع اليه وآمن به كما نستطيع ان نعتبر كذلك كلمة «**تابعي**» من الكلمات التى اصبحت لقبا على كل رجل ادرك ، وهو مسلم ، واحدا او اكثر من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمع اليه .

ولكي لا نقف طويلا عند عصر الرسالة النبوية والسنوات القليلة الاولى التى تلتها فاننا ناتي الى العصر الاموي الذى اختلف المؤرخون فيما نسب الى اركانه من الالقاب . فذهب قوم الى ان الخلائف من بني امية اتخذوا لانفسهم القابا . بينما ذهب قوم آخرون الى ان هؤلاء الخلفاء عرفوا باسمائهم من غير القاب اضيفت اليها او حلت محلها . وفى هذا يقول المسعودي فى كتابه « الاشراف والتنبيه » :

« وقد رأينا بعض المتاخرين من ينحرف عن الهاشميين ، الطالبيين منهم والعباسيين ، ويتحيز الى الامويين ويقول بامامتهم ، يذكر انه كانت لمن ملك من بني امية القاب كالقاب خلفاء العباسيين وذكر في ذلك روايتين :

احداهما : قال ، روى محمد بن عبد الله بن محمد القرشي ، قال حدثنا مصعب بن عبد الله عن ابيه عن جده ، قال ، حدثني سابق موسى عبد الملك بن مروان قال : « سمعت امير المؤمنين عبد الملك يقول : « تلقب امير المؤمنين معاوية بن ابي سفيان ، « **بالناصر لحق الله** » ويزيد بن ابي سفيان « **بالمستنصر** على الربيع » ومعاوية بن يزيد « **بالراجع الى الله** » ومروان **بالمؤمن بالله** » .

وبالثانية قال حدثنا ابو مطرف عن ابيه عن جده قال : تلقب عبد الملك « بالمؤثر لامر الله » والوليد بن عبد الملك « بالمنتقم لله » وسليمان بن عبد الملك « بالمهدي » لما احدث من قطع ما كان على المنبر ، وعهده الى عمر بن عبد العزيز وتلقب هو « بالداعي بصنع الله » وسمي هشام بن عبد الملك « بالمنصور » فلم يزل على ذلك حتى عهد اليه يزيد فلقب بالمتخير من آل الله . وتلقب الوليد بن يزيد « بالمكتفي بالله » ويزيد بن الوليد « بالشاكر لانعم الله » وابراهيم بن الوليد « بالمتعزز بالله » ومروان بن محمد بالقائم بحق الله . وكان عبد العزيز بن مروان ، وكان ولي العهد ، يدعى على المنابر « بالمعظم لحرمات الله » وكان مسلمة بن عبد الملك لما بنى مدينة على خليج القسطنطينية سماها « مدينة القهر » وتسمى هو « بالقاهر بعون الله » .

على ان المسعودي لم يكن مقتنعا بما نقل عن تلقيب ملوك بني امية فاردف قائلا على ما تقدم : ... ان الكافة على خلافه . فلو كان الامر على ما ذكر ، لظهر واشتهر واستفاض وجاء في الاخبار المنقولة القاطعة والاعمال الموروثة . فلما لم يذكره الجمهور من حملة ونقلة السير والآثار ولا دونه مصنفو الكتب في التواريخ والسير . من ذكر اخبارهم ووصف ايامهم من تولاهم او انحرف عنهم ، علم ان ذلك لا اصل له .. »

على انه ما ان ادبرت ايام الامويين واقبلت ايام العباسيين حتى اصبح لكل من هؤلاء الاخيرين لقب يرافق اسمه الى جانب « امير المؤمنين » **واول من تلقب منهم** كان اول خلائفهم : ابو العباس المعروف « **بالسفاح** » واختلف الناس في تفسير هذا اللقب، فقالت طائفة بان الرجل تلقب بالسفاح لكثرة ما سفح من الاموال في التمهيد لوثوبه بالدولة الاموية واحتلال مكانها في السلطان والحكم . كما قالت طائفة ثانية ان هذا اللقب التصق باسم اول خليفة عباسي بعد ان اكثر هذا من وضع السيف في اعيان بني امية سافحا دماءهم في سبيل تأثيل ملك قومه بعد اجتثات كل اثر لاي اموي تتوهم قدرته على الثورة او التفكير في العودة الى دست الولاية .

وبقي بنو العباس على ما ابتدأوا به من اعتماد الالقاب للخلفاء الى جانب اسمائهم الاصيلة الى اخر عهدهم بالخلافة حين انتقل السلطان سليم العثماني بالمتوكل على الله اخر الخلفاء العباسيين ، من مصر الى اسطمبول واضعا بذلك حدا للعباسيين وانصارهم من سلاطين المماليك في مصر والشام والعراق وباقي الجزيرة العربية . وهكذا كان **اول القاب العباسيين: السفاح ، واخرها : المتوكل على الله** .

ففي اليوم الثامن من شهر محرم الحرام 923 هجرية (1517 م) دخل الاتراك العثمانيون مدينة القاهرة واصبح سلطان اسطمبول سيد الشرق العربي بلا منازع وافلت دولة المماليك بغير رجعة . وفي ذلك يقول محمد فريد في كتابه « تاريخ الدولة العلية العثمانية » : « ومما جعل لفتح وادي النيل اهمية تاريخية عظمى ان اخر ذرية الدولة العباسية الذي حضر اجداده لمصر بعد سقوط بغداد مقر خلافة بني العباس في قبضة هولاكو خان التتري سنة 656 هـ (1091 م) وكانت له الخلافة بمصر اسما ، تنازل عن حقه في الخلافة الاسلامية الى السلطان سليم العثماني وسلمه الآثار النبوية الشريفة وهي البيرق والسيف والبردة وسلمه ايضا مفاتيح الحرمين الشريفين ، ومن ذلك التاريخ صار كل سلطان عثماني « **اميرا للمؤمنين** » و « **خليفة لرسول رب العالمين** » اسما وفعلا . » ا. هـ .

غير اننا نجد في كلام محمد فريد عن انتقال لقب « امير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين » الى السلطان سليم العثماني وزواله عن المتوكل على الله العباسي ، مجرد استنتاج لا تدعمه الوثائق التاريخية لاسيما تلك التي كتبت من قبل المؤرخين الذين عاصروا تلك الفترة ودونوا وقائعها وتفاصيلها، دون ان يدعوا من هذه الوقائع والتفاصيل لا شاردة

ولا واردة امثال ابن اياس الذى قال فى كتابه «بدائع الزهور فى وقائع الدهور » وهو من ادق ما كتب فى هذا الموضوع . قال هذا المؤرخ وهو شاهد عيان :

« .. وفى يوم الجمعة سلخ سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة .. خطب باسم السلطان سليم شاه على منابر مصر والقاهرة ، وقد ترجم له بعض الخطباء فقال : « .. وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ، مالك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره نصرا عزيزا وافتح له فتحا مبينا ، يا مالك الدنيا والآخرة يا رب العالمين » .

وفى حوادث سنة 923 هجرية قال ابن اياس : « .. وفى يوم الثلاثاء ثاني عشر جمادى الاولى خرج امير المؤمنين المتوكل على الله قاصدا للسفر الى اسطمبول ، وخرج صحبته اولاد ابن عمه خليل وهما ابو بكر واحمد ، وخرج صحبته الناصري محمد بن العلاى علي بن خاص بك صهر الخليفة .. واخرون من الاعيان ، فتوجهوا الى بولاق ونزلوا من هناك فى المراكب ليتوجهوا الى ثغر رشيد . فحصل للناس على فقد امير المؤمنين من مصر غاية الاسف وقالوا : لقد انقطعت الخلافة من مصر وصارت فى اسطمبول، وهذه من الحوادث المهولة .. الخ » .

يتبين من هذا النص ان السلطان العثماني لم يجرد المتوكل على الله من لقب الخلافة وينتحله لنفسه وان الناس لم يقولوا يومئذ بان الخلافة انتقلت من بني العباس الى بني عثمان ، بل كل ما حصل هو ان السلطان التركي المنتصر اراد أن يفرض الاقامة الجبرية على الخليفة العباسي فى اسطمبول كيلا يشكل بقاؤه فى القاهرة سببا لاثارة الناس الى خلق المتاعب فى وجه العهد الجديد ، وربما لتصبح اسطمبول مقرا رسميا للخلافة .

غير انه مما لا شك فيه ، ان **المتوكل على الله** كان اخر من حمل لقبي « **الخليفة وامير المؤمنين** » **من العباسيين وان هذين اللقبين بقيا شاغرين لم يحملهما احد من ملوك بني عثمان الا ابتداء من السلطان محمود الثاني** ، فان هذا السلطان وجد ملكه يضطرب تحت وطأة ثورات داخلية اضرم نيرانها بعض حكام العرب المسلمين تحت شعارات اسلامية فما كان منه الا ان واجه هذه الشعارات بالالتجاء الى **لقب الخلافة العظمى** كي يفسد على الثائرين به خطتهم الدينية ويتقوى عليهم باللقب الذى كان اباؤه واجداده بغير حاجة اليه لتمكنهم من اسباب الغلبة والقوة العسكرية بحيث لم يكن لقب الخلافة عنصرا مؤثرا فى هذه الاسباب من قريب أو بعيد .

اما عندما كانت السلطة العثمانية فى اوج مجدها فان لقب ، أو بالاصح ، القاب ملوكها كانت كما ننقلها فيما يلي عن مقدمة الرسالة الجوابية التى ارسلها السلطان سليمان القانوني الى فرانسوا الاول ملك فرنسا الذى استنجد به على حماية مملكته من عدوه شارلكان ملك اسبانيا وذلك فى سنة 922 هجرية (1526 م) :

« الله العلي ، المغني ، المعطي ، المعين :

بعناية حضرة عزت الله جلت قدرته وعلت كلمته ، وبمعجزات سيد زمرة الانبياء وقدوة فرقة الاصفياء محمد صلى الله عليه وسلم الكثيرة البركات، وبمؤازرة قدس ارواح حماية الاربعة ابي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم اجمعين وجميع اولياء الله ،

انا ، **سلطان السلاطين وبرهان الخواقين متوج الملوك** ، ظل الله فى الارض ، سلطان البحر الابيض والبحر والاسود ، والاناضول ، والروملي ، وقرمان الروم ، وولاية ذي القدرية ، وديار بكر وكردستان واذربيجان والعجم والشام ، وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن ، وممالك كثيرة فتحها ايضا اباءي الكرام واجدادي العظام ، بقوتهم القاهرة انار الله براهينهم ، وبلادا اخرى كثيرة افتتحتها يد جلالتي بسيف الظفر ، انا السلطان سليمان خان ، ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان ، ... الى فرنسيس ملك « ولاية » فرنسا ... وصل الى اعتاب ملجا السلاطين المكتوب الذي ارسلتموه مع تابعكم فرانقيان النشيط .. الخ ...»

اما بعد ان هرمت الدولة العثمانية وتقطعت منها الاوصال بانفصال ما كان تابعا لها من الولايات الاوروبية واحتلال الاجانب لكثير من ولاياتها العربية فى اسيا وافريقيا. بعد ان ءال امر هذه الامبراطورية الى هذه النهاية المحزنة فقد اصبح لقب السلطان العثماني فى ايام المغفور له ساكن الجنان عبد الحميد الثاني ، « **السلطان المعظم والخاقان الاعظم** ، **امير**

المؤمنين وخليفة المسلمين ومولانا السلطان ابن السلطان الغازي عبد الحميد خان .»

حتى اذا استمر دولاب عز العثمانيين في تقهقره الى الوراء اخذت المدارس الحكومية في عهد السلطان محمد رشاد الملقب بالخامس تعلم طلابها لقب العاهل التركي كما يلي :

« جناب رب ، منان ، باديشاه ، **خاقان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين** ، ولي نعمت بي منت ، امير المؤمنين ، محمد رشاد افنديمير ، حظرتلري .. »

وءاخر من حمل لقب « **امير المؤمنين الخليفة الاعظم** » من ملوك بني عثمان ، كان السلطان محمد وحيد الدين الملقب بمحمد السادس الذى اقاله مصطفى كمال باشا من السلطنة ثم من الخلافة سنة 1923 ميلادية وبانتهاء السلطنة والخلافة من بني عثمان اصبح لقب « **امير المؤمنين والخليفة الاعظم** » .. **في ذمة التاريخ** على الرغم من المحاولة التى قام بها الشريف حسين بن علي ملك الحجاز في بلدة الشويك الاردنية حينما استدعى اليه بعض اعيان البلاد لمبايعته « خليفة للمسلمين واميرا للمؤمنين » . وهي محاولة لم ياخذها احد في ذلك الحين على محمل الجد وسرعان ما تجاهلها المسلمون حينما تناقلت اسلاك البرق الانذار الذى وجهته الحكومة الانجليزية سنة 1922 الى حليفها بالامس القريب الذى طمع في الحلول محل سلاطين بني عثمان في حمل لقب « امارة المؤمنين وخلافة رسول رب العالمين » .. وهي البرقية التى تقول للحسين بن على شريف مكة وسليل اشرافها :

« ان حكومة بريطانيا تصر بالحاح على وجوب مغادرتكم العقبة ، ولا يمكنها ان تسمح لكم بالبقاء اكثر من ثلاثة اسابيع »

ومن العقبة الى قبرس ، ففي هذه الجزيرة كان ءاخر المطاف باللاهث وراء لقب « امير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين » وكان ذلك في سنة 1924 ميلادية .

ومنذ ذلك الحين .. لم يعد احد يحمل اعظم الالقاب الاسلامية : امير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين ، بوصفه اعلى مرجع اسلامي في العالم . وان كان **ما يزال في بعض الاقطار العربية من يدعى الى الآن بلقب امير المؤمنين** . كما هي الحال في بلاد المملكة المغربية حيث لقب الملك فيها : امير المؤمنين . وكما هو الحال في المملكة المتوكلية اليمنية حيث يلقب امامها بأمير المؤمنين . وكما هو الحال كذلك في بعض الجماعات الدينية المنتشرة في جنوب الجزيرة العربية حيث توجد بقايا الخوارج من الطائفة الاباضية ببلاد عمان التى ما تزال تدعو امامها بلقب أمير المؤمنين .

وليس من شك في ان هذه البلدان وما فيها من فرق وطوائف ، حيث تلقب عاهلها او رئيسها بأمير المؤمنين فانما تعني في الواقع انه « امير المؤمنين الخاضعين بالفعل لسلطته السياسية في حدود بلاده الجغرافية » . ومن الطبيعي انه لا يخطر ببال احد أن هذا اللقب ينسحب في ايامنا على المعنى الذى كان يحمله صاحب الخلافة العظمى الذى كان ، ولو شكليا ، المرجع الاعلى لجميع المسلمين في العالم على اختلاف بلدانهم وطوائفهم .

وها نحن الآن ، ننتقل من لقب رئيس الدولة في الاسلام الى بيان لقب الشخص الذى كان يليه في حمل تبعات الادارة والاضطلاع بمسؤولية الحكم ، وهو الشخص الذى تواضع الناس من اهل زماننا على تسميته **برئيس الحكومة او رئيس الوزارة** .

قال القلقشندي : « كانوا في اوائل امر الخلافة يعبرون عنه **بالكاتب** ، لا يعرفون غير ذلك كما اشار اليه القضاعي في «عيون الاخبار» فلما جاءت الدولة العباسية ولقب ابو العباس اول خلفائهم كاتبه ابا سلمة الخلال «بالوزير» **استقر لقب الوزارة من حينئذ ورفض التلقيب بالكاتب** » .

ولقد استعملت كلمة « الوزير » مستقلة ، **للدلالة على الرجل الذى يختاره الخليفة لمعاونته في تحريك اطارات الدولة وضبط اجهزة الحكم وعناصره** . على ان كلمة « الوزير لم تبق منفردة لوحدها مدة طويلة ، اذ ان الشعراء ، ما لبثوا ان اضافوا اليها لقبا يتقدمها ، زيادة في تعظيم حاملها ، واشعارا للناس من خاصة او عامة ، بسمو المهمة التى يمارسها . فقد نقل الراغب الاصفهاني في محاضراته ان الشاعر جحظة البرمكي توجه الى الوزير الذى كان في ايامه بقوله :

قل للوزير ادام الله «دولته»
اذكر منادمتي والخبز خشكار

اذ ليس في الباب بواب «لدولتكم»
ولا حمار ولا في الشط طيار

فاضاف الشاعر لقب «الدولة» الى لقب «الوزير» فاصبح كلا اللقبين متلازمين لا يكاد يفترق احدهما عن الآخر منذ ذلك الحين الى ايامنا هذه ، رغم جميع القرارات « الثورية » التي صدرت في العهود الاخيرة ، بالغاء الالقاب وعدم استعمالها ، لاسيما في المكاتبات الرسمية .

ثم ما لبث لقب الوزير ان اضيف اليه فيما بعد لقب «اخر ، فكان ابو سلمة الخلال وزير السفاح يعرف بلقب « **وزير «ال محمد** » ولما ولي المهدي ابن ابي جعفر المنصور مدة الخلافة، لقب وزيره يعقوب بن داوود بن طهماز «الاخ في الله» ، والمامون بن هرون الرشيد لقب وزيره الفضل بن سهل حين استوزره « بذي الكفايتين » كما لقب اخوه الامين وزيره الحسن بن سهل « **بذي الرياستين** » .

وان ارباب السيوف من امراء الدولة العباسية وكبار عمالها ، اصابهم ما اصاب غيرهم من المدنيين في الادارة . فكان لقب ابي مسلم الخرساني « **امير «ال محمد**» وقيل «**سيف «ال محمد**» ولقب ابو الطيب طاهر بن محمد « **ذا اليمينين** » ولقب الخليفة المعتصم قائد عسكره حيدر بن طاووس «**بالافشين**» من حيث انه اشروسني والافشين لقب على ملك اشروسنة..»

والى جانب لقب دولة الوزير الذي كان يقال لمساعد الخليفة في نفس عاصمة ملكه فلقد عرف العهد العباسي لقبا «اخر استحدث فيما بعد لاطلاقه على ممثل الخليفة ، نفسه في البلدان التي كانت خاضعة لسلطانه . ذلكم هو لقب « **الاستاذ** » واستاذ ، كلمة فارسية الاروعة ، وكانت تكتب « اوستاد » ومعناها بلغة الفرس «معلم او سيد» وعن الفرس اخذها العرب بعد ان كثر بين الامتين التداخل والاختلاط بعد الاسلام .

واول ما استعمل لقب « استاذ » كان في العهد العباسي وذلك حين **اطلق على نائب الخليفة في الديار المصرية والبلاد الشامية ابي المسك كافور بن عبد الله الاخشيدي** ، الذي عرف باسم **الاستاذ كافور الاخشيدي** . وهو الخصي الاسود الذي اشتراه سيده ابو بكر محمد الاخشيدي بثمانية عشر دينارا ورباه واعتقه قبل ان اصبح الحاكم المطلق باسم الخليفة على مصر والشام وما اليهما من ثغور وبلاد. والاستاذ كافور هذا هو الذي بالغ في مدحه المتنبي عندما كان طامعا في بره وصلته ثم عاد فسلقه باهاجيه المقذعة عندما وجد أن طمعه فيه كان في غير محله .

وقد **استعملت كلمة «استاذ» في اوساط النخاسين** الذين كانوا يتعاطون تجارة الرقيق فكانت تتداولها الالسنة في هذه الاوساط للاشارة الى مالك رقبة المملوك فكانوا يقولون: فلان **استاذ المملوك** الفلاني اي صاحبه ومالك رقبته بالرق ، ثم ما لبثت كلمة استاذ ان تطورت في العهد العثماني لاسيما في الهزيع الاخير من ايامه ، كما تطورت طريقة التلفظ بها . فلقد **تحولت كلمة استاذ الى كلمة «اوسطا» او «اسطه»** وبهذا الشكل الاخير ما زالت تلفظ في ايامنا . وقد اصبح لقب **استاذ يطلق على ارباب الصنائع واصحاب الحرف اليدوية منهم على الاغلب** . والمعاصرون من اهل مصر كثيرا ما يستعملون كلمة « اوسطا » بقصد المناداة على الشخص الذي يجهلون اسمه ، وتقابلها في بلاد الشام سورية وفلسطين ولبنان ، كلمة « **معلم** » والغرض والمعنى، هنا وهناك واحد كما هو معروف .

على انه لابد من القول ، بان كلمة استاذ قد تشعبت فيها اساليب الاستعمال في ايامنا حتى انها كثيرا ما غدت تطلق على الشخص العادي من الناس، ولو كان من سوقة القوم وصعاليكهم او حتى اراذلهم، كما انها تطلق كذلك على واحد من اثنين من ارباب السن الفكرية . المحامي الذي يتوكل للترافع عن اصحاب القضايا العدلية ومعلم المدرسة مهما كانت درجته من الثقافة او رتبته من الوظيفة .

وعلى الجملة فان كلمة «استاذ» هي اليوم « عمومية » الاستعمال بدون ضابط ولا ميزان ، من اي انسان لاي انسان .

ونعود الى القاب حكم الولايات والاطراف في الدولة العباسية ، فنقول : انه عندما تراخت قبضة السلطة المركزية التي كانت تمارسها بغداد في علاقاتها مع عمالها في الولايات والاطراف التابعة لها ، واستشرى نفوذ هؤلاء العمال واصبحوا يتسامون الى الانفراد بالسلطة في مناطقهم ، عندما اصبح الامر كذلك نزع منهم الى مشاركة الخليفة بمظاهر الملك من مراسيم والقاب حتى اصبح الخليفة يجد نفسه

وقد اصبح شبه مجرد من كل حول ومن كل طول ، ان ينزل عند رغبات هؤلاء الموظفين الكبار في دولته، وان يلبي رغباتهم ويحقق مطالبهم وان يمنحهم من الالقاب السلطانية ما يتطلعون اليه راغبا أم كارها على حد سواء .

ويصف لنا ابن مسكويه في كتابه « تجارب الامم » حالة الخلافة في تلك الايام حين لم يبق للخليفة من ءاثار السلطان الا نقش-اسمه على السكة والدعاء له فوق اعواد المنابر ، لا اكثر ولا اقل ، فيروي لنا هذا المؤرخ عن المطيع لله العباسي (سنة 361 هـ) انه لما ساله بختيار تزويده بالمال لاجل الغزو والجهاد ، اجابه الخليفة على طلبه بقوله :

« ان الغزو يلزمني اذا كانت الدنيا في يدي ، والي تدبير الاموال والرجال ، واما الآن ، وليس لي منها الا القوت القاصر عن كفائي ، وهي في ايديكم وايدي اصحاب الاطراف ، فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء ، مما تنظر الائمة فيه ، وانما لكم مني هذا الاسم الذي يخطب به على منابركم ، تسكتون به رعاياكم ، فان احببتم ان اعتزل ، اعتزلت عن هذا المقدار ايضا ، وتركتكم والامر كله ! ... »

وهكذا ، لما اصبح لقب الخلافة في مثل هذا التهافت والوهن ، وعدم النفوذ وقلة الجدوى ، اذا بالقاب الحكم والسلطان تأخذ سبيلها الى اولئك العمال الذين هم من حيث المبدأ والوضع القانوني مجرد موظفين لدى الخليفة خاضعين لولايته في التعيين والعزل والسلطة والصلاحية .

ويقال ان اول من اتخذ الالقاب لنفسه من هؤلاء الموظفين هو الحسين بن قاسم بن عبد الله الذي لقبه الخليفة المكتفي « بولي الدولة » فكان هذا الامير اول من لقب بالاضافة الى الدولة في الاسلام

ثم وافت الدلالة لآل بويه الديلم ، فسمى الحسن بن بويه بن فناخسرو الديلمي « **بركن الدولة** » وهو الذي كان صاحب اصبهان والري وهمذان ، وجميع عراق العجم ، واستمر في الملك اربعا واربعين سنة وشهرا وتسعة ايام ، ونحا نحوه في اتخاذ الالقاب ابناؤه الذين قسم عليهم الممالك التي كانت تحت يده اثناء حياته فتلقب **بفخر الدولة**، حتى ان اولهم فنا خسرو اضاف الى لقبه **عضد الدولة** لقبا ثانيا طلبه من الخليفة الطائع لله ، وهو « **تاج الملة** » ثم انه لم يكتف بهذين اللقبين الساميين، وتطلع الى لقب ثالث ، يجعله فوق جميع اصحاب الالقاب من امثاله المعاصرين له ، فتلقب **بشاهنشاه** (**اي ملك الملوك**) وامر خطباء المساجد ان يشركوه بالدعاء الى جانب الخليفة نفسه بهذا اللقب الاخير وهذا اللقب الذي كان الفقهاء يمانعون في اطلاقه على اي انسان ، مهما سما مركزه وقويت شوكته ، لما فيه من المعاني التي لا يجوز ان تقال الا لله عز وجل الذي هو جلت قدرته ، ملك الملوك وحده دون سائر خلقه من بني الانسان .

ولقد كان اطلاق اللقب على احد الحكام من قبل الخليفة ، يتم وسط مراسم حكومية تجري في غاية الابهة والفخامة ، فلقد حكى صاحب تاريخ الاسلام في اثناء الكلام عن تلقيب عضد الدولة الذي اشرنا اليه من قبل ، بتاج الملة :

ان الخليفة ، الطائع لله ، جلس في هذه المناسبة على السرير ، وحوله مائة بالسيوف والزينة ، وبين يديه مصحف عثمان وعلى كتفه البردة وبيده القضيب ، وهو متقلد سيف النبي صلى الله عليه وسلم ، وضربت ستارة بعثها عضد الدولة ، وساله ان تكون حجابا للطائع حتى لا تقع عليه عين احد من الجند قبله . ودخل الاتراك والديلم وليس مع احد منهم حديد .. ووقف الاشراف واصحاب المراتب من الجانبين، ثم اذن لعضد الدولة ثم رفعت الستارة . فقبل عضد الدولة الارض ، فارتاع زياد القائد لذلك وقال ، بالفارسية : « ما هذا ايها الملك، اهذا هو الله عز وجل !؟.» فالتفت اليه عبد العزيز ابن يوسف وقال له : «فهمه» فقال له: «هذا خليفة الله في الارض» ثم استمر (اي عضد الدولة) يقبل الارض سبع مرات ، فالتفت الطائع الى خاص، الخادم، فقال : استدنه فصعد عضد الدولة ، فقبل الارض دفعتين ، فقال له ادن الي ، الى ان دنا وقبل رجله ، وثنى الطائع يمينه عليه ، وامره فجلس على كرسي بعد ان كرر عليه «اجلس» وهو يستعفي ، فقال له، اقسمت لتجلس ، فقال : عندي معلوم ، فقال ، نيتك موثوق بها ، وعقيدتك مسكون اليها ، فاوما براسه . ثم قال له الطائع : قد رايت ان افوض اليك ما وكل الله الي من امور الرعية في شرق الارض وغربها وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي واسبابي . فتول ذلك مستخيرا بالله ، قال عضد الدولة يعينني الله على طاعة مولانا وخدمته ، واريد وجوه القواد ان يسمعوا لفظ امير المؤمنين ، فقال

الطائع : هاتوا الحسين بن موسى ، ومحمد بن عمر وابن معروف ، وابن أم شيبان ، والزينبي ، فقدموا. فأعاد الطائع لله القول بالتفويض ثم التفت الى طريف الخادم ، فقال ، يا طريف ، تفاض عليه الخلع ويتوج فنهض الى الرواق ، والبس الخلع - وخرج قاوما يقبل الارض ، فلم يطق لكثرة ما عليه ، فقال له الطائع : حسبك ، حسبك ، وأمره بالجلوس ، ثم استدعى الطائع تقديم الوينه ، فقدم لواءين واستخار الله ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعقدهما ثم قال : يقرأ كتابه فقريء فقال له الطائع: « خار الله لك ولنا وللمسلمين ، آمرك بما امرك الله ، وانهاك عما نهاك عنه ، وابراء الى الله مما سوى ذلك، انهض على اسم الله. »

ثم اخذ الطائع سيفا كان بين المخدتين فقلده به مضافا الى السيف الذى قلده مع الخلعة ، وخرج من باب الخاصة ، وسار فى البلد ! .. »

والجدير بالذكر ، أن حكام الديلم من بني بويه المذكورين ، كانوا قدوة فى هذا الباب ، لمن جاء بعدهم من ارباب الحكم فى ولايات الامبراطورية الاسلامية العباسية ، خارج بغداد ، فكثرت الاسماء التى التصقت بها الالقاب من مثل صمصام الدولة ، وغضنفر الدولة ، وشرف الدولة وما شابه ذلك .

تطور الفكر العلمي ولغة التقنيات بالمغرب منذ العصور الوسطى

الأستاذ : عبد العزيز بنعبد الله « الرباط »

لقد استعرضنا مختلف العوامل التي كان لها اثرتوي او ضعيف فى تطور الفكر واللغة بالمغرب ومن تلك المؤثرات العناصر الحضارية الاموية والقيروانية والاندلسية ثم الثقافية من قرآن ولغة ودين وادب وتصوف غير أن نظرتنا الى هذا التطور لن تتم ما لم نستشف من خلال البحوث والدراسات ذات الطابع العلمي **ما امكن للكيماويين والرياضيين والطبائعيين والاطباء والصيادلة والفلكيين والفلاسفة أن يسهموا به من آراء ونظريات ومصطلحات لبلورة اللغة العربية واستكمال تطورها فى المغرب** ، وبما أن المغرب الاقصى لم يكن يعيش فى قفص متقل بالنسبة للشرق العربي وانه دشن منذ القرن الثالث الهجري مع الاندلس عهد تبادل فكري أوثق فان من الضروري استكناه محتويات هذه الاواني المستطرقة (1) جميعها للتعرف على الهيكل العلمي ومقوماته ، فى خصوص الطب والصيدلة والكيمياء المستجدة فى المغرب الاقصى نلاحظ بأن الاندلس ، وبالتالي المغرب ، كانا عالة على الشرق حيث ظهر امثال جابر بن حيان والحسن بن النكد الموصلي وابن سينا والرازي وءاخرين ونظمت صناعة الطب منذ عام 295 هـ (2) باقرار الخليفة المقتدر نظام الامتحانات فتخرج فى عام 319 هـ وحدها ببغداد 860 طبيبا واجري اول امتحان للصيادلة ايام المعتصم عام 221 هـ واول مارستان بنى فى الاسلام كان بالشام فى عهد الوليد الأموي عام 86 هـ (3) ثم فى مصر فى عهد احمد بن طولون وكان فى المارستان العضدي اربعة وعشرون طبيبا فيهم الكحالون والطبائعيون والجراحون .

ومن اطباء الأندلس وصيادلته فى هذا العصر ابن جلجل (وهو اعظم طبيب طبائعي) والوليد المدحجي الذي دخل الأندلس مع عبد الرحمن بن معاوية وهو طبيبه الخاص، وعبد المالك بن حبيب السلمي المرداسي القرطبي المتوفى عام 238 هـ ، **واول من ادخل الطب الى المغرب هو** اسحاق بن عمران وابن الجزار صاحب « زاد المسافر وقوت الحاضر » وهو أحمد بن ابراهيم بن ابي خالد المتوفى عام 395 هـ (4) ومحمد بن عبدون الذي اشرف على مارستان القاهرة ورجع الى

1) وهو مبدأ غاليلي Galilée المعروف بـ Vases Communicants
2) (القطفي ص 130) .
3) المقريزي فى الخطط والآثار ج 2 ص 405 طبعة بولاق .
4) صبح الأعشى ج 3 ص 337 .

الاندلس عام 360 هـ (5) وابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (6) .

ويظهر ان هذه العلوم بدأت تزدهر في المغرب الاقصى منذ هذا العصر حيث **كانت جامعة القرويين وملحقها جامع الاندلس بفاس تدرسان الطب ضمن** الكتب المقررة وقد اشار لوكلير الى هذا الازدهار (7) ولاحظ (8) ان **المغرب اشد اقطار الاسلام عمقا من الناحية العلمية** وهو يقصد المغارب الثلاثة وخاصة افريقية ، وقد لاحظ القفطي (9) ان المعز الفاطمي نقل معه الى مصر كثيرا من الاطباء المغاربة واشتهر تسلطين التونسي آنذاك كطبيب ماهر وأسست بفاس مدرسة طبية منذ القرن الرابع (10) وكان القرنان الخامس والسادس الهجريان ابرز العصور العلمية في الاندلس المسلمة رغم الاضطراب الذي تمخض عن تدخل المرابطين ثم الموحدين وذلك بفضل العناية التي اولاها هؤلاء الخلفاء للعلم والعلماء، اذيمكن القول ـ والدكتور لوكلير يؤكد هذا (ج 2 ص 72) **بان الفكر لم يسبق له ان تحرر كما وقع في هذا العصر** وشهد بذلك نبوغ أمثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد (الذي هو اعظم فيلسوف انجبته الاندلس) وبني زهر الذين توارثوا الطب طوال ثلاثة قرون واعظمهم هو ابو مروان عبد الملك الذي يعتبره بعض المؤرخين اكبر طبيب تخرج من المدرسة العربية ، يضاف الى هؤلاء الغافقي (11) وابو الصلت امية ابن عبد العزيز الدائي اللذان الفا في تاريخ الطب الطبيعي وابن العوام (12) مؤلف « **كتاب الفلاحة** » **الذي لا يوجد له نظير في الادب العربي لما** يحتوي عليه من معارف تطبيقية ووثائق قديمة ثمينة (13) بل هو اعظم ما انتجه ، لا العرب وحدهم، بل حتى العصور القديمة (ص 110) .

واصبحت هذه المصنفات اساسا دراسيا لرجال القرن المقبل أمثال ابن البيطار (14) المالقي واستاذه ابي العباس النبطي وهما اعظم العلماء النباتيين العرب الذين وصلتنا مؤلفاتهم ولم ينجب الشرق في هذه الاثناء من أعاظم العلماء سوى فخر الدين الرازي **فاستطاع الاندلس بفضل شبكة علمائه ان يحمل راية الفلسفة والطب في العالم الاسلامي (15) .**

---

5) يوجد الجزء الاول من هذا المخطوط في المكتبة الوطنية بالرباط وكذلك مختصر كتاب « الاعتماد » في الادوية المفردة لابن الجزار ومختصر الطب لابن حبيب المرداسي .

6) (النفح ج 1 ص 444) والزهراوي هو صاحب (التعريف لمن عجز عن التاليف) وهم اعظم جراح عربي (لوكلير ـ الطب العربي ج 1 ص 334) اعتمده مؤلفو الجراحة في العصور الوسطى وهو اول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصاة المثانة وعالج الشلل واستعمل خيوط الحرير في الجراحة ويوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط جزء من هذا الكتاب ((عدد 1427 د) الذي طبع بالهند وقد مات بعد الاربعمائة كما عند حاجي خليفة والحسن الوزان الذي ارخ وفاته بـ 404 هـ (موافق 1013 م) ووهم كازيري Casiri الذي اكد في المجلد الاول من فهرسته (ص 137) انه عام 500 هـ (لوكلير ج 1 ص 437) .

7) نفس المصدر (ج 1 ص 334) .

8) (ج 1 ص 407) .

9) في (اخبار العلماء بأخبار الحكماء) ص 75 .

10) (شهيرات المغرب) للكانوني وهو مخطوط نقل عن كتاب حول (الاسنان بالمغرب الاقصى) لعالم فرنسي لم اتبين اسمه بوضوح في المخطوط المذكور .

11) هو ابو جعفر احمد بن محمد وهو غير محمد بن تسوم الغافقي صاحب « المرشد » في طب العيون ويوجد « كتاب الاعشاب » للغافقي في دار الآثار العربية وهو يحتوي على 380 رسما ملونا لنباتات وعقاقير وحيوانات متقنة الرسم .

12) هو ابو زكرياء يحيى بن محمد الذي لا نعرفه الا من خلال مصنفاته ويزعم كازيري انه عاش في القرن السادس الهجري .

13) (لوكلير ج 2 ص 11) .

14) ابن البيطار توفي عام 646 اكل عقارا قاتلا فمات من ساعته (نفح الطيب ج 2 ص 874) .

15) (لوكلير ج 2 ص 72) .

وبفضل الانبعاث العربي في الاندلس (16) صارت اوربا تنفض عنها اردية الركود واصبح المسيحيون يتوافدون على طليطلة للارتشاف من معين العلم وقد استنجد ريموند Raimonde اسقف المدينة بعلماء العرب لعلاج الفقر اللاتيني واذ ذاك بدات ترجمة مصنفات العرب العلمية ، ثم ورد جيرار دوكريمون على طليطلة حيث استقر نحوا من نصف قرن نقل خلاله من العربية الى اللاتينية ستة وسبعين كتابا عربيا او افريقيا معربا .

وقد بدات حركة الترجمة في اوربيا منذ القرن الرابع لهذا قسطنطين التونسي الصقلي قد اسس مدرسة سالرنة وهي اول مدرسة من نوعها في اوربا وكانت مبعث انوار الطب الحديث في العالم الغربي ، ولد حوالي عام 400 بتونس وحمل مخطوطات طبية الى سالرنة Salerne بقيت غذاء اوربا عدة قرون وترجم الى اللاتينية اهم كتب الطب العربي منها « زاد المسافر » لابن الجزار وكتب للرازي واسحق ابن سليمان الاسرائيلي والف نحوا من 24 كتابا في الطب منها قانون الطب في 12 مجلدا و « فياتيكوم » في الطب العام في سبعة اجزاء ومات عام 475 .

وكان القرن السابع في الشرق عصر ازدهار ثم انهيار نسبي للعلوم كما كان قبله القرن السادس في الاندلس ولكن لم يكد يمضي العقد الاول من القرن السابع (17) حتى بدا صرح العلم ينهار وطمست الاضطرابات ذلك الرواء الذي تالق نجمه منذ عهد الناصر الاموي طوال ثلاثة قرون .

نعم في العهد الذي كانت الاندلس خاضعة لسلطان مراكش تكونت — كما يقول لوكلير (ج 2 ص 340) جماعة من الاطباء التفت حول ملوك المرابطين والموحدين وسار معظمهم في ركاب هؤلاء الملوك الى المغرب حيث قضوا بقية حياتهم في العلاج وتدريس الطب — فافاد المغرب كثيرا من نكبة الاندلس .

ويظهر ان علوم الحكمة تقلص ظلها مؤقتا في عهد المنصور عندما حورب الفلاسفة حتى اضطر ابن رشد الى التخلي عن الخوض في ذلك ، والمنصور هذا وان كان لم يقصد اضطهاد رجال الطب حيث اناط بابن زهر نفسه مأمورية تعقب الفلاسفة ثقة به الا انه عهد الى تدوين الاحاديث وترتيب الجرايات لحفظها فاتجه الناس اليها انجذابا للمادة فقل المعتنون بالحكمة والطب ، على ان اعتقال المنصور لابن رشد وابى جعفر الذهبي زاد الناس ريبة في مصير الفلاسفة والاطباء ولعل المنصور شعر بخطورة هذه التدابير فاعاد الحظوة الى الرجلين وكلف ابا جعفر بالسهر على مصالح الاطباء وطلبة الطب ، وتلك من المنصور محاولة لا باس بها لتنظيم المهنة الطبية .

وقد اكد الدكتور رينو Reinaud ان المغرب لم يقم على وجه العموم بدور يذكر في العصر الذي كان الطب وبقية العلوم يتالق نورها في سوريا والعراق ومصر وحتى في اسبانيا المجاورة ، ولكن منذ اواخر القرن الحادي عشر وخاصة الثاني عشر الميلاديين — وهما ابرز عصور اسبانيا المسلمة — امتزج تاريخ الاندلس بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين والموحدين « فكيف يمكن اذن ان نفصل بين دراسة الطب بالمغرب ودراسة حياة العلماء الذين انجبتهم الاندلس او الذين تكونوا في مدارسها ثم ساروا في اعقاب ملوك المغرب من اشبيلية او قرطبة الى فاس او مراكش او اغمات ، فللمغرب الحق اذن ان يتبنى ابن باجة وابن طفيل وابن رشد » الخ (18) وكانت الحكمة تشمل آنذاك جميع

---

16) وقد نبغ في القرن السابع امثال السويدي صاحب التذكرة المتوفى عام 691 هـ (يوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط مختصر للتذكرة لعبد الوهاب الشعراني المتوفى عام 973 هـ في 141 ورقة) وابن ابي اصيبعة وجمال الدين القفطي (علي بن يوسف المصري الوزير الملقب بالقاضي الاكرم المتوفى في عام 646) وعبد اللطيف البغدادي (المتوفى عام 629 هـ والذي امتاز في وصف اعشاب مصر) وابن النفيس المصري المتوفى عام 687 هـ والذي كان اعظم اطباء عصره وهو صاحب « كتاب الشامل » الذي لم يكمل المؤلف منه سوى 80 مجلدا من بين 300 (يوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط موجز قانون ابن النفيس لعلي بن ابي الحزم القرشي المتوفى عام 687 في 38 ورقة) .

17) اي بعد غزوة العقاب التي انهزم فيها الموحدون عام 609 « وكانت السبب في هلاك الاندلس » كما يقول ابن عذارى في « البيان المغرب » (ج 4 ص240) .

18) الطب القديم بالمغرب — رينو Reinaud نشرة معهد الدروس العليا عدد 1 ص 72 ابن القاضي (درة الحجال ص 117) .

شعب الفلسفة والعلوم وان كان مفهومها سيتقلص فى القرون الاخيرة عندما يضعف الفكر العلمي بالمغرب ليقصر على جزء من الطب هو الكحالة او مرض العيون.

ويظهر ان ابا العلاء زهر بن زهر هو أول طبيب اندلسي ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الاندلس وقد كان طبيبا خاصا ليوسف بن تاشفين بعد أن كان طبيب المعتمد بن عباد باشبيلية (19) ووالد ابي العلاء هو ابو مروان عبد الملك ابن أبي بكر محمد بن مروان بن زهر الذي تولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان (20) وكانت له اراء شاذة فى الطب منها منعه من الحمام اعتقادا منه بانه يعفن الاجسام ويفسد تركيب الامزجة (21) وقد تمخضت تجارب أبي العلاء فى المغرب عن تاليفه لكتاب «التذكرة» (الذي ترجمه وطبعه كولان عام 1911 بباريس) وهو مجموعة من الملاحظات سجلها لولده ابن زهر لتعريفه بالادواء الغالبة فى مراكش والادوية المناسبة .

وبعدما توفي ابو العلاء امر علي بن يوسف بجمع ملاحظات طبية اخرى كان ابو العلاء سجلها فى أوراق وهي « المجربات » (22) وولده هو ابو مروان عبد الملك بن زهر خدم المرابطين مثل ابيه والف كتاب الاقتصاد (23) وهو اعظم من ابن سينا ولا يعدله سوى الرازي فى الشرق .

وقد قرأ عليه ابو الحكم ابن غلندو الاشبيلي الشاعر عام 535 كتاب « الاقتصاد » فى سجن مراكش حيث مكث ابن زهر نحو العشر سنين . وكان ابن رشد يفضل ابن زهر على غيره من اهل عصره (24) . وقد نهج ابن زهر فى كتاب « التيسير) اسلوبا جديدا فى الحكمة القياسية مستخدما التمحيص العقلي للوصول الى احسن النتائج فهو طبيب التجربة والتمحيص العلمي وليس من صناع اليد كما يقول فى « التيسير » ولذلك **توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية الى الكشف عن امراض جديدة لم تدرس قبله فقد اهتم بالامراض الرئوية واجرى عملية القصبة المؤدية الى الرئة وتمكن هو بعد ذلك من تشريح القصبة فى مرض الذبحة فعولج المريض وقد اختص فى امراض الجهاز الهضمي واستعمل انبوبة** مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع واستعمل الحقن المغذية **واكتشف طفيلية الجرب وسماها صؤابة** كما بسط طرق العلاج القديمة واوضح ان الطبيعة — اذا اعتبرناها قوة داخلية تدبر

---

19) ذكر المراكشي فى « المعجب » ان المعتمد استدعى ابا العلاء لمعالجة « الرميكية » عندما كان اسيرا باغمات .

20) (النفح ج 1 ص 445) .

21) الانباء فى طبقات الاطباء لابن ابى اصيبعة ج 2 ص 64 — 66)

22) جمعت بمراكش عام 526 هـ يوجد مخطوط منها فى الاسكوريال (844) وقد ترجم جان دوكابو التذكرة من العبرية الى اللاتينية (نسخة من مكتبة كلية الطب بباريس) ثم توالت التراجم عام 1280 والمطبوعات (عشر مرات بين 1490 و 1554) .
وتوجد الآن نسخة فى مكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريس يرجع تاريخ طبعها الى 1531 وهي تحتوي ايضا على كليات ابن رشد .
وهناك رسالة فى امراض الكلى كتبها ابو العلاء لعلي بن يوسف ولا توجد سوى ترجمتها باللاتينية المنشورة عام 1497 كما يوجد مخطوط له حول الخواص بمكتبة باريس ومنه استقى ابن البيطار خواص لحوم الحيوانات ، ولابى العلاء مقالة فى شرح رسالة يعقوب بن اسحق الكندي حول تركيب الادوية .
وتوجد نسخة من (جامع اسرار الطب) لابي العلاء فى المكتبة الوطنية بالرباط وهي تحتوي على 185 ورقة .

23) لابراهيم بن يوسف اخي علي (يوجد منه مخطوط بباريس رقم 2959) وكذلك نسخة فى الاسكوريال حسب رينو محررة بالعربية ومكتوبة بحروف عبرانية وفرغ من الكتابة عام 515 هـ .

24) ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » .

شان الجهاز البشري — تكفي وحدها في الغالب لعلاج الادواء (25) .

والحفيد أبو بكر بن مروان كان طبيبا شاعرا متين الدين خدم الدولتين اللمتونية والموحدية (عبد المومن ويوسف ويعقوب والناصر) توفى عام 596 هـ بمراكش الف « الترياق الخمسيني » ليعقوب المنصور ودس اليه ابن يوجان وزير المنصور السم هو وابنة اخته وكانت هي وأمها عالمتين بالطب لاسيما في امراض النســـاء وتدخلان الى نساء المنصور (26) وكان أبو بكر يحفـظ صحيح البخاري (27) **ولم يكن فيزمانه اعلم منه باللغة وكان يحفظ شعر ذي الرمة وهو ثلث لغة العرب (28)**

اما ابو بكر محمد بن يحيى ابن الصائغ المعروف بابن باجة (29) فهو شيخ ابن رشد ، وقد استوزره أبو بكر يحيى بن تاشفين مدة عشرين سنة وكان يشارك الاطباء في صناعتهم فحسدوه وقتلوه مسموما عـــام 533 هـ (30) . ولم يصلنا شيء من المؤلفات الطبيـة المنسوبة لابن باجة ولا يعرف الا عن طريق ابن البيطار الذي يقتبس منها في « جامع المفردات » . ومن تلامذة ابن باجة سفيان الاندلسي المتوفى عام 537 الذي كان احد أطباء علي بن يوسف وتعاون مع شيخه ابن باجة في تاليف كتاب التجربتين (31) .

ومن الاطباء الذين نبغوا في هذا العصر : ابو جعفر بن هارون الترجالي طبيب يوسف وهو تلميذ المعافري في الحديث وشيخ ابن رشد في التعاليم والطب وكان عالما بصناعة الكحل (طب العيون) (32) .

اما الوليد ابن رشد فاهم مصنفاته كتاب الكليات الذي طلب من ابن زهر اعداد ملحق لـــه (33) في الجزئيات لتكون جملة كتابيهما كتابا كاملا في الطب، وقد نقم عليه المنصور واجبره على المقام باليسانة الاهلة باليهود قرب قرطبة وقد اقترح ابن رشد في شرحه لابن سينا ما يصفه الاطباء اليوم وهو **تبديل الهـــواء في الامراض الرئوية** ، اشار الى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية (34) .

---

25) (حضارة العرب) جوستاف لوبون ص 530 من الطبعة الفرنسية . وقد وهم كودار فزعم في كتابـه حول تاريخ المغرب (ص 452) ان ابا مروان ابن زهر يهودي ثم اكد أن ابن زهر استعاض بالمنهـج التجريبي والطريقة المعقلية من التقليد في ممارسة فن الطب وكانت له عبقرية فذة تطورت بفضلها شعب ثلاث حاول توحيدها وهي الصيدلة والجراحة والطب العام .

26) (ابن ابي اصيبعة ص 67) .

27) (الانيس المطرب) (ج 2 ص 180)

28) (المطرب لابن دحية) .

29) المتوفى بفاس (ابن ابي اصيبعة ج 2 ص 63)

30) وقد زعم مونك ان ابن رشد لم يتلمذ لابن باجة الذي مات عام 1138 (525 هـ) اي عندما كان لابن رشد 12 سنة وابن ابي اصيبعة كتب تاريخه بعد وفاة ابن رشد باربعين سنة .
(مزيج من الفلسفة اليهودية والعربية ص 420) .
ويذكرون ان وفاته كانت سنة 533 هـ بفاس فيكون قد اتيح بذلك لابن رشد ان يتتلمذ له.
كما خطأ عمر فروخ في كتابه «ابن طفيل وقصة حي بن يقظان» ص 31 «المراكشي» حينما زعم ان ابن طفيل قرأ على ابن باجة » .
واضطرب الفتح بن خاقان في ابن باجة حيث نسبه في القلائد للتعطيل وانحلال العقيدة وحلاه في « مطمح الانفس في ذكر رجال الاندلس » بالخير والدين والاستقامة (والسلوة ج 3 ص 262) .

31) (لوكلير (تاريخ الطب العربي) (ج 2 ص 79)

32) ابن ابي اصيبعة (ج 2 ص 75) وذكر ابن عذارى في « البيان المغرب » (ج 4 ص 49) ان الخليفة ابا يعقوب اعتل عام 573 فوفدت عليه الاطباء في الاندلس للمعالجة الى ان وجد الراحة » .

33) وذكر ايضا ان ابا يعقوب لما خرج في الغزوة التي مات اثرها بالاندلس كان الاطباء الحاضرون لديه هم ابن زهر وابن مقبل وابن قاسم (ج 4 ص 70) .

34) (حضارة العرب جوستاف لوبون ص 531 من الطبعة الفرنسية) .

وابن رشد هو اول (35) من اشار الى الدورة الدموية وعللها فى كتابه « الكليات » الذي استمد منه ويليام هارفي William Harvey معظم نظرياته . وهناك اطباء آخرون ينيف عدد البارزين منهم على العشرين ، ازدهر بابحاثهم القطاع العلمي فى عهد المرابطين والموحدين (36) نخص بالذكر منهم عالمين اثنين من سبتة هما علي بن يقظان الطبيب الشاعر الذي زار مصر عام 544 هـ ثم اليمن والعراق ، وابن سمعون ابو الحجاج يوسف بن يحيى (37) الذي كان طبيبا لميمون امير حلب ولملك مصر الظاهر ، وذلك علاوة على ابن الرومية النبطي الاشبيلي أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بابن العشاب الذي رحل الى الشرق عام 614 (38) بعد ما درس اعشاب الاندلس والمغرب واقتبس منه تلميذه ابن البيطار ذوقه الخاص وعلمه الواسع، وكان لرحلة بن البيطار الى المغرب اثر قوي فى نقل المصطلحات البربرية الى معجمه العربي الجديد الذي اصبح المرجع الاساسي فى الشرق وخاصة بمصر حيث عين ابن البيطار رئيس العشابين (39) .

ومن ابرز من ظهر فى هذا العصر ايضا الشريف الادريسي الذى صنف كتابه «النزهة» فى الجغرافية عام 548 هـ (1154 م) ووضع كرة فضية للعالم جعلت منه استاذ اوربا كما شحن كتابه فى الادوية بنتائج تجاربه الشخصية القيمة ، حذت الطبائعي الشرقي الكبير ابن البيطار الى الاقتباس منه فى مائتي موضع من كتابه فى الاعشاب (40) والاعتماد عليه وحده فى ثلاثين موضعا مع الاشارة الى اسمائها بالبربرية . ويتجلى من هذا العرض ان **العلوم ازدهرت فى المغرب الاقصى الى القرن السابع وانصهرت معطياتها ومفرداتها فى بوتقة مع مصطلحات الشرق العربي عدا فروق ترجع الى اللون المحلي كالنباتات والازهار والاعشاب العقاقيرية التي تحمل اسماء خاصة متاثرة بالعقاقير الجهوية** ونضرب مثالا لذلك بالجوزة الصحراوية التي عرفت فى المغرب بهذا الاسم بينما عرفت فى كل من الشرق والجزائر بجوزة الشرك (41) وقد استعمل الطبيب هرون بن اسحاق ابن عزرون فى ارجوزته التي استدرك فيها على الحميات الواردة فى ارجوزة ابن سينا (وهو من رجال القرن الرابع عاش فى عهد عبد الرحمان الثالث) نحو ثلاثين كلمة مغربية اندلسية بدل مقابلها الفصيح منها :

تبن مكة (ادخر)
والحلحال (= اسطوخودوس)
والعقربان (= استولوفندريون Scolofendre)
والفاسوخ (= أشق :
Gomme Ammoniaque)
وشيبة العجوز (= افسنتين Absinthe)
والمجيلة (= اكليل الملك Melilot)
وحبة حلاوة (= انيسون Anis)
والرجلة (= بقلة حمقاء Pourpier)
ويربوز (Blette = بقلة يمانية) .
وحبق الاترج (= ترنجان Basilic citronnelle)
والصفصاف (= خلاف Saule ou Peuplier)
والجزر البري (= دوتو Carotte sauvage)
والنانخ (= بزر الرازيانج Graine de fenouil)
والبرستم المكور (زراوند مدحرج
Aristoloche ronde)

والهندبا (= سريس Chicorée)
والحمودة (= سقمونيا Scammonée)

---

35) ابن النفيس المصري ، اكتشف الدورة الدموية الصغرى وهي الدورة الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون (نشرة المعهد المصري ج 26 عام 1934 ـ بحث بقلم ماكس مايرهوف ص 33) وقد اشار ابن النفيس الى ذلك فى « الكتاب الشامل فى الطب » الذي كان يحتوي على 300 مجلد وقد أهدى مؤلفه منه 80 مجلدا لمستشفى قلاوون .

36) تحدثنا عن جميعهم فى كتابنا « الطب والاطباء بالمغرب » المطبعة الاقتصادية 1960 بالرباط .

37) القفطي ج 2 ص 160 و 193 و 256 .

38) توفى عام 637 هـ وصنف كتابا فى الحشائش رتبه على حروف المعجم وفاق أهل زمانه فى معرفة النبات (نفح الطيب ج 1 ص 635) وتلميذه ابن البيطار هو اعظم نباتي العرب الذي قارنه لوكلير (ج 2 ص 225) بالغافقي والشريف الادريسي ورشيد الدين الصوري والنبطي .

39) نفح الطيب ج 2 ص 683 .

40) لوكلير Leclert (ج 2 ص 680)

41) ابن البيطار فى « جامع المفردات » وعبد الرزاق الجزائري فى « كشف الرموز فى بيان الاعشاب » (طبعة الجزائر 1903 و 1917) .

والحبق القرنفلي (= شاهشبرم Petit basilic)
ومشيشترو أو (= نعناع Menthe نوذنج)
وحب الملوك (= تراسيا Cerise
والكروية البرية (= تردمان Carvi sauvage)
وقصة الحية (= قنطوريون Centaurée)
والشمع الابيض (Cire blanche = موم)
وغير ذلك .

وكان النباتيون يسمون الشجارين والحشائشيين بالشرق بينما يعرفون بالعشابين فى المغرب ومنهم ابن العشاب المعروف بابن الرومية .

ولعل العامية المغربية من اغنى اللهجات العربية الدارجة فى مصطلحات العلوم بالرغم من وجود مرادفات بربرية ولنضرب لذلك امثلة مقتبسة من معجمنا فى « الاصول العربية للعامية المغربية » .

ففي خصوص الاعشاب والازهار : بابونج (بابنوج) — بسباس (المعجم الوسيط) مقدونس (معدنوس ترغاس) — الترنج (الكماد بالشام) — ترياق (دواء للسموم) الجلبان — حب الرشاد — الحرف — الجلجلان — جلنجين — الجوز — الباذنجان — البحيرة (البستان) — برتوق — اجاص — البصل — العنصل — الفول — البطيخ — البرسيم — التبن — الثوم — الحب — الحرمل — الحشيش — الحلبة — حلفاء — حماض — حمص — حناء — حنطل — خبيزة — خزامى — خس — خشخاش — خشاش — خوخ — خيار — ذرة .

وفى العلوم : التوتيا — الجلمود (الصخر) — الجدول — الجذري — الجذام — الجذر — الجليد — الحادور (المكان المنحدر) — الحارة (الفضاء) — حامض الرئة اي مر النفس — الحبل (حمل المراة) والحرقة والحصحاص (الارض الحجرية) — الحكة والحراج — والخنان والدمل الخ .

ومن اعضاء الجسم : بعصوص (عظم بين الاليتين) (المعجم الوسيط) جمجمة — اقنف الانف — الجفن — الحاجب — الحبو — والحدبة — حك الورك (اي حك وهو مغرز رأس الفخذ) حلقوم — حنجرة — خرطوم — اما فى عموم الحيوان فنذكر من المفردات :

الحيوان — البغل — الجبح (خلية النحل) والجمل والحمار والبرغوث والبق والنحل — والبعوض والتمساح والتيس — والثعبان — والحية — والحنش والافعى — والجحش والجراد والجرثومة والجرو والجماد والحجل — والحداة ، والحرجة (جماعة الغنم والابل) والحظيرة والحلس والحوار (ولد الناقة) والحوت والحولي — والحيتطان (الدراج) (الحيتون فى زعير) وختل الصياد — والخروف والدلفين — ودوارة البطن (امعاؤه) والديك — والذباب — والدب — والخيل — والخيال — والخطاف — والخفاش — والخنفساء الخ .

اما فى عصر المرينيين فان **الملكة العلمية تضاءلت** وصار حفظ النصوص هو الغالب لا فى علوم الآلة كالنحو او علوم الشريعة بل حتى فى المنطق والحساب والطب وسائر العلوم العقلية (42) ويظهر ان هذه الآفة الفكرية قد اصابت بشلل جزئي قطاعات علمية فى الشرق حيث **بدأ عصر الانحطاط العلمي فى القرن الثامن وبداية التاسع على اثر السيول الجارفة التي حطمت فى طريقها معالم المدنية** تحت امرة جنكيز خان وتيمورلنك ، واذا كان ابن بطوطة قد تحدث لنا عن المدرسة النظامية التي كانت ما زالت قائمة البنيان فان اساتذتها وطلبتها اندرسوا وقد لاحظ لوكلير انه امكن فى هذه الفترة تسجيل نحو الاربعين عالما نصفهم من الاندلس لا يوجد من بينهم طبيب مشهور لقلة الطرافة والاكتفاء بالجمع والتاليف (43) .

ويرى بعض المستشرقين ان **جامعة فاس التي ظلت تدرس الطب بكتب ابقراط وجالينوس وديوجينوس المعربة لم تكن لتحسد جامعات العواصم العربية الاخرى** (44). والواقع ان الفكر العلمي بدأ يتحجر ليجمد على النصوص الظاهرة بالرغم عما يقال من

---

42) « نشر المثاني » ج 2 ص 97 « وسلوة الانفاس » ج 1 ص 74 نقلا عن كتاب لعلي بن ميمون الفاسي .

43) كتاب الطب العربي لوكلير (ج 2 ص 258) .

44) ليفي بروفنصال Lévy-Provençal (هسبريس Hesperis عام 1952 ص 3) ولوكلير « الطب العربي » (ج 1 ص 575) وقد وصف كل من الرحالة باديا ليبليش المعروف بعلي العباسي والدكتور رينو Reinaud . (الطب القديم بالمغرب ص 77) مدينة فاس بانها اثينة افريقيا اي شبيهة بعاصمة الفكر اليوناني باوربا .

وجود مدرسة للطب فى سلا (45) ومن ظهور دراسات مغربية حول علل وطرق علاج «الطاعون الاسود» (46) الذي ظهر فى منتصف المائة الثامنة .

وابرز من ظهر من الاطباء انما عاشوا فى اوائل عهد المرينيين امثال ابي العباس الشريشي السلوى الذي قرأ الطب فى الشرق على ابن بنان (47) ومحمد ابن خليل السكوني الذي صنف فى الخواص الطبية والكليات فى الاغذية والبيطرة وفن ركوب الخيل وتدبير الحروب (48) .

اما فى القرن الثامن فان العلماء اصبحت لهم مشاركة محدودة مثل احمد ابن علي المليانى المراكشي الذي جمع بين الشعر والكتابة والطب (49) بينما كانت لهذه المشاركة سمة الضلاعة والعمق عند النبطى مثلا الى اوائل القرن السابع حيث كان الى جانب اختصاصه فى علم النبات اماما فى الحديث حافظا ناقدا .. « لوجود القدر المشترك بين صناعتي الحديث والنبات اذ موادهما ــ كما يقول ابن الخطيب فى الاحاطة ــ الرحلة والتقييد وتصحيح الاصول » ، وقد شملت المشاركة جوانب شتى عديدة من العلوم والتقنيات اهمها الرياضيات والهندسة والهيئة . وكان العرب اساتذة النهضة الاوربية فى الحساب (50) وقد فند سيديو Sedillot (51) ما زعمه بعض المستشرقين من ان علماء العرب انما اقتبسوا من الاغريق مشيرا الى ما ابدعه الفكر العربي فى هذا المجال مثل ادراج الخطوط الماسة للدائرة Tangentes فى الحسابات ، والاستعاضة عن الاساليب المتيقة بحلول مبسطة اصبحت اساسا فى حساب المثلثات الحديث Trigonométrie

وقد لاحظ العالم شال Chasles انه كان للعرب فضل التفكير فى تطبيق الجبر على الهندسة ، وتأكد ذلك بعد أن نشرت مؤلفات محمد بن موسى الخوارزمي منذ عام 1836 م من طرف روزن Rosen

ومن بينها بحث فى الجبر حلت مشاكله فى المعادلات الثلاثية بطرق هندسية، ويقال بأن الخوارزمي هذا لم يحل سوى المعادلات من الدرجة الثانية Equation de 2° Degré وان الذي حل معادلات الدرجة الثالثة هو عمر ابن ابراهيم (52) ولعل لفظتي الغوريتم واللوغريتم مشتقتان من اسم الخوارزمي الذي يعتبر اقدم الرياضيين العرب حيث عاش فى عصر المأمون العباسي. ونقلت كتبه فى الجبر والمقابلة الى اللاتينية ، وقد ابدع العرب فى علم المثلثات نظرا لتطبيقاتها فى علم الفلك .

واسهم المغرب الاسلامي اي المغرب الكبير والاندلس فى بلورة هذا الاشعاع العلمي العربي فظهر ابن حمزة المغربي فى القرن الرابع واستعمل طرقا جديدة فى اللوغريتم ، واشتهر فى الاندلس ابو عبيدة مسلم بن احمد ويحيى ابن يحيى المعروف بابن السمينة وابو القاسم اصبغ بن السمح (له تاليف منها المدخل الى الهندسة فى تفسير اقليدس ، وكتاب كبير فى الهندسة) وابو القاسم ابن الصفار وابو الحسن الزهراوي (كان عالما بالعدد والطب والهندسة له كتاب شريف فى المعاملات) وابو الحكم عمر الكرماني (من الراسخين فى العدد والهندسة) وابو مسلم بن خلدون (كان متصرفا فى الفلسفة والهندسة والنجوم والطب) وتلميذه ابن برغوث (اختصاصي فى العلوم الرياضية) وتلميذه ابو الحسن مختار الرهيني (كان بصيرا بالهندسة والنجوم) وعبد الله بن احمد السرقسطي (ناقد فى الهندسة والعدد) ومحمد بن الليث (بارع فى العدد والهندسة) وابو حي القرطبي

---

45) ورد فى الجزء الاول من سلسلة « مدن المغرب وقبائله » المتعلق بالرباط ونواحيته (ص 32 و 225) ان « المدرسة البوعنانية » المنسوبة الى ابي عنان المريني بسلا كانت « مدرسة للطب » ونسب ذلك الى « الاستقصا » الذي لم يشر اليه عند تعرضه للمدرسة (ج 2 ص 151) .

46) الطب القديم بالمغرب ــ رينو ــ ص 47 .

47) توفى بالفيوم عام 641 هـ (الاعلام للمراكشي ج 1 ص 351) .

48) توفى عام 646 (الاعلام ج 3 ص 145) .

49) (جذوة الاقتباس ص 73) .

50) كوتيي Gautier فى كتابه « عادات المسلمين واعرافهم » ص 238 .

51) تاريخ الطب العربي ــ لوكلير ج 1 ص 320 .

52) « حاضر العالم الاسلامي » (ج 1 ص 151)

(بصير بالهندسة ، رحل الى مصر عام 442 هـ) وأبو الوفشي الطليطلي (الهندسة) (النفح ج 2 ص 874)

ومن العلماء الذين برزوا فى الهندسة والرياضيات بالمغرب الاقصى فى مختلف العصور : ابو بكر بن الصايغ المعروف بابن باجة Avempace له تعاليق فى الهندسة (53) .

والحاج بميش الذي صنع لعبد المؤمن ابن على مقصورة من الخشب لها ستة اضلاع تسع اكثر من الف رجل وتد وضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه وتنخفض لدخوله (54) .

والمهندس عبيد الله بن يونس الاندلسي الذي استخرج المياه التي تسقى بها بساتين مراكش بصنعة هندسية (55) .

وابو جعفر بن الحسن بن احمد بن حسان القضاعي الذي كان عالما بالهندسة وسائر الثعاليم(56)

وعبد الله بن حجاج المعروف بابن الياسمين الفاسي وهو بربري توفى بمراكش عام 600 أو أوائل 601 هـ وتوجد نسخ من ارجوزته فى الجبر والمقابلة بخزائن باريز وبرلين واكسفورد والاسكوريال والقاهرة (57) .

وابو عمران موسى بن حسن بن أبي شامة من اهل المعرفة بالبناء والهندسة وهو صانع « البيلة » و « الخسة » بصحن القرويين عام 599 هـ (58) .

وفى عهد المرينيين ظهر كثير من المهندسين ، ففي عام 674 هـ خرج يعقوب المريني الى ضفة وادي فاس « ومعه أهل المعرفة بالهندسة والبناء » فوقف على المدينة البيضاء (فاس الجديد) وشرع فى حفر اساسها (59) .

ومن هؤلاء العلماء :

محمد بن عبد الله المعروف بابن حجلة شيخ ابن البناء فى الحساب (60) .

ويوسف بن أحمد بن حكم التجيبي قاضي الجماعة بفاس اخذ عنه ابن البنا الحساب والتعاليم (61) .

ومحمد بن علي المعروف بالشريف أستاذ ابن البنا المراكشي الذي كان يذاكره مسائل من كتاب الاركان لاقليدس (62) .

---

53) توفى بفاس (« عيون الانباء فى طبقات الاطباء » لابن ابى اصيبعة ص 63) وكانت وفاته عام 533 هـ (الاعلام للعباس بن ابراهيم المراكشي ج 8 ص 6) .

54) فاذا قرب وقت الرواح الى الجامع يوم الجمعة دارت الحركات بعد رفع البسط عن موضع المقصورة فتطلع الاضلاع فى زمان واحد ولا يفوت بعضها بعضا بدقيقة ، وكان باب المنبر مسدودا فاذا قام الخطيب ليطلع عليه انفتح الباب وخرج المنبر فى دفعة واحدة بحركة واحدة لا يسمع لها حس ولا يرى ، وذكر المقري فى النفح أن آثار هذه المقصورة كانت باقية عام 1010 هـ .

55) (نزهة المشتاق للادريسي ص 67 من الجزء المطبوع حول افريقيا والاندلس) .

56) انتقل الى فاس حيث توفي فى حدود ستمائة (الجذوة لابن القاضي ص 72) .

57) ومن شراح الارجوزة حسب بروكلمان ابن الهائم المصدري المتوفى سنة 815 هـ (وهو مخطوط باكسفورد والقاهرة) والقلصادي وهو « تحفة الناسمين فى شرح ارجوزة ابن الياسمين » (مخطوط بخزانة مكتب الهند بلندن والخزانة العامة بالرباط) وسبط المارديني المتوفى سنة 900 ويسمى « اللمعة المارديئية فى شرح الياسمينية » (مخطوط ببرلين والقاهرة واسطنبول) وله ارجوزة فى اعمال الجذور توجد بخزانة الاسكوريال (راجع بحث الاستاذ محمد الفاسي مجلة رسالة المغرب 1942 (السنة الاولى — عدد 1) وممن شرح الارجوزة سعيد المقباني التلمساني الملقب برئيس العقلاء (نيل الابتهاج ص 106) .

58) (الجذوة بين 37 و 57) .

59) (السلوة ج 3 ص 145) .

60) الجذوة ص 76) .

61) الجذوة ص 346) .

62) توفي عام 682 هـ (الاعلام ج 3 ص 192) .

وابو العباس بن البنا العددي المراكشي لـــه «التلخيص» فى الحساب ومقدمة فى اقليدس واختصار فى الفلاحـــة (63) .

وابو جعفر بن صفوان الامام فى الحساب وهـــو تلميذ ابن البنا (64) .

وعلي اليفرني المكناسي الشهير بالطنجي امام فى الفرائض والحساب فى وقته توفى عام 734 هـ (65)

وعبد الله بن محمد بن احمد التلمساني ولد سنة 748 قرا الهندسة بكتاب اقليدس على والده بفاس(66)

وعلي بن احمد التلمساني موقت القرويين أيام ابي عنان المريني صنع « المنجانة » المقابلة للمدرسة العنانية عام 758 هـ (67) .

وعبد الرحمن اللجائي تلميذ ابن البنا فى العلوم التعليمية توفي عام 773 حسب تلميذه ابن قنفذ (68)

واحمد الاوسي المراكشي المعروف بابن الشماع امام فى الحساب عارف بالمنطق والهندسة (من أهل القرن الثامن) (69) .

ومحمد الشريف التلمساني من علماء الحساب والهندسة والهيئة ، كان لسان الدين ابن الخطيب اذا الف تاليفا بعثه اليه وطلب منه أن يكتب عليه بخطه(70)

وجمال الدين الماريني خليل بن يوسف المهندس المتوفى عام 872 هـ (71) .

ومحمد التوري حافظ فاس الحيسوبي الطبيب المتوفى عام 872 هـ (72) .

واسير المؤمنين فى الفرائض والحساب ابراهيـــم المسمودي ، توفى بفاس عام 912 او 913 هـ (73) .

واحمد الغزاني الفاسي كان استاذا فرضيـــا حيسوبيا له معرفة بالفلك توفي عام 920 هـ (74) .

ومحمد بن قاسم بن توزت التلمساني « استخدم عقله فى حل مشاكل الهندسة » وهو من مواليد نهاية القرن التاسع الهجري (75) .

---

63) توفى عام 221 هـ على قول ابن قنفذ (نيل الابتهاج ص 42) كان يقصد شيخه عبد الرحمـــان الهزميري فيما اشكل عليه من مسائل الهندسة (137) وله ايضا جزء فى « المساحات » (الجـــذوة ص 77) .
ذكر ابن القاضي فى « درة الحجال » (القسم الاول ص 5) ان له كتابا فى الجبر والمقابلة سماه « الاصول » وكذلك « رفع الحجاب عن تلخيص اعمال الحساب » زيادة على «تلخيص أعمال الحساب» وذكر عباس بن ابراهيم فى الاعلام ان كتاب « الجبر والمقابلة» موجود فى المكتبة الخديوية (ج 1 ص 379) وممن شرح تلخيص ابن البناء احمد بن رجب ابن طنبغا القاهري المتوفى عام 850 هـ المعروف بابن المجدي وممن اختصره وسماه ««بالحاوي ابو شهاب القرافي المعروف بابن الهائـم المتوفى عام 815 ونظمه محمد بن غازي المكناسي وابن القاضي صاحب « الجذوة » (ص 384) وممن شرح التلخيص ابو العباس بن قنفذ فى كتاب سماه « حط النقاب عن وجوه الحساب » ولابن قنفذ هـــذا « بغية الفارض من الحساب والفرائـــض » (الاعلام ج 2 ص 17) .

64) (الاعلام ج 2 ص 2) .

65) (الدرة ص 441) وهو بن عبد الرحمان بن غيم (نيل الابتهاج لابن بابا السوداني ص 192) .

66) (نيل الابتهاج ص 127) .

67) (جذوة الاقتباس لابن القاضي ص 31) .

68) السلوة ج 1 ص 304 .

69) الاعلام ج 2 ص 10 .

70) نيل الابتهاج ص 258 و 264 .

71) له « غاية الانتفاع بالبخش الذي فى طرف قوس الانتفاع » طبع حجر ، فاس .

72) السلوة ج 2 ص 116 .

73) درة الحجال (ص 107) (وسلوة الانفاس (ج 2 ص 4) تلميذه ابراهيم الزواوي فقيه كنو من السودان (الدرة ص 111)

74) درة الحجال ص 91 .

75) نيل الابتهاج ص 340 .

ومحمد بن هلال « امام التعاليم فى سبتة وشارح المجسطي فى الهيئة » مات عام 949 هـ (76) .

ومحمد بن يوسف المعروف بابن مشون من اساتذة المرية رحل الى سبتة ونظم رجزا فى علم الجبر والمقابلة ، توفى عام 989 (77) .

اما فى عصر السعديين فلم ينبغ من الاطباء والرياضيين والجغرافيين وغيرهم من العلماء سوى عدد محدود ، منهم الطبيب بن عزوز المراكشي صاحب ذهاب الكسوف (78) وعبد الرحمن سقين الفاسي المحدث الاديب الذي كان يدرس الفية ابن سينا (79) . وأبو القاسم الوزير الغساني صاحب شرح حميات ابن عزرون » و « وحديقة الازهار فى شرح ماهية العشب والعقار » (80) .

وقد نشر الدكتور رينو فى نشرة معهد الدروس المغربية العليا (81) دراسة حول «حديقة الازهار» ذكر فيها أن هذا الكتاب « يمتاز بمنهاجه الواضح جدا فى الوصف النباتي الذي يتسم غالبا بطابع من الاصالة والطرافة ، وقلما يخلو الكتاب من الاشارة الى منابت الاعشاب التي توجد بالقرب من فاس وبذلك يزودنا بمعلومات ثمينة حول معظم المواد الصيدلية بفاس ، فهي اذن محاولة مفيدة لترتيب ثلاثي يدخل عنصرا جديدا فى وصف أعشاب المدرسة الصيدلية الشرقية ».

ومن أطباء هذا العصر وعلمائه :

عبد الوهاب الزقاق الذي كانت له مشاركة فى الادب والاصلين والطب والتفسير والحديث والنحو وولي القضاء بفاس (توفى عام 961 هـ) .

وطبيب المنصور ابو عبد الله محمد الطيب (82) .

ومحمد الاندلسي الذي كان مولعا بالكيمياء والرياضيات والطب والهيئة والطبيعة (83) .

وداود بن عبد الله البغدادي ثم التلمساني الطبيب الماهر (84) .

واحمد بن عبد الحميد المعروف بالمريد المراكشي الذي كان أماما فى جميع الفنون حكيما ماهرا فى الطب (85) .

وعبد الرحمن الفاسي الذي انفرد بتحقيق تعاليم وتحدث فى كتابه « الاقنوم فى مبادىء العلوم » عن الطب وعمليات التشريح وفنون العلاج وعن البيطرة وعلم الزردقة اي طب الحيوان وعن الصيدلة وهو علم الاقراباذين وآخر هؤلاء الاطباء أحمد بن محمد بن حمدون بن الحاج الذي ساقه رينو كانموذج اخير للطبيب العالم ، له كتاب « الدرر الطبية » فى الطب والطبائع والهواء والاغذية والأشربة والامراض وطرق علاجها والادوية مع تقسيم فني جديد لهذه الأدوية .

والسلطان احمد المنصور الذهبي له قدم راسخ فى المنطق والحساب والهيئة والهندسة (86) .

واحمد بن قاسم معيوب كان له معرفة بالتعاليم من حساب وهيئة (87) .

واحمد بن القاضي المكناسي المؤرخ له (غنية الرائض فى طبقات أهل الحساب والفرائض) (مفقودة) و « المدخل » فى الهندسة ، ونظم تلخيص ابن البنا (نشر المثاني ج 1 ص 129) وظهرت فى

---

76) الاعلام ج 3 ص 263 .
77) درة الحجال ص 176 .
78) اقتبس فصل طب العيون من الكحال المشرقي علي بن عيسى (الطب القديم بالمغرب ص 75) .
79) توفى عام 956 (نيل الابتهاج ص 153) .
80) الفه للسلطان المنصور السعدي عام 994 (نشر المثاني ج 2 ص 125) .
81) ج 18 ص 195 .
82) « نزهة الحادي » طبعة هوداس ص 146 .
83) قتل عام 980 هـ (الأعلام ج 4 ص 318) .
84) لقيه ابن القاضي فى مصر عام 986 (درة الحجال ص 143) .
85) توفي عام 1048 (الاعلام لابن ابراهيم ج 2 ص114) .
86) نشر المثاني ج 1 ص 77 . فهم كتاب اقليدس من غير شيخ لعزة وجوده بالمغرب فكان يفك شكلا فى كل يوم (درة الحجال ص 51) وتضلع ايضا فى الجبر والمقابلة (السلوة ج 3 ص 226) .
87) توفي بمراكش عام 1022 هـ (الأعلام ج 2 ص 82) .

وتقه الحرف المهمة التي لم تكن بالمغرب منها الحساب والهندسة والمساحات (88) .

والرحالة محمد بن القاسم ابن القاضي أوحد عصره في علم الحساب والتنجيم والجداول ، له « البرق الوامض في الحساب والفرائض » (89) .

واحمد القلصادي موقت القرويين كان يدرس كتاب القلصادي (90) .

ويعقوب البستاني امام الفرائض والحساب (91)

واحمد التقليتي العارف بالحساب والتعديل والمساحات وبعض مبادىء الهندسة ، وهو شيخ « جماعة الفنون » المذكورة بمراكش ، وهو معاصر لمؤلف درة الحجال (92) .

ومحمد بن سعيد السوسي المرغيثي صاحب المقنع في التوقيت (93) .

ومحمد ادراق السوسي .

ومحمد بن محمد بن سليمان الفاسي الروداني ، كان يتقن فنون الرياضة واقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي ويعرف انواع الحساب والمقابلة والارتماطيقي والمساحة معرفة لا يشاركه فيها غيره (94) .

وقد تنافس الناس في اقتناء الآلة التي اخترعها ، وكان يبيعها بثمن غال وقد الف رسالة في وصفها وهي منشورة في الاعلام (ص 350) والآلة عبارة عن كرة مستديرة مسطرة دوائر ورسوما ركبت عليها أخرى مجوفة منقسمة نصفين فيها تخاريم وتجاويف (95) .

غير أن هذه « **العلوم فقدت منذ أوائل القرن الحادي عشر سمتها العلمية فأمست مجرد (حرف) تقنية خصت اختصاصيين في الحساب والهندسة والمساحات** » (96) ومما يدل على عقم الصيدلة ما لاحظه الحسن الوزان من أن العطاريين بفاس لم يكونوا قادرين على ترتيب الاشربة والأدهان طبقا لوصفات الأطباء فكانوا يجتمعون كلهم لاعدادها ثم يرسلونها الى دكاكينهم لتوزيعها وهي ظاهرة ان كانت تنم عن انخفاض في المستوى العلمي فانها تدل مع ذلك على أمانة واخلاص للمهنة . **وبالرغم من تقلص شبكة العلوم فان الروح العلمية ظلت تذكي الخاصة من العلماء الذين كانوا يشعرون بالفروق الدقيقة في الاتجاهات العلمية** ، ويتجلى ذلك في تقسيمات ابي علي اليوسي للعلوم : الى فلسفة ومية ، وتحديده لماهية علم الفلسفة الذي يهدف الى « تكميل النفس الناطقة والاطلاع على حقائق الأشياء بقدر الطاقة » وانه — كما يقول — اما نظري واما عملي، والأول اما مجرد عن المادة مطلقا وهو العلم الالهي ، أو في الذهن فقط وهو العلم الرياضي، أو مقيد بالمادة وهو العلم الطبيعي. والثاني اما متعلق بنفس الشخص من حيث هي ، وسمى سياسة النفس وعلم الاخلاق ، او بها وبما يحتاج اليه من شهوات تواها وهو علم تدبير المنزل ، او بما يعم وهو الملكية والسلطنة » ..

وقد اصبحت التعاليم تنحصر على عهد العلويين في عمليات تطبيقية منها ما صنفه :

محمد المسناوي مرينو الاندلسي المنجم الحيسوبي الذي وضع مؤلفات في « تقدير قرض النفقات » بعمل

---

88) الاعلام للمراكشي ج 1 ص 46 . (توفي عام1025 هـ) .
89) توفي قتيلا بفاس عام 1040 هـ (السلوة ج 3 ص 287) .
90) توفي عام 1063 (نشر المثاني للقادري ص 207) اما علي بن محمد القلصادي(810 — 891هـ) فاصله من بسطة ، واستوطن غرناطة ومات ببلجة بتونس له « شرح الارجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة» و « قانون الحساب » و « كشف الأسرار في الجبر » (الاعلام للزركلي ج 5 ص 163) وله ايضا شرحان على تلخيص ابن البنا والحوفي والغنية في الفرائض ، أخذ بمصر عن ابن حجر كما في رحلته (النفح ج 2 ص 684). وقد طبع كتابه « كشف الاسرار عن علم حروف الغبار » مرارا بحجر فاس.
91) كان يقرؤها في الهواء فاذا اراد عاملها يصورها في اللوح ضربه بالقضيب على يده (الجذوة ص 350) . وهذا يدل على استعمال السبورة في شرح العلوم بالمغرب في ذلك العصر .
92) الدرة 92 .
93) توفي عام 1809 م (نشر المثاني ج 2 ص 37)
94) توفي عام 1094 هـ (الاعلام ج 4 ص 334 نقلا من خلاصة الاثر) .
95) نشر المثاني ص 87 .
96) الاعلام للمراكشي ج 1 ص 46 .

الرموز والأرقام مرتبا على أطوار حياة المنفق عليهم(97)

والأستاذ المعطي مرينو له مؤلفات في التوثيق ، منها كتاب في تعديل الكواكب السبعة سماه « كنز الأسرار » ، وآخر في أبعاد النيرات ورصده ، وابتكارات أخرى في علم « المزاول الرخامية » وغير ذلك (98) .

واحمد بن الطاهر المراكشي العالم بالأحكام النجومية والازياج والهندسة والجدول (99) .

واحمد حدو الهنتيفي الأستاذ في الحساب والرصد والأسماء (100) .

ومحمد متجنوش أستاذ انفرد في علم الحساب والتنجيم (101) .

وعبد الرحمن لبريس المنطقي الفلكي الحيسوبي (102) .

ومحمد بن الرئيس بن الحسن على التركي الضليع في الهندسة والرياضة . ومن أوضاعه في هذه مثال سماه « الشكل الكوري » شامل لسائر الزوايا والخطوط واشكال الهندسة مما تشمله أصول اقليدس وتهذيب الطوسي (103) .

واحمد بن عبد الله التناني المعروف بالصويري ، كان عارفا بالحساب والتنجيم وعلم الأحكام الفلكية وعلم الهيئة ، له مؤلفات وتعاليق في الحساب والجبر والمقابلة وفي اللوغاريتم ، وحل اشكالا هندسية طبقها في الرياضيات ، وكان عيئه السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان « رئيس المهندسين » وعينه مولاي الحسن « رئيس قواد الطبجية » (أي المدفعية في العامية المغربية) وخليفة وزير الحرب (104)

وهنالك رياضيون ومهندسون آخرون تتجلى قيمتهم العلمية فيما صنفوه من كتب وأبحاث تكفلت المطبعة الحجرية في فاس بطبعها عندما انشاها السلطان محمد الرابع منذ أزيد من قرن (105) .

وقد اندرس **التعليم الرسمي للطب والعلوم بجامعة القرويين** رغم ما أشار اليه دلفان (106) من استمرار اعتناء الطلبة آنذاك « بالكامل » للزراري « والقانون » لابن سينا « وزبدة الطب » للجرجاني « والتذكرة » للسويدي « وتذكرة الأنطاكي » وكليات ابن رشد ومفردات ابن البيطار وكشف الرموز للجزائري ومع ذلك **ظل الأطباء يجرون بمهارة بعض العمليات التشريحية الصغرى** (107) .

وقد بدأ المغرب منذ العهد السعدي يستدعي « خبراء فنيين » معدودين كالطبيب الفرنسي كيوم بيرار (Guillaume Berard) الذي كانت له ثقافة متواضعة (108) . وهوبير (Hubert) أستاذ العربية بجامعة باريس (109) والطبيب الانجليزي لبريير والدكتور براون الذي منحه السلطان مولاي عبد الرحمن رخصة لممارسة مهنة الطب بالمغرب ، وذلك علاوة على الأطباء اليهود الذين كانت تستقدمهم الجالية الاسرائيلية ، أو من كان يولد في الاجزاء المحتلة من المغرب أمثال الطبيب النباتي الاسباني السبتي كريسطوف دا كوستا . وشعر المغرب

---

97) توفي عام 1207 (ج 1 ص 136 ــ الاغتباط) لابي جندار .
98) توفي عام 1223 (ج 2 ص 116 ــ الاغتباط)
99) مات عام 1250 هـ (الأعلام ج 7 ص 214) .
100) وكان يحسن نحوا من ثمانية عشر علما توفي عام 1285 هـ (السلوة ج 3 ص 82) .
101 توفي عام 1290 ــ وعمره 31 سنة (ج 1 ص212) .
102) سافر الى الحج 1307 وهو من مواليد القرن الثالث عشر (ج 2 ص 134 ــ الاغتباط) .
103) الاغتباط لابي جندار (ج 2 ص 192)
104) الأعلام (ج 2 ص 267) .
105) راجع مطبوعات المغرب للاستاذ ادريس الادريسي وهي مخطوطة)
106) في كتابه « فاس وجامعتها » طبعة 1889 Delphin
107) رينو ــ ص 128 (راجع في كتابنا « الطب والأطباء بالمغرب » نماذج لمهارة بعض المحترفين في هذا المجال ص 72 ــ 80)
108) رينو ــ « نشرة معهد الدروس العليا » ج 18 ص 206 .
109) كودار ــ تاريخ المغرب ص 399 و ص 490« المغرب الحديث مملكة تنهار » كامبو 1866 ص 16.

بتفاؤل الاختصاصيين فاسس مدرسة للفنون بفاس الجديد « ومدرسة مركزية للمدفعية » بالجديدة (110) تخرجت منها فئات من الطلبة توجهت لاستكمال دراستها فى مصر وكذلك فى انجلترا واسبانيا وفرنسا وايطاليا والمانيا وامريكا . وقد تابعت بعثة مكونة من اثني عشر طالبا دراستها فى جامعة مونبيليي (Montpellier) بفرنسا خلال سنوات (1885 ــ 1888) درست فيها اللغة الفرنسية والحساب والهندسة التطبيقية والهيئة والرياضيات والكيمياء والتلغراف والتليفون وعلم البصريات والكهرباء والضغط الجوي وترصيف الطرق والسكك الحديدية ومسح الاراضي وفن تحرير التصميمات الهندسية بالاضافة الى التمارين العسكرية وبناء الخنادق واجهزة الدفاع وصنع آلات الحصار ، وحذق هؤلاء الطلبة فاصبحوا يحررون المذكرات ويتاهبون للاضطلاع برسالة تقنية هامة فى المغرب الحديث ، وتم الاتفاق بين المغرب وفرنسا على توجيه فوج جديد لاستكمال الاطر المغربية تدريجيا فى مدينة فرساي (Versailles) ولكن شيئا من ذلك لم يتم ، حيث توفى الحسن الاول بعد سنوات ودخل المغرب فى خضم من الدسائس الدولية عرقلت توثبه للانبعاث ، **ووجه الحسن الاول كذلك الى اوربا طلبة لدرس الطب** تابع ستة منهم تمارين بالمستشفى الاسباني بطنجة فى ميدان الفحص والتشميد والتشريح وعين ثلاثة من خريجيها اطباء فى الجيش بكل من طنجة ومراكش ، اما مصر فانه لم يتوجه اليها عدا الأستاذ عبد السلام العلمي لدراسة الطب بالقاهرة ، وكانها كانت النواة الأولى اراد السلطان الحسن الاول ان يستكنه بها **قيمة الدراسة العلمية فى الشرق العربي** غير ان هذه البعثة لم تجدد كمثيلاتها فى اوربا بالرغم من ارتفاع مستوى التعليم فى مصر آنذاك ، والواقع ان المغرب افاد كثيرا من الروح الجديدة التي تقمصها الشريف العلمي الذي ما لبث ان صنف بعد عودته كتابا سماه « ضياء النبراس » فى حل مفردات الانطاكي بلغة فاس (111) ذكر فيه شيوخه فى « الاسبطالية الكبرى » بالقصر العيني الذي اسس عام 1827 م بأمر من الخديوي محمد ، ويعتبر هذا الكتاب فى نظري نقطة تحول فى تاريخ الطب المغربي حيث يحاول المؤلف التوفيق بين الشهور والبروج والأدوية وانواع النباتات المتداولة فى الشرق والغرب وفى المغرب مصححا فى بعض الأحيان اغلاط سلفه ومنظرا بين المصادر المطبوعة ودروسه فى مصر وتقاليد اطباء المغرب وصيادلته وما يسميه بالطب الجديد والكيمياء الجديدة باوربا وامريكا ، ويأتي احيانا باسماء الدواء بالعربية ومختلف لهجاتها ثم باللاتينية والافرنجية مع تحليل ذلك بالمصطلحات الحديثة العامة كالتصعيد والتقطير ، وقد نقل من مصر نماذج عديدة من النباتات والعقاقير والادوية ، ويحكى عن تجارب شيوخه فى قصر العيني واسهامه الشخصي فى هذه التجارب وقد ذكر انه شاهد زرافة مصبرة بالقصر العيني خلال قراءته على الحيوانات (الضياء ص 57) وشارك فى تحضيرات بالمعمل الكيماوي بمصر (ص72)

وقد نقل عن نحو الخمسين مؤلفا منهم ابن الخطيب (ص 80) والوزير الغساني صاحب الحديقة وعبد الرحمن الفاسي وعبد القادر ابن شقرون والطبيب الصيدلي العجلاني والطبيب المصري احمد بن حسين الرشدي الذي عاش اول القرن الماضي وابن الحشاء صاحب تفسير الالفاظ الطبية واللغوية الواقعة فى الكتاب المنصوري (108) . وقد اسس الطبيب مولاي عبد السلام العلمي **مصحة صغيرة بفاس** عمل بها حتى توفي عام 1323 هـ ، **ورسالة العلمي هذه مشحونة بالاصطلاحات الحديثة ووصف العمليات العلمية التي كانت تجري بالقصر العيني وانواع العلوم التي كانت تدرس به مثل علم التشريح الهيكلي والعضلي والمفصلي والتشريح العصبي والتاريخ الطبيعي والكيمياء الطبية والأقرباذين** (الصيدلة) وطب الرمد والامراض الجلدية والداء الزهري وعلم الحيوانات المصبرة واحجار المعادن وامراض النساء والاطفال (فى اسبطالية امراض النساء بمصر) .

ويعطينا كتاب « ضياء النبراس » صورة عن **الاختلاف الملحوظ فى المصطلحات العلمية بين الشرق العربي والمغرب الاقصى الذي عرف عشرات الاعشاب** والنباتات باللسان البربري انفرد بها المغرب . ويتجلى من الصراع السياسي والعسكري الذي بدأ المغرب يخوضه منذ بداية هذا القرن ان التعليم العربي اصبح يسير رويدا نحو التقلص الى أن انحصر فى جامعة القرويين وروافدها المحدودة التي بعد عهدها بالعلوم . وازدادت اللغة العربية ابان الحماية تقلصا عندما اتخذ الاستعمار اللغة الفرنسية اداة وحيدة للتلقين فى المدارس وقام « التعليم الحر » المعرب برد فعل عنيف

110) الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 367 .
111) طبع بالمطبعة الحجرية بفاس عام 1318 .

لمعرب تدريس العلوم وخاصة بشمال المغرب حيث توجهت افواج من الطلبة لاستكمال دروسهم فى الشرق، وكانت الحماية الاسبانية فى هذه المنطقة اقل مضايقة للمواطنين فتكاثر عدد المتخرجين من الشرق العربي وشجع الباب المفتوح الطلبة على متابعة دروسهم الثانوية فى المعاهد المصرية على عكس ما ابتدعه الفرنسيون فى منطقة نفوذهم بالجنوب من اساليب المكر والدسائس للقضاء على لغة الضاد . ومع ذلك فقد **واصل « التعليم الحر المعرب » رسالته الخالدة محافظا على كيان اللغة بالرغم من « تفرنس » اغلبية المثقفين وازدواجية ثقافة الاقلية الضئيلة من هذه النخبة التي تزعمت بروحها العربية الاسلامية حركة الثورة ضد الاستعمار** . وكان التعليم المعرب يستورد خفية من الشرق — وخاصة من مصر — جملة من المصنفات معظمها فى الآداب واللغة والنحو وظل الحاجز كثيفا بين لغة عربية علمية تتطور فى الشرق وتواكب النهضة الجديدة وبين عربية تص جناحها فى المغرب الاقصى لا كلغة علمية بل كمجرد لغة ، وقد قامت الصحافة العربية بدور هام فى تجديد الصلة بين الشرق والمغرب متتبعة البحوث الجديدة ومصطلحاتها المولدة فى الاقتصاد والسياسة والقانون وتاريخ المذاهب الشيوعية والاشتراكية والنزعات الادبية والفنية المستطرقة مقتبسة فى ذلك ما راج فى الشرق العربي من تعابير ومفردات وطفق المغرب بعد استقلاله فى عام 1956 يتطور ببطء نظرا لتراكم المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فرسم التخطيطات فى شتى الميادين الحضارية وضاعف حصص اللغة العربية فاكتمل الآن تعريب السلك الابتدائي وان كانت قلة الاطر المغربية الصالحة تهدد بتحجر هذه الحركة، وظل الثانوي فى طوريه يلقن العلوم بالفرنسية عدا التعليمين الحر والاصلى اي الاسلامي الذي هو من روافد جامعة القرويين بكلياتها الجديدة (الشريعة بفاس ، واصول الدين بتطوان ، واللغة العربية بمراكش) كما ظل اقبال المغاربة ملحوظا فى مدارس البعثة الفرنسية التي بدات منذ يناير من سنة (1969) تلقن العربية لتلاميذها . وقد تزايدت حصة اللغة العربية فى معظم الاسلاك بينما احدثت اقسام معربة فى كليتي الآداب والحقوق والمدرسة العليا للاساتذة مع بقاء الكليات التقنية ككلية العلوم ومدرسة المهندسين ومعاهد الفلاحة والاكاديمية العسكرية فى معزل عن اي تعريب ، ولذلك يلاحظ ان الأطر ما زالت تستعمل الفرنسية تبعا للغة الخبراء الفنيين الذين يقل عددهم نسبيا بفضل حركة المغربة (112) **على ان هذه** المغربة لا تواكب حركة التعريب فقد ظلت لغة معظم الاختصاصيين المغاربة اجنبية فى تحرير النصوص والخطابات والمناشير وكذلك التخاطب فى المحافل والمؤتمرات باستثناء وزارة العدل والمرافق التابعة لها حيث شمل التعريب جميع المحاكم) ولعل المشكل واحد فى مجموع اقطار المغرب العربي — عدا ليبيا — نظرا لما نتج عن تعميم التعليم (أزيد من مليون طفل اليوم بالمغرب بدلا من ربع مليون قبل الاستقلال) من هلهلة فى تكوين الاطر وضعف فى المستوى والظاهرة الغريبة هي أن جامعة القرويين نفسها قد تضامل طلبتها لكون ازدواجية اللغة ما زالت متياسا لتقييم الاهليات فى مختلف مجالات الحياة ، ولم تكد تمر اربع سنوات على الاستقلال حتى **شعر جلالة المرحوم محمد الخامس بفعل الرواسب التي تباعد بين جناحي العروبة خاصة فى حقل المصطلح « العلمي والتقني » فدعا عام 1960 الى عقد « مؤتمر للتعريب » انبثق عنه فى اطار جامعة الدول العربية المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربي** ، ذلك المكتب الذي يستهدف الاستفادة من تجربة الجناح الشرقي لدعم حركة التعريب فى الجناح الغربي ، وقد نشر هذا المكتب عدة معاجم فى العلوم بلغات مختلفة ، كما اصدر « اللسان العربي » وهي مجلة دورية للابحاث اللغوية ونشاط الترجمة والتعريب فى العالم العربي ، واسس مكتبة للعلوم زاخرة باحدث ما اصدره الشرق من مصنفات فى مختلف القطاعات التقنية ، وقد خطط لنفسه تصميما عشاريا غايته الأساسية استكمال الاداة العلمية والتقنية فى امد محدود بتوحيد المصطلحات واستقرائها تعزيزا لصراع ثقافي تخوضه لغة الضاد كلغة عمل فى كثير من المحافل الدولية ، وقد اندرج هذا العمل التنسيقي ضمن مشاريع تسهم فيها المجامع والمجالس العليا والاتحاد العلمي العربي والجامعات والهيآت الثقافية فى مختلف العواصم العربية ومآت الاختصاصيين الذين يراسلون المكتب الدائم من جميع انحاء العالم العربي .

وقد بدا هذا الكفاح يؤتي اكله باقناع النخب المغربية — القليلة الصلة بالثقافة العربية — **بفعالية لغتنا القومية فى مجال الحضارة والعلم كاداة طيعة للتخاطب فى الحقل الدولي** ، ولكن هذا الاقتناع لن يتم

112) ما عدا قسما يسيرا تعمل وزارة الوظيفة العمومية على تعريبه بدروس خاصة تنظمها للموظفين .

الا اذا استقصينا تدريجيا المصطلحات التقنية التـــي اصبحت حتى عند دول كبرى كفرنسا مثار غزو ثقافي بسبب ما تزج به مخابر الكشوف فى الأسواق الدولية من مصطلحات تقنية يبلغ عددها خمسين مصطلحا فى كل يوم

هذا وان مواكبة حضارة العصر الحديث لن تكتمل بالنسبة الينا معاشر العرب الا اذا توازت فيها ذاتيتنا العربية مع انسانيتنا الحضارية ، والمقوم الجوهري لهذه الذاتية هو اللغة العربية التي ظلت ــ كما يقول ماسنيون Massignon اداة خالصة لنقل بدائع الفكر فى الحقل الدولي وعنصرا جوهريا للســـلام فى مستقبل الأمم والشعوب » .

تدريس العربية كلغة حية في الولايات المتحدة الأمريكية

الدكتور سامي عياد - الدكتور نجيب جرجس
الولايات المتحدة

بالرغم من ان دخول اللغة العربية في برامج عدد كبير من الجامعات الامريكية ظاهرة حديثة ، فان الاهتمام بها نما نموا مطردا خلال السنوات العشر الاخيرة . وهناك من الادلة ما يفيد بان الدراسات العربية اصبحت ميدانا علميا هاما وان عدد الجامعات الامريكية التي تقدم في برامجها اللغة العربية وحضارتها العريقة قد بلغ اكثر من ثلاثين جامعة .

ولكن هذا الاهتمام وهذا التوسع اثار مشاكل تربوية واصبح السؤال الذي يردده كل استاذ هو كيف ندرس اللغة العربية ومن اين نبدأ .

فهناك الفصحى والعامية . اما العامية فنحن نعلم ان هناك لهجات عربية عديدة فمنها اللهجة اللبنانية والمصرية والتونسية والمغربية وهكذا .. وتزداد الصورة تعقيدا بان كلا من هذه اللهجات لها لهجات محلية . ففي مصر نرى اللهجة القاهرية واللهجة الصعيدية . ثم تزداد المشكلة تعقيدا بان الكتابة العربية نفسها — بدون شكل — تسمح بنطق كلمة واحدة في عدة أوضاع بمعانيها المختلفة . فمثلا (ك ت ب) يمكن نطقها باشكال مختلفة .

اقدم عدد من اساتذة علم اللغويات والتربية الحديثة على عدد من الحلول . فمنهم من يعتقد ان الطالب الامريكي يجب ان يتعلم الفصحى فقط قراءة وكتابة . ومنهم من يدعي ان العامية هي التي يجب ان ندرسها لان الهدف من تعليم اللغة هو الاتصال والتفاهم مع الناس في احداث كل يوم العادية . وهناك من يومن بتعليم الفصحى اولا ثم بعد ذلك العامية عن طريق احدى لهجاتها .

وهذه الحلول المختلفة تبدو غير مرضية بتاتا في نظر آخرين يومنون بانه اذا كان الهدف من تعليم العامية هو تمكن الطالب من محادثة الرجل العادي العربي فهو يضيع وقته سدى لان بتعليمه العامية سيحدد له لهجة معينة كما انه وان لم يستعملها في مكانها فهو لن يستفيد منها . فمثلا اذا تعلم لهجة مراكش فقط وذهب بعد ذلك الى بنغازي فلن يمكنه التفاهم الكامل معها . اما اذا تعلم الطالب الاجنبي اللغة العربية المكتوبة او بالاحرى الفصحى بدون التعرض الى اللهجات فهذا يعده البعض اسلوبا غير واقعي في تعليم لغة حية كما انه لا يتفق ونظريات علم اللغويات الذي يدور حول محور هام وهو ان الكلام ياتي اولا وان الكتابة انما هي رمز لما ينطق به المتكلم. وعلى هذا يبدو ان الحل المثالي للمشكلة في نظر هؤلاء العلماء لابد ان **يكون عمليا** ويتفق مع **الواقع اللغوي العربي** وفي نفس الوقت مع **نظريات علم اللغويات الحديثة** . بمعنى هذا انه اذا واقتنا على ان نبدأ تدريس العربية للاجانب بلغة الحديث فلابد من البدء باللغة العامية . ولكن اية لهجة نختار ؟ والاجابة على هذا السؤال تتوقف الى حد كبير على الهدف من تعلم اللغة نفسها .

لناخذ تعلم الانجليزية كمثل لنا . فالانجليزية الامريكية مثلا التي يتعلمها الاجنبي هي لغة الشمال وليس الجنوب . وفى انجلترا ايضا يتعلم الاجنبي اللغة المعروفة Received English وقد يكون لاختيار هاتين اللغتين عدة اسباب . اولا : انها لغة مهذبة للحديث . وثانيا ان لها اهمية خاصة فى التطبيق والاستعمال العام . بمعنى آخر ان اللغة التي تدرس هي التي تمكن الطالب من تحقيق الاتصال والتفاهم الكامل مع اصحاب هذه اللغة بحيث يفهمهم وهم يفهمونه .

لنعد الآن الى العربية التي هي لغة ما يقرب من تسعين مليون عربي كما انها **لغة القرآن الكريم التي يعرفها ما يقرب من سبعمائة مليون مسلم فى العالم** . ونحن نعلم ايضا انه منذ ظهور القومية العربية فقد **ظهر فى الافق العربي يقظة ورغبة قوية فى تحقيق الوحدة الثقافية واللغوية** . شكرا للتبادل الثقافي ووسائل الاعلام المختلفة فى البلدان العربية . اما **الفروق اللهجوية فلم تعترض قط طريق الوحدة الثقافية** . وظهر خلال هذه العملية نوع جديد من لغة الحوار وهو ما يمكن ان نسميه **باللغة المهذبة** او لغة المتكلمين خصوصا تلك اللغة التي تتميز بها مراكز الثقافة الكبرى التي يفهما الجميع حتى الذين لا يتكلمونها . وهذا هو بالضبط السبب الاهم فى ان الطالب الاجنبي الذي يرغب فى تعلم اللغة العربية يجب ان يتجه الى احد هذه المراكز الكبرى حيث يمكنه ان يجد وسيلة للتفاهم تساعده ليس فقط على فهم جزء من العالم العربي بل جزء مهم من الحضارة العربية .

ولا شك ان هنالك مراكز هامة للثقافة العربية مثل القاهرة وبغداد ودمشق وبيروت وفاس . وكلنا نعلم ان القاهرة بالذات تتمتع بكثير من الامتيازات كما ان لهجتها « المهذبة » او لهجة المتعلمين فيها تعتبر مهمة جدا بالنسبة للطالب الامريكي الذي يبحث عن وسيلة تمكنه من التفاهم مع اكبر عدد من العرب فى بلادهم المختلفة . ولكن ليس معنى هذا ان اللهجة المهذبة القاهرية هي الوسيلة الوحيدة لهذا التفاهم بل اللهجة المهذبة الرباطية والبيروتية والبغدادية يمكنها ان تقوم بنفس العملية وتحقق نفس الاهداف .

واللهجة التي يفترضها اصحاب هذه الطريقة الحديثة هي التي يتحدث بها الشباب العربي المتعلم الذي حصل على قسط وافر من التعليم الجامعي . وهي ايضا التي يذاع بواسطتها بعض البرامج الاذاعية العربية فى كثير من المدن العربية الكبرى . والسبب فى اختيار هذه اللهجة هي انها مفهومة تماما فى جميع البلاد العربية . وشكرا لوسائل الاعلام الحديثة من تلفزة وراديو وافلام سينمائية التي قربت هذه اللهجة الى عدد كبير من الشعوب العربية . فهي لغة مقبولة للجميع وتتمتع بشهرتها المعروفة واحترامها .

فالذي يقترحه اصحاب هذه النظرية فى اول خطوة لتعليم العربية هو البدء باللهجة المهذبة .

وهنا يجب تحديد العلاقة بين ما نسميه « بالعامية » « والفصحى » . فاية لغة من لغات العالم لا تتكون من عنصرين فقط يمكن تحديدهما تحديدا واضحا . بل بالاحرى تتكون من « مستويات كثيرة » وكل مستوى يرتبط بمستوى ثقافي معين ووظيفة معينة . ولكي يكون استخدام العربية فعالا يجب على الدارس والمدرس ان يكونا متيقظين لهذه المستويات وان العربية نمت وزادت بلاغتها على مر الايام والاجيال . وعلى ذلك يمكن ان نميز على الاقل ثلاثة مستويات عامة :

اولا : **العربية الفصحى او لغة القرآن الكريم** .

ثانيا : **العربية الحديثة وهي تشمل ما تقراه فى الصحف اليومية والمجلات والاذاعة** . وفى نطاق هذا المستوى لابد من تاكيد الكتابة الرسميةرغم ان هناك الآن كتابة لبعض العامية : الاغاني مثلا ، والامثال العامية ، والقصص الخرافية .

ثالثا : العربية الخاصة بالحوار او التحدث اليومي وهي تمثل **اللهجة المهذبة** التي تحدثت عنها . وهنا يجب ملاحظة ان العامة العرب غير المتعلمين يستخدمون الكثير من النماذج بالعربية الفصحى (عند ذكر بعض آيات القرآن الكريم او الحديث الشريف او اصطلاحات معينة مثل « حالا » و « بسرعة » . و « اهلا وسهلا » . الخ) .

ولسنا فى حاجة الى تاكيد الحقيقة وهي ان **هذا التقسيم لا يعني مطلقا ان كل قسم منفصل تماما عن الآخر** . فهذا ليس من شأن اللغات الحية . ومن هنا يؤكد لنا اصحاب هذا الراي — وهو رايي انا ايضا ان « **اللهجة المهذبة** » **تستخدم كقنطرة تسهل الانتقال من لغة الحديث الى اللغة الفصحى** فمثلا حرف «القاف» يتردد كثيرا فى لغة الحديث خصوصا عند ذكر كلمة « القرآن » و « القاهرة » فهذه اللهجة المهذبة تحتوي

على كلمات كثيرة من الفصحى وتتبع ايضا عن قرب قواعد الفصحى .

كما ان اللغة العربية المعاصرة او الحديثة يمكن بسهولة تمييزها عن الفصحى عن طريق الكلمات الجديدة التي تحتويها . فنحن نقول الآن « تلفزيون » او « تلفزة » و « فيلا » .

وبالنسبة للعامية يمكن تمييزها عن الفصحى بما يحدث من تغيير فى بعض الاصوات فمثلا تقول « كتب » بدلا من « كتب » و « ولد » بدلا من « ولد ـــ ولدا ـــ ولد » .

وايضا الولد او الولد بدلا من الولد ـــ الولد ـــ الولد ، يفتح بدلا من يفتح (باللهجة المهذبة القاهرية مثلا) .

وايضا تغيير صوتي فى بعض الحروف مثل (ت) بدلا من (ث) فنقول مرة « تانية » ، وعشرين تانية ، (داب) بدلا من (ذاب) و (ازا) بدلا من (اذا) .

ثم ايضا نلاحظ التفخيم : / فرد / و / فرض /

والاساس الهام الذي يبنى عليه تعليم اية لغة اجنبية هو التقدم من لغة الحديث الى الكتابة او من الصوت الى الرمز . ولهذا السبب تستخدم الرموز الصوتية فقط فى المرحلة الاولى حتى يمكن للطالب ان يتلقن كل الاصوات ويميز بينها بدقة . ولكي يتم تحقيق ذلك نقدم نماذج « زوجية » خاصة Minimal Pairs مثل : (دم) ، (ضم) لتوضيح التفخيم .

(كلب) / (قلب) لتوضيح اهمية نطق احرف معينة فى معنى الكلمة .

(س) / (ساد) لتوضيح اهمية الاصوات الطويلة .

وفى هذه النماذج يكون التركيز على ابراز اختلاف واحد فقط لان الاستماع يأتي قبل النطق وان القدرة على تمييز الاختلاف فى الاصوات يأتي قبل اعادة انتاجها. وبمجرد أن يتمكن الطالب الاجنبى من ترديد النماذج الصوتية الاساسية يمكنه بسهولة ان ينتقل الى الكتابة ومنها الى الفصحى .

كيف نقدم الفصحى بعد ذلك ؟

لعلنا نذكر كثيرين منا عندما بدأوا يتعلمون العربية الفصحى فى اول سنة ابتدائية رددوا كلمات وامثالا مشهورة مثل (قتل) ، (ضرب) ، اما فى اللاتينية مثلا فتعلمنا « حب » وما شابهها . وليست المشكلة فى الواقع مشكلة معان ولكن المشكلة هي انه لم يكن هناك اهتمام بفكرة «التدرج» فى تقديم «الاصوات» وتركيب الجملة او مميزات تراكيبية خاصة Morphological distinction وانتقلت هذه الطريقة الى الغرب فى تعليم العربية واصبح الاهتمام منصبا على المفردات والقواعد الصماء .

وفى السنين الاخيرة لاحظنا ان بعض اساتذة العربية فى الجامعات الامريكية التي تقوم بتدريس العربية قد الفوا كتبا خاصة لتعليم العربية للمبتدئين ووصلوا فى تفكيرهم الى اهمال كل المستويات اللغوية والتركيز على ما اطلقوا عليه اسم « **العربية الحديثة** » Modern Standard Arabic **وبهذا الاسلوب يبدو انهم قد فشلوا فى تقديم العربية كلغة حية لها مستوياتها** الثقافية والنشاطية المختلفة . فالرمز المكتوب هو التعبير الوحيد للعربية وينتج من هذا انه من المستحيل للطالب ان يفهم الكثير مما يسمى « العربية الحديثة » عندما يستمع الى حديث او اغنية عربية بالاذاعة او خطبة عامة او ادب شعبي . اضف الى ذلك انه اذا استخدم الفصحى الحديثة فى حواره فانه يكون يتكلم ككتاب لا يعبر عن واقع لغة الحوار .

وعلى ضوء هذه الانتقادات تقدم الفصحى فى المرحلة الاولى من تعليم العربية فى نطاق الاساليب الآتية :

اولا : **ان المحتويات التركيبية يجب ان تقدم بالتدريج على اساس البساطة فى التركيب ، التكرار ، والقيمة العلمية** . وبناء على ذلك فمن الناحية الصوتية تقدم الاصوات السهلة والتي تماثل لغة الطالب الاجنبي اولا (فحروف القاف والعين والحاء والخاء والغين تؤجل الى فترة متقبلة) ومن الناحية الاعرابية والصرفية فالجمل الاسمية تقدم قبل الجمل الفعلية : مثل انا من ليبيا ، الرباط مدينة جميلة .

ومن الناحية التركيبية تقدم بعض الضمائر الهامة فقط مثل : انت ، انتِ ، انتم .

ثانيا : **يجب على النماذج التركيبية ان تمثل الثقافة والحضارة** العربية وان تبرز الهام منها . كالحج وشهر رمضان المبارك والعائلة العربية وخلافه بدلا من « اين الفيل يا خليل » او « عقد مجلس الوزراء جلسة خطيرة » .

ثالثا : في تطبيق مبدأ التدرج وربط النماذج بالحضارة يتحقق غرضان مهمان : الاول هو ان الطالب في هذه المرحلة الاولى الحرجة يبدأ بالشعور بالنجاح بدون الالتجاء الى « ضغط من الذاكرة » وثانيا ان رغبته في المزيد من التعليم تزداد ومعها تزداد شهيته لمعرفة الثقافة الجديدة التي تمثلها اللغة . او بمعنى آخر **ان النماذج اللغوية يصبح لها معنى في ذهن المتعلم مما يجعل عملية التعلم ممتعة وفعالة** . وكلنا نعلم ان **اول اتصال في تعلم لغة اجنبية له اهمية قصوى في مواصلة تعلم تلك اللغة** .

نعم فهناك في بعض الاحيان فرق واضح بين كلمة عامية ومقابلها بالفصحى — مثل (بالزاف) و (كثير) ولكن هنا تبدو ابداعية استاذ اللغة في اختيار النماذج المشتركة بين اللهجة المهذبة والفصحى — كالامثلة التي سبق الاشارة اليها . هذا هو **القاسم المشترك** الذي عليه يبني المعلم المرحلة الاولى من تعليم اللغة العربية للاجانب .

اما من حيث **القواعد** فكلما ذكرت ان النماذج التي تقدم يشتق منها الطالب القاعدة بدلا من تقديم القاعدة في قالب اجوف لحفظها فقط .

وهنا تلعب التمارين الخاصة بكل درس دورها الهام في عملية التعلم فبدلا من سؤال الطالب اعرب ما ياتي : او استخرج اسم المفعول من كل فاعل — نقدم تمارين من نوع جديد متفق عليه ونظريات اصول التعلم وعلم اللغويات . فتمارين الاستبدال Substitution مثلا والتحويل Transformation وغيرها من التمارين الفعالة التي «تثبت» ما يتعلمه الطالب . فمثلا : هو من القاهرة

هي

انا

انت

بيروت

هذا مسجد

هذه مدينة

هذا مسجد جميل

هذه مدينة جميلة

اما المفردات فيجب الا تبعثر في الدروس بلا نظام او احكام . فالكلمات التي تتركب منها النماذج التركيبية يجب ان يكون اختيارها في غاية الدقة والتحديد مع تكرارها في الدروس المتتالية حتى يتمكن الطالب من التركيز على النماذج الاساسية التركيبية بدلا من مجرد ضغط كلمات لا معنى لها .

هذا ملخص مختصر لاحدث طرق تدريس اللغات الاجنبية ومن ضمنها العربية بمستوياتها الثقافية المختلفة .

أبحاث مختلفة

- العلوم الطبيعية فى القرآن
  للشيخ طـــه الولـــي

- الاعداد العلمي فى الوطن العربي
  المؤتمر الثقافي العربي الثامن

- التانيث فى العربيـــــة
  للاستاذ عبد الحق فاضل

- علم الأصوات الحيوانية عند العرب
  للاستاذ عبد الهادي الفضيلي

- ملاحظات حول النقد الادبـــي
  للدكتور محمد رجب البيومي

- الحضارة الاسلامية بين الماضي .. والمستقبل
  للاستاذ احمد عبد الرحيم السايح

- نقـــد الكتـــــب
  للدكتور ممدوح حقي

- الموسيقى لغة الـــروح
  للاستاذ ابراهيم الدرويش المصري

العلوم الطبيعية في القرآن

الشيخ طه الولي ـ بيروت ـ

بين ايدي الناس الآن كتاب جديد عنوانه «العلوم الطبيعية في القرءان» من تاليف العالم الفيزيائي الكبير الاستاذ يوسف مروه من افاضل جبال عاملة في جنوبي الجمهورية اللبنانية ، وقد تفضل المؤلف الكريم فاهداني هذا الكتاب . وانه ليهمني التاكيد بانني لدى مطالعته ، وجدتني امام **محاولة جريئة لدراسة القرآن** الكريم باسلوب الرجل المسلم المؤمن الذي اراد ان يتصدى للحملة التي اثار اوارها وخاض غمارها بعض اساتذة الجامعة الامريكية ببيروت تحت شعار **التناقض المزعوم بين المعطيات العلمية ، الحديثة ، وبين مسلمات العقيدة الدينية ، القديمة** . وليس من شك بان هذه الحملة التي اضطربت بضجيجها اروقة الجامعة المذكورة ورددت صداها بالنقد والتعليق اقلام الكتاب في عدد من الصحف ببيروت وخارجها ، ليس من شك في ان **هذه الحملة ليست وليدة العصر** الذي نعيش فيه اليوم ، بل انها مالوفة من قبل ، وهي ما زالت تتردد وتتجدد من قديم الزمان حتى اليوم لاسباب تتفاوت من حيث منطلقاتها وغاياتها ما بين القلق الفكري المجرد وبين النزوات الشخصية المشبوهة .

وليس لنا الآن ، ان نرسل القلم على غاربه في جولة استعراض تفصيلي للمراحل التاريخية التي مر بها مبدا الايمان بالله الذي ارست قواعده الاديان السماوية مع تلك الطائفة من الكتاب الذين تجلببوا برداء الافكار الفلسفية او قطروا اسماءهم بقافلة من الالقاب العلمية الجذابة ، لاننا نرى ان مثل هذا الاسترسال ، من شانه ان يقودنا الى الخروج عن جادة الموضوع الرئيسي الذي نريد ان ناخذ به نفسنا الآن، وهو الموضوع الذي اردنا قصره على ما جاء في الكتاب الذي قصد به مؤلفه الاستاذ يوسف مروه اثبات **العلاقة الحتمية الوثيقة بين التفسير العلمي الحديث للظواهر الكونية المادية البحت ، وبين المعاني الالهية الخالدة التي التحفت بها** ؛ بين حين وحين بعض آيات القرءان الكريم في اثناء دعوتها الناس من كافة الاجناس الى الايمان بوجود الله الخالق الديان .

على انه، لابد لنا من التقديم بين يدي موضوعنا، ان كتاب الاستاذ مروه الذي تدور فصوله وابوابه ، حول رغبة المؤلف بربط **اغراض القرءان الكريم مع ما توصل اليه العلماء المعاصرون من اراء وافكار ونظريات في الجغرافية والفيزياء والفلك** وما الى ذلك من العلوم الانسانية الوضعية والمادية ، نقول ، انه لا بد لنا من التقديم بان هذا الكتاب ليس جديدا في بابه او مادته ، فلقد سبق ان نحا هذا النحو الجدلي،في دراسة القرءان الكريم وتفسيره ، غير الاستاذ مروه من الكتاب المسلمين الذين ارادوا ان يلتقطوا قفاز التحدي ويرموا به في وجه المستكشفات والاختراعات العلمية ، من طريق اقامة الدليل العقلي بان القرءان الكريم كان اسبق من كل ما عداه من كتب البشر الى التحدث عن هذه المستكشفات والاختراعات في العديد من آياته وسوره التي نزل بها الروح الامين بالوحي السماوي ، على قلب الرسول الاعظم سيدنا وسيد الخلق اجمعين محمد صلى الله عليه وسلم .

ففي اواسط العقد الثالث من النصف الاول للقرن العشرين الذي نحن فيه ، كثر الحديث عن احد المؤلفين المصريين الذى **حاول تفسير القرءان الكريم تفسيرا علميا يتجاوب فيه مع روح العصر** الذي تطورت فيه الافكار الانسانية وراح يطلق قلمه وراء ما يسبح عبر الفضاء الرحب من الكواكب والاقمار والشموس ، او يغوص بهذا القلم ، الى داخل أحشاء الارض باحثا فى هذه الاحشاء عما يتقلب فيها من عوالم الجماد والحيوان والنبات ليبرهن للناس ان الغلاف الخارجي للكون والاعماق الداخلية فيه ، احاط به كتاب الله فى كلامه الازلي بالتفصيل والبيان والايضاح ، وهذا المؤلف هو الشيخ **طنطاوي جوهري** ، الذي كان استاذا فى دار العلوم المصرية والمتوفى سنة 1358 هـ (1940 م) فقد صنف هذا الشيخ كتابا تحت عنوان : « **الجواهر فى تفسير القرءان الكريم** » وطوى صفحاته التي تجاوزت المئات عددا ، على تفسير القرءان الكريم « تفسيرا ينطوي على كل ما وصل اليه البشر من علوم » على حد قوله .

فقد اخذت فكرة تفسير الظواهر الكونية من خلال تفسير القرءان الكريم ، بلب الشيخ طنطاوي جوهري وملكت عليه احاسيسه ومشاعره حتى اعتقد بأن العناية الالهية اختارته من بين سائر الناس للقيام بكبر هذا العمل فاطلق قلمه عبر كتابه بنداء وجهه الى المسلمين قاطبة قال فيه :

« يا أمة الاسلام ، آيات معدودات فى الفرائض اجتذبت فرعا من علم الرياضيات ، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية ، فيها عجائب الدنيا كلها .. هذا زمان العلوم ، وهذا زمان ظهور الاسلام .. هذا زمان رقيه . ياليت شعري ، لماذا لا نعمل فى آيات العلوم الكونية ، ما فعله آباؤنا فى آيات الميراث ولكني ، اقول ، الحمد لله ، الحمد الله ، انك تقرأ فى هذا التفسير (ويقصد كتابه) خلاصات من العلوم ودراستها افضل من دراسة علم الفرائض ، لانه فرض كفاية ، أما هذه ، فانها للازدياد فى معرفة الله وهي فرض على كل قادر .. ان هذه العلوم التي ادخلناها فى تفسير القرءان ، هي التي اغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء فى الاسلام .. فهذا زمان الانقلاب وظهور الحقائق .. والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم.

ثم ان هذا الشيخ يتابع نداءه مسترسلا فى حماسته واندفاعه ويقول :

« ان نظام التعليم الاسلامي ، لا بد من ارتقائه ، فعلوم البلاغة ليست هي نهاية علوم القرءان بل هي علوم لفظه ، وما نكتبها اليوم ، علوم معناه ، وانطباقها على العلوم التي اظهرها الله فى الارض وبعد هذا الزمان سيظهر فيه آثار قوله تعالى « ثم ان علينا بيانه » فان البيان المذكور ، فى سورة القيامة ، فسر بمعنى اننا نبينه بلسانك فتقرأ كما قراه جبريل ، وبمعنى انه اذا اشكل شيء من معانيه فنحن نبينه لك ، وعلينا بيان ما فيه من الاحكام والعجائب ، ولا جرم ان ما يتحدد اليوم من العلوم مما ذكر فى هذا التفسير ، وما لم يذكر، من البيان الذي اكد الله انه يظهره لامة الاسلام»

وهكذا ، يمضي الشيخ طنطاوي ، من خلال حماسته بما اقتنع به ، فى تحميل كل آية من كل سورة فى القرءان الكريم من التاويل والتحليل والعليل ، ما لم ينزل به من عنده الله برهان ولا شاهد ولا دليل .

واذا كان المتقدمون من العلماء قد انفقوا حياتهم فى استنباط المعاني التي تؤدي اليها آيات القرءان الكريم لتحديد العقيدة الاسلامية فى توحيد الله عز وجل وبيان اغراض الشريعة فى ضبط علاقة الناس بخالقهم من جهة وبانفسهم من جهة ثانية ، فان الشيخ طنطاوي جوهري قد انفق حياته فى تتبع هذه الآيات وتخريج معانيها وفق ما توهمه فيها من اشارات الى الدراسات التي يقوم بها رواد العلوم النظرية والمادية وراء مكاتبهم وتحت أضواء مختبراتهم ومعاملهم ثم هو لا يكتفي بعرض آرائه وتقريرها بصورة متحدية جازمة، بل انه يتوجه باللائمة على اولئك العلماء السابقين بقوله :

« لماذا الف علماء الاسلام عشرات الالوف من الكتب الاسلامية فى علم الفقه .. وعلم الفقه ليس له فى القرءان الا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية ؟ فلماذا كثر التاليف فى علم الفقه ، وقل جدا فى علوم الكائنات التي لا تخلو منها سورة ؟ بل هي تبلغ **سبعمائة وخمسين آية صريحة** ، وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة ، فهل يجوز فى عقل او شرع ان يبرع المسلمون فى علم آياته القليلة ، ويجهلوا عاما ، آياته وهي كثيرة جدا ، ان آباءنا برعوا فى الفقه ، فلنبرع نحن الآن فى **علم الكائنات** ، لنقم به لترقي الامة » .

واذا نحن اقبلنا على قراءة كتابه « الجواهر فى تفسير القرءان » نجده يحشد فى هذا الكتاب الفريد من نوعه كثيرا من صور النباتات والحيوانات ومناظر

لطبيعة وتجارب العلوم لكي يؤكد لقارئه ان ما يقوله في تفسيره من طرائف وغرائب هو الحقيقة بعينها بناء على ما يقدمه من تلك الصور والمشاهد الحسية .

وعندما تعوزه الصور والمشاهد الحسية فانه يستنجد بما جاء عن افلاطون في فلسفته او بما ردده اخوان الصفا في رسائلهم فاذا لم يجد عند افلاطون او اخوان الصفا ما يرتكز عليه في ارائه فانه لا يتورع من الاعتماد على الارقام العددية التي ينظمها حساب الجمل المعروف .

ومن الغريب حقا ، ان نجد الاستاذ يوسف مروه يعالج موضوعه في كتابه « العلوم الطبيعية في القرءان » بنفس الاسلوب الذي اعتمده الشيخ طنطاوي جوهري في كتابه « الجواهر في تفسير القرءان » حتى يكاد يخيل لنا ان كلا الرجلين نهلا من معين واحد وهما يدرسان القرءان الكريم ويفسران آياته . فالاستاذ يوسف مروة يؤكد في كتابه المذكور ان **« ميزة القرءان الكبرى انه اورد صورة بسيطة واضحة وسهلة للكون والطبيعة تنسجم تماما مع صورة الطبيعة البسيطة التي كشفت عنها الفيزياء الحديثة . »**

ومثلما فعل الشيخ طنطاوي جوهري حين احصى في القرءان الكريم حوالي سبعمائة وخمسين آية من الآيات التي تحتوي على مبادىء العلوم الكونية فان الاستاذ يوسف مروه قام بدوره باحصاء هذا النوع من الايات فقال :

« واذا عبرنا بطريقة كمية عن هذه المواضيع العلمية القرءانية ومقدار ورودها ووجودها في القرءان لتبين لنا اكثر من عشر الآيات القرءانية تتعلق بمواضيع العلوم الطبيعية وعلى وجه التدقيق 670 آية تبحث في شتى المواضيع العلمية موزعة كما يلي :

الرياضيات	61 آية
الفيزياء	64 آية
الذرة	5 آيات
الكيمياء	9 آيات
النسبية	62 آية
الفلك	100 آية
المناخيات	20 آية
المائيات	14 آية
الرياضيات	57 آية
علم الفضاء	11 آية
علم الحيوان	12 آية
علم الزراعة	21 آية
علم الاحياء	32 آية
الجغرافية العامة	73 آية
علم السلالات البشرية	10 آيات
علم طبقات الارض	20 آية
علم الكون وتاريخ الاحداث الكونية	36 آية
وصف العلم والعلماء والحث على طلب العلم	64 آية

وجريا على العادة التي يتبعها كثير من الكتاب المسلمين بالاستشهاد على صدق الدعوة الاسلامية وصحة ما جاء في القرآن الكريم من قوانين تشريعية ومفاهيم اجتماعية واخلاقية ، فانا نجد الاستاذ يوسف مروه يستهل كتابه تحت عنوانه : « آراء وافكار حول القرآن » بطائفة غير قليلة من الاقوال التي وردت في كتب غير المسلمين من علماء اوربا وفلاسفتها ونختار من هذه الاقوال قول رينورت :

« يجب ان نعترف بان العلوم الطبيعية والفلك والفلسفة والرياضيات التي انعشت اوربا في القرن العاشر مقتبسة من القرآن » .

« وقول ريتورت » :

« يجب ان نعترف ان العلوم الطبيعية والفلك والفلسفة مقتبسة من القرآن . فجميع العلماء مدينون له ولعل الاستاذ مروه والذين سبقوه او يحاكونه في الاستنجاد باقوال الغربيين لدعم الايمان بالاسلام والقرآن ، لعله وهؤلاء انما يريدون العمل بالقول المأثور . والفضل ما شهدت به الاعداء . ولسنا ندري اذا كانت شهادة الاعداء تصلح دائما لان تكون دليلا يمكننا الاحتجاج به فيما ندلي من آراء واجتهادات وتفسيرات وتاويلات بصدد القرآن الكريم بالذات لا سيما اذا كانت هذه الشهادة تريد ان تصنف كلام الله في عداد التقارير العلمية التي كثيرا ما يناقض بعضها بعضا بين حين وآخر بسبب ما يلابس البحوث العلمية عادة من تطورات مع تقدم الافكار البشرية التي تخضع لظروف الحضارة المليئة بالمفاجآت غير المنتظرة .

على اننا نرى بانه لا يجوز لنا حمل آراء الاستاذ مروه وامثاله من الكتاب والعلماء المسلمين على محمل التنطع فى جر آيات القرءان الكريم الى ساحة الابحاث العلمية البحت بدافع من الفضول والرغبة فى التجديد بما لا طائل منه لصالح القرءان واهدافه الدينية والدنيوية . بل نحن نرى ان ما يذهب اليه الاستاذمروه واحزابه فى هذا الصدد ، انما هو فى الواقع ، رد **فعل عفوي لمواجهة التحديات العنيفة التي تفرضها الافكار المبهورة بما بلغته الحضارة الانسانية من تقدم وتطور وازدهار فى هذا العصر** . كما انه يعتبر بمثابة جواب غير مباشر على الشكوك التي تراود بعض الافهام السقيمة التي القت على كاهل الدين الاسلامي وزر ما يعانيه المسلمون اليوم من مظاهر التقصير عن ادراك شاو الحضارة الغربية فى مستواها العلمي الرفيع .

وها هو الاستاذ يوسف مروه يعلن فى اوائل الفصل الثامن من كتابه الذي نحن بصدده :

« ان الغاية الرئيسية من هذه الفصول المتواضعة هي :

اولا : **ان نثبت للمتزمتين والمتعصبين ضد طلب العلوم الحديثة ، أن القرءان قد دعا وشدد فى طلب جميع العلوم (الدينية والطبيعية)** بلا استثناء ، ولذلك فاننا ندعو رجال الدين للاطلاع بانفسهم على معطيات العلم الحديث لان عدم المامهم بهذه المعطيات قد شجع على انتشار الكفر والالحاد بين افراد شباب المسلمين المثقف ، ذلك ان بعض رجال الدين الذين يجهلون كل شيء عن العلم الحديث ، قد فشلوا فشلا ذريعا فى توجيه الشباب المسلم الى التمسك بتعاليم الدين الحنيف .

ثانيا : ان نثبت للمثقفين المسلمين وغير المسلمين الذين يحاربون الدين باسم العلم ، ان هذا **الدين قائم على العلم وان آيات القرءان وتعاليمه تنسجم انسجاما كليا مع معطيات العلم الحديث** فى ادق واخطر مباحثه وتجاربه واكتشافاته من ذرة وفضاء ونسبية وغير ذلك من المواضيع العلمية الخطيرة ولنؤكد ان العلم الذي دعا القرءان الى طلبه ، والذي اقبل عليه المسلمون ، لم يكن العلوم الدينية والشرعية فحسب ، بل دعا الى طلب العلوم الطبيعية ايضا وان تراث الاسلام فى حقل العلوم الطبيعية لهو اكبر دليل على ما نقول :

وعندما وصل الاستاذ مروه الى آخر هذا الفصل اعلن قائلا :

« وانني فى محاولتي هذه ساقتصر على اهم واخطر مواضع العلم الحديث وهي **الذرة والفضاء والنسبية فى الباني لنفي التناقض بين العلم والدين**».

ولم ينس الاستاذ مروه ، وهو فى ذرة حماسته لاثبات الانسجام التام بين العلوم الطبيعية وبين معاني الايات القرءانية، لم ينس ان يشير الى آخرين من العلماء المسلمين الذين عالجوا بدقة وتفصيل مدى انطباق وتوافق هذه الآيات او بعضها مع مواضيع العلم الحديث وذكر منهم الاساتذة احمد امين واحمد محمود سليمان والشيخ طنطاوي جوهري (الذي تناولناه فى حديثنا هذا من قبل) وكذلك الدكتور احمد زكي فى كتابه « مع الله فى السماء »

واذا كان الاستاذ مروه قد اختار لمواجهة التحديات العصرية الحديثة للاسلام بالكشف عن المعطيات العلمية التي فصلت بها آيات القرءان الكريم فان **الاسلوب الذي التزمه فى كتابه للتعبير عن هذه المواجهة قد تجاوز من غير شك الاغراض التي ارادها الله فى هذه الايات** حتى انتهى به الامر اخيرا الى انتزاع القرآن الكريم من حدود مقاصده التشريعية والتوجيهية وحشره حشرا غير طبيعي الى جانب الكتب الوضعية التي طوى اصحابها صفحاتها على مبادىء نظرية تخضع فى طبيعتها لقوانين العقل البشري هذا العقل الذي هو مستعد دائما وابدا ، لان يرفض اليوم ما قبله بالامس ، وان ينفي فى الغد ما اثبته اليوم وهكذا تبعا لما يعرض له من ظواهر الاشياء التي يعالجها وهو فى طريقه الى الحقيقة العلمية المطلقة التي يبشر بها الانسان فى مسيرته الحضارية غير المحدودة فى هذه الحياة .

وان من يمعن قراءة المقدمة التي استهل بها الاستاذ يوسف مروه كتابه لا بد انه يلاحظ بأن الكاتب الفاضل ، كان شديد الحرص على تأكيد دور القرءان الكريم فى حث المسلمين على اعتماد العقل والتفكير واحصى 64 آية من آياته تحت عنوان « وصف العلم والعلماء والحث على طلب العلم » ولم يكتف بذلك بل انه اختار من آثار المرحوم الشيخ مصطفى الغلاييني ما كتبه من نحو اكثر من ثلث قرن حول الدين والعلم وجعله فى مطلع كتابه وقال : « اعجبت بدقة وعمق بحثه ورايت من الواجب ان انقل للقارىء بعضاً ما كتبه

هذا الفقيه العالم كتقديم للموضوع الخطير الذي اعالجه » .

وانا لا ندري ، لماذا يصر الاستاذ مروه على اقناع قارئه بان الاسلام يدعو الى التعلم ويطلب الى الناس احترام العلماء ، مع العلم بان احدا منهم لم يزعم يوما بان هذا الدين يدعو الى الجهل او يطلب الى اتباعه تقدير الاميين . حتى خصوم النبي محمد صلى الله عليه وسلم واعداء رسالته السماوية ، فانهم لم يعلوا في شتآنهم للنبي ورسالته الى حد اتهامهما بانهما ضد العلم واهله . ولو ان المؤلف حصر جهوده في اقناع قارئه بموضوعه الاساسي، وهو توافق الآيات الكريمة مع ما حققه الانسان المعاصر في حقل العلوم الطبيعية، لو انه حصر جهوده في هذا الموضوع فقط لكان وفر على نفسه وعلى قارئه كثيرا من الوقت والجهد .

ثم ان الاستاذ مروه كما يقول الشيخ موسى الصدر ، ساير ذلك الذى قال في كلمته ان علماء الدين يحماون مسؤولية عدم تفسير النصوص القرءانية والسنن المطهرة . على ضوء العلوم الحديثة . واني من راى الشيخ المذكور بان **الاطلاع على ظروف علماء الدين الاسلامي يكشف انهم بذلو اضعاف امكاناتهم في سبيل هذه الغاية الشريفة وقدموا عشرات الكتب بهذا الصدد ، حتى ان بعضهم القوا كتبا في خواص العلم التجريبية زائدا على تاليف كتب تحاول عرض النصوص والاحكام الدينية بصورة علمية دقيقة في حقل الفلسفة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والحقوق وغيرها .**

ونحن نزيد على ما قاله الشيخ الصدر بهذا الصدد بانه لا يوجد كتاب في طول الارض وعرضها من بداية التاريخ حتى اليوم ، خدمه اهله من العلماء مثلما خدم علماء المسلمين كتاب الله وان رفوف المكتبات تكاد تنوء باحمالها من آلاف الكتب التي تتناول القرآن بالدرس والتحقيق والشرح والتفسير وبيان دوره الجبار في توجيه البشر بمختلف اجناسهم والوانهم الى الحقائق الازلية التي تضمنتها آياته البينات .

ولعلنا نستطيع ان نلفت نظر الاستاذ المؤلف الى الكتاب الذي الفه سماحة الشيخ نديم الجسر مفتي طرابلس ولبنان الشمالي تحت عنوان « قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن » لان هذا الكتاب الذي صدر مؤخرا واعيدت طباعته مرارا ، من شانه على ما نعتقد ان يقنع الاستاذ مروه بان اهل العلم الصحيح من شيوخ المسلمين لم يبخلوا في اداء واجبهم نحو القرءان الكريم في الحاضر كما ان السلف الصالح من امثالهم وزملائهم ، لم يبخلوا كذلك في الماضي في القيام بهذا الواجب . على ان الفرق بين الاستاذ مروه وبين هؤلاء واولئك انهم فهموا القرآن الكريم على حقيقته وعلى طبيعته في التشريع التنظيمي والتوجيه الاخلاقي بينما اراد استاذنا الفاضل ان نفهم هذا الدستور الالهي عبر الانفعالات النفسية التي اثارتها موجة التحديات العصرية الوافدة علينا من آفاق العالم الغربي .

وهنا ، اجدني اعود مرة اخرى الى تاييد وجهة نظر الشيخ موسى الصدر الذي يقول :

« ان القرآن الكريم كتاب دين وهداية ، **وليس من مهمته الابحاث العلمية وذكر القوانين التجريبية** ، او وضع اسس للانتاج الثقافي البشري ، **فالقرآن الكريم يحاول ان يصنع الانسان الكامل** الذي هو مبدأ العلوم وغايتها ، ويتقن هذه المحاولة باحكامه الفردية والاجتماعية وتعاليمه المقدسة .

ويقول الشيخ الصدر كذلك :

« واعود لاؤكد ان **تناول القرآن لهذه المباحث (اى العلوم الكونية) هو استطراد** ذكر وامثال ، وليس من مهمة القرآن وضع الاسس ونقل القوانين العلمية ، شان الكتب العلمية .

ونحسب انه لا يمكننا ان نزيد على كلام الشيخ الصدر ما يزيده بيانا وايضاحا فوق ما هو عليه من البيان والوضوح ، اذ لا يعقل ان ياتي القرآن الكريم ولا اي كتاب سماوي آخر الى الناس بالقواعد المادية والطبيعية التي يقوم عليها الكون لان مهمة الدين ، اى دين ، هي ان ياخذ البشر بالمبادىء التوجيهية التي ترسم امامهم طريق الايمان بالله عز وجل والعمل بما فيه انضباطهم وصلاحهم في هذه الحياة الدنيا . وليس من مهمة الدين ، في قليل او كثير ، ان يتناول العناصر التي يتالف منها الكون في مادته المجردة الا في حدود المقدار الذي يضرب به المثل للعظة والاعتبار والتامل .

ومثل الكتب السماوية في هذا ، مثل الدساتير التي يضعها قادة الامم لضبط الافراد والمجتمعات في نطاق الروابط التي تحكم اواصرهم وتشدهم الى العيش بعضهم مع بعض دون اى تناقض ولا اصطدام .

وان الطريقة التي اخذ بها الاستاذ يوسف مروه في تفسير القرءان وتاويل آياته وفق النظريات العلمية الحديثة يمكننا ان نقول فيها ما سبق ان قاله في امثالها غيرنا من جهابذة العلماء المسلمين امثال **الشيخ رشيد رضا الذي نجده ، في مقدمة تفسيره «المنار» ينعي على من تاثروا في تفسيرهم بالنزعة العلمية المادية.** وان الشيخ رشيد **قد نعا على الفخر الرازي ما اورده في تفسيره من العلوم الحادثة في الملة** ، واعتبر ان هذا العمل من شانه ان يصرف الانسان عن القرءان وهديه ، كما توجه بمثل هذا اللوم على الذين قلدوا الفخر الرازي في طريقته من المفسرين المعاصرين. فلقد قال .. وقد زاد الفخر الرازي صارخا آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده ، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها ، وقلده بعض المعاصرين (ويقصد الشيخ طنطاوي جوهري) بايراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية ، فصولا طويلة بمناسبة كلمة مفردة ، كالسماء والارض من علوم الفلك والنبات والحيوان ، تصد القارىء عما انزل الله لاجله القرءان .

وبمناسبة الكلام عن جنوح بعض المفسرين الى الاستطراد في تاويل بعض آيات القرءان الكريم على غير مقاصدها الاخلاقية والتشريعية . فاننا لا نرى باسا من ايراد قصة ذلك المستشرق الذي اراد ان يباسط الامام الشيخ محمد عبده فقال له : انتم معشر المسلمين تزعمون ان القرآن يحتوي على كل شيء من العلوم والاحداث كما جاء في الآية 38 من سورة الانعام: « ما فرطنا في الكتاب من شيء » فهل ورد في القرآن ذكر لاسم شركة « كوك » الانكليزية للسفريات . فما كان من الاستاذ الامام الا ان اجابه ، على سبيل المباسطة ، لذلك فورا اجل فان اسم هذه الشركة ورد فعلا في سورة الجمعة حيث يقول تعالى « وتركوك قائما » فكانت تكتة ما يزال الناس يتبادلونها حتى اليوم ...

وبعد ، فلقد اطلنا الكلام في نقد كتاب « العلوم الطبيعية في القرءان » حتى كدنا نوهم قارئنا بان الاستاذ يوسف مروه قد خرج من جهده في هذا الكتاب على غير طائل ، بينما نحن ، علم الله ، ما لهذا قصدنا وما كنا لنغمط هذا المؤلف العالم حقه من التنويه بالروح الدينية العارمة التي تشيع في كل من سطور كتابه ، بل وفي كل كلمة من كلماته ، وما كنا كذلك ، لنجحد له فضله في الانكباب على دراسة كتاب الله سوره سورة ، وآية آية ، كي يخرج من هذه الدراسة بهذا **الكتاب الفذ الذي تضمن من المعلومات القيمة ما يدل على الثقافة العلمية الغزيرة** التي يتمتع بها مؤلفه لا سيما في حقول الفيزياء وما اليها من نظريات حديثة مما يجعله في نظرنا ونظر كل منصف مفخرة شباب العرب والاسلام في هذا العصر ، بل نحن خرجنا بعد دراسة كتابه ، على قناعة وثيقة بان هذا الشاب النابغة يستحق ان يوضع اسمه بين اسماء فطاحل العلماء المسلمين الذين اضافوا لتراثنا القومي صفحة مشرقة ليس في تاريخ العرب والاسلام وحسب بل في تاريخ الفكر الانساني قاطبة . وانه جدير بامتنا ان تباهل بمكانته العلمية وان تفاخر بذهنه المتفتح اكثر الامم تقدما وابعدها شاوا في مضمار الحضارة والتطور والازدهار .

واذا كان لنا ما نختم به هذا الحديث ، فاننا نختمه بالتمني على المسؤولين العرب ، بان يفيدوا من مواهب الاستاذ مروه وكفاياته في علوم الذرة والفزياء والكيمياء . هذه العلوم التي اصبحت اليوم ، ميدانا تتزاحم فيه الامم الحية لاحراز قصب السبق في خدمة اغراضها القومية وتحقيق انتصاراتها العلمية من اجل مستقبل افضل للمجتمع الانساني والحضارة العالمية.

الإعداد العلمي في الوطن العربي

اصدر المؤتمر الثقافي العربي الثامن الذي انعقد بالقاهرة بين 20 و 30 ديسمبر (كانون أول) 1969 توصيات في موضوع اعداد العلميين في الوطن العربي جاء فيه :

« التوصيـــة الاولـــى »
اللغة العربية لغة العلم في التعليم العالي :

لما كانت اللغة القومية لكل امة هي الوعاء الفكري للمواطن ، اذ انها اداة التفكير كما انها وسيلة التعبير.

وتحقيقا للاهداف العلمية والتربوية لوضع المادة العلمية في متناول ادراك الطالب وفهمه دون عوائق لغوية خارجية تزيد من صعوبة المادة وتعمل علـــى الابطاء في استيعابها .

وايمانا بان تاصيل العلم والتفكير العلمي لدى اية امة يتطلب استعمال لغتها القومية في كل مـــن التدريس والبحث العلمي في جميع مراحل الدراسة .

وادراكا ان استعمال اللغة القومية في التدريس والبحث العلمي يزيد من ارتباط العلماء بشعوبهم ومن ارتباط العلم وتطبيقاته بقضايا وطنهم وحاجات أمتهم ومتطلباتها ، ويساعد على الاحتفاظ بهم والحد مـــن هجرتهم .

وتقريرا للحقيقة التاريخية المعروفة ان اللغـــة العربية وسعت في عصور ازدهارها جميع جوانـــب المعرفة العلمية والحضارية ، وكان لها اثرها الواضح في النهضة العلمية الاوربية .

واعتمادا على طبيعة اللغة العربية وسعتهـا ومرونتها وقدرتها على التطور والاستيعاب والتعبيـر عن العلم الحديث وتطبيقاته ، وقد تمثل ذلـــك في التجربة الرائدة التي نهضت بعبئها الجامعة السورية خلال نصف قرن بالتدريس والتاليف في الكليات العلمية العملية باللغة العربية ، والتي تتطلب من الجامعـات العربية الاخرى الاسراع الى التعاون والدعم والمساندة.

ومع الاعتراف بالصعاب الحالية التي تعترض سبيل استعمال اللغة العربية لغة تدريس وبحث علمي في الكليات الجامعية والمعاهد ، والتي تستدعي :

1 ــ اعداد هيئة التدريس .

2 ــ ترجمة المصطلحات وتعريبها وتوحيدها .

3 ــ استكمال النقص في المراجع والمصادر العلمية .

وهي الصعاب التي أمكن التغلب عليها فعلا في مراحل التعليم العام وفي كليات الحقوق وفي الدراسات الاجتماعية والنفسية ، التي اصبح التدريس فيها منذ زمن باللغة العربية في كثير من البلاد العربية امـــرا واقعيا وحقيقة مقررة ، بعد ان كان التدريس فيهـــا

بلغات اجنبية ، وكانت الاعتراضات على تعريبهـــا والصعاب امام ذلك هي الاعتراضات والصعاب نفسها التي تثار الآن فى مجال استعمال اللغة العربية للتدريس والبحث العلميين .

ومع التاكيد على ضرورة بذل مزيد من العنايـة باللغات الاجنبية لتكون نافذة تطل على سير العلم فى البلاد الاخرى ووسيلة لمتابعة التطور العلمي فى العالم.

فان المؤتمر يوصي بما يلي :

1 ــ المبادرة الـى **استعمال اللغة العربية لغـــة للتدريس والبحث العلمي فى جميع مراحل الدراسة بالكليات والمعاهد العلمية والتقنية فى البـــلاد العربية** ، على ان يصدر فى كل بلد عربي تشريع ملزم بذلك ، وان يكون البدء بتنفيذه فى السنة الاولى (الصف الاول) بتلك الكليات والمعاهد فى بداية العام الدراسي التالي مباشرة لصدور التشريع ، وان ينص على أن يكون التنفيـذ فى السنوات (الصفوف) التالية متتابعا عاما بعد آخر دون فواصل زمنية .

2 ــ **انشاء مركز لترجمة امهات الكتب والمراجـع اللازمة لتعريب التدريس** فى الكليات والمعاهـــد العلمية .

3 ــ **اعادة تاسيس اتحاد المجامع اللغوية العربيـة** الذى سبق انوافق مجلس جامعة الدول العربية على تاسيسه وعلى نظامه الاساسي ، وحث مجلس جامعة الدول العربية على ان يرصد لـه اعتمادا ماليا كافيا يمكنه من القيام برسالتـــه العلمية والقومية الجليلة فى مجالي التعريـــب والترجمة العلمية . على أن يتطور هذا الاتحاد فى المستقبل ليصبح مجمعا لغويا عربيا مركزيـا وتصبح المجامع الاخرى فى البلاد العربية فروعا لـــــه .

4 ــ **ارتباط المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الوطن العربي بالرباط باتحاد المجامـع وفقـا لترتيب خاص يمنع الازدواج فى العمل والتكـــرار فى الجهـــد** .

5 ــ حث الحكومات العربية التي لا توجد فى بلادها مجامع على **تاسيس مجامع لغوية** ، تكـــون رسالتها العمل فى نطاق القطر نفسه على **قيـام نهضة لغوية فكرية** بشتى الوسائل وتكـــون فى الوقت نفسه شعبا لاتحاد المجامع ودعامة لـــه فى عملـــه .

6 ــ **تاسيس الجمعيات العلمية** لمختلف فروع العلـم فى كل بلد عربي لتكون عونا للجامعات والمجامع واتحاديها والاتحاد العلمي العربي فى النهـــوض بالتعريب والترجمة العلمية .

7 ــ بذل مزيد من **العناية باللغات الاجنبية** فى التعليم الاعدادي والثانوي والجامعي ، والعمل على رفع مستواها للاستفادة بها فى نشر البحوث العلمية العربية على الصعيد العالمي .

« التوصيـــة الثانيـــة »

السياسة العامة للاعداد العلمي :

لما كان المؤتمر يدرك ان المعركة التي تخوضهـــا الامة العربية هي معركة حضارية فى المقام الاول وان الامة العربية فى حاجة الى تقدم حضاري يستفيد مـن العلم مضمونا واسلوبا فى تدعيم الجبهة العربية ، ولما كان المؤتمر يرى ان التفاعل بين الحركة العلميـــة والتطور الصناعي والانتاجي امر ضروري للنهـــوض بها جميعا ، فانه يوصي بما يلي :

1 ــ وضع الخطط طويلة الامد لتربيـة الجماهيـر العربية تربية علمية اصيلة تقوم على **الايمـــان بالاسلوب العلمي فى التفكير** والوعي بـــدور العلم فى تطوير الحياة الانسانية ، **وباهمية العمل العلمي فى حل المشكلات** .

2 ــ ان تقوم اجهزة التعليم والاعلام بالعمل علـى ازالة العراقيل التى تعوق الحركة العلمية حتى يفسح لها مجال العمل على رفع مستوى الثقافة العلمية بين الجماهير واشاعة الفكر العلمـي وتاصيل النظرة العلمية للامور وتربية الاجيال الصاعدة تربية علمية شاملة .

3 ــ اعتبار **عملية الاعداد العلمي عملية متكاملة** تبدا مع الطفل وتستمر حتى الدراسات العليا وان هذا التكامل يقتضي الربط بين مراحل الاعداد المختلفة وتحديد مستوياتها فى كل مرحلـــة ؛ ولذلك فالمؤتمر يوصي بانشاء هيئات او مجالس دائمة تكون مسؤولة عن تطوير خطط ومناهـج الدراسات العلمية فى المراحل المختلفة ورســم

سياسة شاملة للاعداد العلمي ، والقيام بالدراسات والابحاث الخاصة بتحديد نوعيات الاعداد ومستوياته .

4 — توثيق العلاقات بين المؤسسات العلمية ومراكز الانتاج والخدمات بحيث يتم تبادل الخبرات العلمية فيما بينها والعمل على حل المشكلات التي تواجهها تلك المراكز ، واتاحة الفرصة لتدريب الطلاب العلميين بصورة دورية في مراكز الانتاج والخدمات وانتقاء موضوعات البحث من المشكلات التي تطرحها هذه المؤسسات والمراكز .

« التوصية الثالثة »

الاعداد العلمي في التعليم العام :

يقدر المؤتمر الجهود التي تبذلها جميع الدول العربية في مجال تدريس المواد العلمية في التعليم العام ، ويرى وجوب اعطاء مزيد من الاهتمام لتحسين نوعية الاعداد العلمي في جميع مدارس التعليم العام نظرا لاهميته سواء لاعداد المواطن القادر على مواجهة مشكلات مجتمعه والمساهمة في حلها او لاعداد العلميين المتخصصين .

ولذلك يوصي المؤتمر بما يلي :

1 — العناية اثناء تدريس العلوم في المرحلة الاولى بالدراسات التطبيقية على الطبيعة ، اي ان تقرن عملية التعليم بالمشاهدة ما امكن ذلك وان تنمي المبادرة الفردية واكتساب بعض المهارات العلمية بحيث يمكن تنمية الشخصية العلمية المزودة ببعض المعارف العلمية الاساسية .

2 — اعادة صياغة المناهج العلمية بحيث تهتم باساسيات المعرفة العلمية دون ازدحامها بالتفصيلات على ان تجري عملية متابعة وتقويم لهذه المناهج باستمرار في ما تسفر عنه من نتائج وما يستجد من احتياجات تمشيا مع التطور العلمي الحديث .

3 — تطوير اساليب التدريس ، وهذا يرتهن باعداد المعلم ، ولذلك فالمؤتمر يوصي بالاهتمام باعداد المدرس وتوفير الجو والظروف المناسبة لكي يقوم بدوره على أحسن وجه ، وذلك عن طريق تحسين ظروفه المادية والمعنوية وتزويده بوسائل التدريس اللازمة ومده باستمرار بالجديد في العلم وفي طرق التدريس وتنظيم الدورات التدريبية والتجديدية المناسبة .

4 — الاهتمام بمزج الاعداد العلمي بالاعداد الانساني والقومي ، وبوجه خاص اثناء احساس الطالب بالانتماء للوطن وادراكه لمسؤولياته تجاهه .

5 — العناية بتدريس اللغة العربية باعتبار ان اللغة القومية هي الوسيلة المثلى للتعبير عن الافكار العلمية وتبادلها بين اجزاء الوطن العربي . كما يؤكد ضرورة العناية بتدريس اللغات الاجنبية لانها وسيلة هامة من وسائل تحصيل العلم .

6 — العناية بالمدارس المهنية وزيادة عددها وتنوعها طبقا لمتطلبات خطط التنمية على ان يرتفع مستوى الدراسة العلمية النظرية في هذه المدارس الى ما لا يقل عن مستواه في المدارس العامة على ان لا يكون ذلك على حساب النواحي المهنية مع اتاحة الفرصة للمتخرج في هذه المدارس بمواصلة دراسته في التعليم التقني العالي اذا كان صالحا لذلك ، على ان يراعي في قبول الطلاب في هذه المدارس الميل والكفاءة .

« التوصية الرابعة »

الاعداد العلمي في المرحلة الجامعية :

يقدر المؤتمر الجهد الذي تبذله جميع الدول العربية في التوسع في التعليم الجامعي العالي ، ويرى ان الوقت قد حان للاهتمام بنوعية الاعداد في هذه المرحلة بما يفي باحتياجات الامة العربية . ولهذا يوصي المؤتمر بما يأتي :

1 — ان تحدد كل دولة عربية اهداف التعليم الجامعي بصورة واضحة في ضوء احتياجاتها المحلية من علميين على مختلف انواعهم ، آخذة في الاعتبار الحاجات القومية على نطاق الوطن العربي .

2 — ولما كان تحديد التخصصات وانواعها ومجالاتها امرا يرتبط بخطط التنمية الوطنية والقومية ، فان المؤتمر يوصي بانه اذا لم تتوافر خطط للتنمية طويلة الامد فيفضل ان تكون التخصصات عريضة تتيح للمتخرجين في الجامعة العمل في مجالات متنوعة بحيث يستطيعون سد حاجات

مختلف القطاعات والمشروعات التي يتقرر انشاؤها في المستقبل .

3 ـ **تجنب الازدواج بين الاعداد الاكاديمي والاعداد التطبيقي** ومراعاة الاحتياجات الفعلية للمجتمع

5 ـ زيادة الاهتمام بالعلوم الانسانية والاجتماعية في الكليات العلمية العملية .

6 ـ لما كان توفير المختبرات والاجهزة العلمية والمكتبات يحتاج الى نفقات كبيرة قد لا تتحملها الطاقات المحلية ، فان المؤتمر يوصي بالتنسيق بين مراكز البحث والجامعات بحيث يستفاد من الامكانيات الموجودة وذلك بانشاء معامل ومكتبات مركزية وتوفير خدمات التوثيق العلمي. وفي هذا المجال يوصي المؤتمر بأن تتبنى البلاد العربية مشروع **انشاء مؤسسة عربية لتصنيع وصيانة ادوات واجهزة المختبرات والوسائل التعليمية** .

7 ـ توفير اعضاء هيئات التدريس اللازمين للقيام باعباء التدريس بحيث تصل نسبة هيئة التدريس الى الطلاب في اقرب وقت ممكن الى النسب المقبولة عالميا .

8 ـ ان تتحمل الجامعات والمعاهد العليا مسؤولياتها في **متابعة النمو العلمي للخريجين** عن طريق البرامج التدريبية ووسائل النشر والاعلام ومراكز خدمة الخريجين .

« التوصية الخامسة »

اعداد الباحثين العلميين :

ان المؤتمر اذ يدرك ان اية نهضة علمية اصيلة تقوم اساسا على اكتاف مجموعة من الباحثين في المجالات المختلفة ، قادرين على **تنشيط حركة البحث العلمي وربطها بالحركة الاجتماعية والاقتصادية** ، فانه يوجه النظر الى ضرورة الاهتمام باعدادهم وتوفير الظروف الملائمة لهم ، وفي هذا المجال يوصي بما يلي :

1 ـ لما كانت اساليب البحث العلمي واهدافه في الجامعات قد تختلف عنها في مؤسسات البحث العلمي الاخرى والتي ينبغي ان يرتبط العمل فيها باحتياجات تنمية المجتمع ، فان المؤتمر يوصي عند تقويم اداء العلميين العاملين في مجالات البحوث التطويرية والتطبيقية **بالاعتماد على الانتاج العلمي بدلا من الاقتصار على اعداد رسائل الماجستير والدكتوراه .**

2 ـ لما كان خريج الجامعة يحتاج قبل قيامه بالبحث الى تدريب خاص يكسبه المهارات الاساسية اللازمة للبحث فان المؤتمر يوصي **بانشاء دراسات خاصة للخريجين** الذين يدخلون ميدان البحث العلمي وتقويم عملهم فيها للتعرف على صلاحيتهم لمتابعة البحث العلمي .

3 ـ تشجيع الربط بين بحوث الماجستير والدكتوراه وغيرها من البحوث الجامعية وبين احتياجات المجتمع ما امكن ذلك .

4 ـ يرى المؤتمر ان هناك حاجة الى مزيد من الاهتمام بالدبلومات المهنية التطبيقية بحيث تتنوع وتاخذ صورة ذات طبيعة تطبيقية يقصد بها اعداد المتخصصين المهنيين اعدادا علميا وعمليا للعمل في فروع التخصص التي يحتاجها المجتمع .

5 ـ **تشجيع الباحثين على متابعة تكوينهم العلمي** بالانتساب الى دراسات ودورات تدريبية لرفع مستواهم بشكل مستمر .

6 ـ الاهتمام باعداد **وتدريب اخصائيين في التوثيق والنشر العلمي** .

7 ـ الاهتمام باعداد **وتدريب اخصائيين في اعمال الادارة العلمية والتخطيط العلمي** .

« التوصية السادسة »

اعداد الفنيين والمعاونين في البحث العلمي :

لاحظ المؤتمر ان مرافق المؤسسات العلمية والانتاجية لاسيما المراكز الصناعية في الوطن العربي تعاني نقصا كبيرا في الفنيين ، مع ان العمل في هذه المرافق يستند الى خدمات الفنيين في عمليات التنفيذ بقدر ما يحتاج الى المهندسين والعلميين من ذوي الاختصاصات العالية في عمليات التصميم والبحث . لذلك يوصي المؤتمر بما يلي :

1 ـ **الاهتمام باعداد ورعاية الفنيين والمعاونين في** شؤون البحث العلمي في قطاعاته المختلفة بخاصة الفئات التالية :

ا ــ المختصون بصيانة واصلاح الاجهزة العلمية .

ب ــ المختصون باجهزة القياس الدقيق والتحليلات ومختلف التحضيرات العلمية

ج ــ الفنيون المدربون على الاجهزة الالكترونية واجهزة الصناعات الكيميائية والتعدينية وغيرها .

د ــ الفنيون فى اعمال التصميم والتجارب نصف الصناعية .

هـ ــ الفنيون فى اعمال الرسم والتصوير العلمي.

و ــ الفنيون اللازمون للمعاونة فى اعمال المكتبات والتوثيق والنشر العلمي .

ويجب ان يكون اعداد الفنيين متناسبا مع متطلبات العمل .

2 ــ تشجيع الفنيين ماديا ومعنويا وذلك بتحسين اوضاعهم المادية وتنمية الشعور بأن عمل الفنيين لا يقل اهمية عن الاعمال العلمية الاخرى.

3 ــ ان يكون المشرفون على اعداد وتدريب الفنيين من مدرسين ومدربين من ذوي الخبرة الفنيين المتمرسين بمثل هذه الاعمال .

« التوصية السابعة »

هجرة العلميين ووسائل الاحتفاظ بهم :

يوصي المؤتمر بأن تراجع كل دولة عربية الظروف التي تدفع العلميين العرب الى الهجرة مثل :

ــ ضعف الدعم المادي للعمل العلمي وقلة دخل العلميين التي تصرفهم عن تكريس جهودهم للعمل العلمي المنتج .

ــ عزلة العلميين بعضهم عن بعض على الصعيدين المحلي والعربي وعدم اشتراكهم فى وضع خطط التنمية فى بلادهم .

ــ التركيب البيروقراطي لكثير من المؤسسات العلمية وطرق التوظف فيها والتي ادت الى وضع كثير من غير المناسبين فى مسؤوليات حساسة فى ميدان العمل العلمي ومن ثم سلبية كثير من العلميين العائدين بعد تدريبهم وتاهيلهم فى الخارج .

ــ القيود التي تفرض فى بعض البلدان العربية على حرية العلميين فى التفكير والعمل وعدم الاستقرار فى مجالات العمل العلمي وهيئاته ؛ مما يضر باستمرارية العمل .

كما يوصي المؤتمر كل دولة عربية بالعمل على **الاحتفاظ بالعلميين داخل الوطن العربي وعلى حسن الافادة من طاقاتهم ، وعلى ترغيب من هاجر منهم فى العودة** ، وذلك بتوفير المناخ العلمي الملائم والمشجع عن طريق اتخاذ الاجراءات التالية :

1 ــ توفير الدخل المادي الكافي الذى يضمن تكريس كل جهود العلميين لواجباتهم العلمية مع وضع الحوافز المادية والمعنوية لهم .

2 ــ **رفع القيود على تحركات العلميين** داخل الوطن العربي للاغراض العلمية واعطاء العلماء العرب الاولوية فى شغل الشواغر فى الوطن العربي ضمن برنامج المنظمات الدولية .

3 ــ **انشاء مركز عربى لجمع بيانات عن احتياجات الوطن العربي من العلميين فى حقول التخصص** المختلفة وكذلك جمع بيانات عن القوى العلمية العربية العاملة فى الوطن العربي وخارجه ، وذلك من اجل التنسيق بين احتياجات الدول العربية المختلفة بما يضمن توزيعا متكاملا للعلميين واستخدام اكبر عدد ممكن منهم داخل الوطن العربي .

4 ــ مبادرة الدول العربية الى **وضع خطط مشتركة تحدد فيها مشكلاتها العلمية واحتياجاتها من العلميين** وترصد لها الإمكانيات اللازمة لتنفيذ الخطة العربية المشتركة وحل ما يعترضها من عقبات .

5 ــ متابعة القيام بدراسات ميدانية تهدف الى **التعرف على المشكلات التي واجهها ويواجهها العلميون العرب** داخل الوطن العربي ومسببات هجرتهم .

6 ــ اعادة النظر فى مؤهلات العاملين فى مختلف الحقول الانسانية فى البلاد العربية وشغل تلك الحقول بذوي المؤهلات العلمية النادرة المتخصصة .

7 ــ مبادرة الهيئات العلمية الى خلق **مدارس البحث العلمي** المرتبطة باحتياجات المجتمع كوسيلة لربط العلميين بمجتمعهم وللحفاظ على العلميين الذين يعودون الى هذه الهيئات من الخارج ولتوضيح الدور الذي يجب ان يلعبه العمل العلمي فى بناء المجتمع العربي .

8 ــ **انشاء صندوق عربي يتولى تنفيذ برنامج لتبادل العلماء العرب** داخل الوطن العربي من جهة وبين المؤسسات العلمية العربية ونظيراتها فى الدول المتقدمة من جهة اخرى .

9 ــ اتخاذ الاجراءات الضرورية للحد ما أمكن من خروج الطلبة العرب للدراسة الجامعية الاولى الى الجامعات الاجنبية خشية انصهارهم فى المجتمعات الاجنبية التي يذهبون اليها .

« التوصية الثامنة »

مسح الامكانيات العلمية :

يوصي المؤتمر ان تقوم كل دولة عربية بالعمل على **تحقيق مسح شامل وكامل لمؤسسات البحث فيها** وذلك من حيث تركيبها واماكنها وتجهيزاتها وقدراتها والعاملين فيها (مؤهلاتهم وخبراتهم) وتمويلها والجهات التي تتبعها ومواضع اختصاصاتها ونشاطها وذلك تمهيدا للاستفادة من امكانياتها فى خطط الانماء والبحث العلمي ولاستكمال نواقصها وتمهيدا لاستحداث وحدات جديدة فى اماكن وميادين تعين على ضوء الحاجات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، كما يوصي بأن يكون جمع هذه البيانات والاحصاءات مستمرا ، وان تعمل ادارات الامانة العامة للجامعة العربية (الادارة الثقافية ــ قسم العلوم والتكنولوجيا وغيرها) على جمع هذه البيانات من الدول العربية وتصنيفها ونشرها .

« التوصية التاسعة »

تنظيم البحث العلمي على النطاق المحلي :

يوصي المؤتمر بأن تعمد كل دولة عربية الى **انشاء هيئة مركزية على اعلى مستوى** تتمتع بالاستقلال الاداري والمالي وتكون مهمتها **وضع السياسة العلمية الوطنية وتوجيه البحث العلمي** وتنسيقه وتشجيعه واعداد الباحثين والعلميين على ضوء خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

ويوصي المؤتمر بأن تنظم البلاد العربية**مؤسسات** البحث العلمي فيها على ضوء المسح الذي تجريه ، وهي تؤكد ضرورة وضع خطة علمية تستهدف التنسيق بين مختلف مراكز البحث بحيث تستفيد الى اقصى حد من الامكانيات العلمية المتوفرة وتوجهها الى تناول مواضيع البحث ذات الاهمية بالنسبة لحسن استغلال الموارد الطبيعية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية . كما يوصي المؤتمر بأن تتوخى خطة انشاء وتدعيم مراكز البحث تمكين هذه المراكز من تحقيق دورها فى ميادين البحث الاساسي والتطبيقي والتكنولوجي وفى اعداد العلميين والباحثين الرئيسيين والمساعدين على السواء . وان يتم **توزيع البحوث على المؤسسات العلمية** بحيث تاتي متكاملة فى خدمة المصلحة الانمائية العامة وبحيث تتجنب التكرار والازدواجية مع التاكيد على اهمية دور الجامعات فى البحث العلمي ، وبحيث **يقوم البحث العلمي بدوره كجسر لنقل التكنولوجيا الحديثة الى البلاد العربية** .

« التوصية العاشرة »

تنظيم البحث العلمي على نطاق الوطن العربي:

ان التنسيق بين جهود الدول العربية فى المجال العلمي ضرورة ملحة لتحقيق اهدافها القومية وعبور فجوة التخلف، وبخاصة ان المشكلات التى تواجهها هذه الدول فى حقول التنمية الاقتصادية والاجتماعية تتشابه موضوعيا ، مما يحتم عليها ان تتعاون وان تنسق جهودها لحاقا بالتقدم العلمي والتكنولوجي المعاصر ، وبخاصة ان التحديات الراهنة والمقبلة التى تواجه وستواجه الامة العربية قد وصلت الى مرحلة بالغة الخطورة ، وان عناصر التقدم العلمي من موارد بشرية وامكانات مادية وطبيعية ليست موزعة بشكل متوازن على رقعة الوطن العربي .

لذلك يؤكد المؤتمر **اهمية التعاون العربي فى حقل البحث العلمي** ، وضرورة التنسيق والتوثيق وتبادل الخبرات والمعرفة ، ويوصي بما يلي :

اولا ــ ان يبادر العلميون فى مختلف الحقول اينما وجدوا فى الوطن العربي الى **انشاء جمعيات علمية عربية تضم الاختصاصيين فى الحقول العلمية**

المترابطة والمتداخلة في جميع البلدان العربية وعلى سبيل المثال تنشأ الجمعيات الآتية :

ا ـ جمعية العلوم الرياضية والفيزيائية .

ب ـ جمعية العلوم البيولوجية .

ج ـ جمعية العلوم الكيميائية والجيولوجية .

د ـ جمعية العلوم الهندسية .

هـ ـ جمعية العلوم الطبية .

و ـ جمعية العلوم الزراعية

ز ـ جمعية العلوم الاجتماعية .

ح ـ جمعية العلوم الادارية

ط ـ جمعية العلوم الاقتصادية

على ان تتضمن مهام هذه الجمعيات اصدار دوريات علمية لنشر البحوث على مستوى الوطن العربي وعقد المؤتمرات العلمية الدورية

ثانيا ـ ان يقوم اتحاد الجامعات العربية ـ وهو اطار مناسب للتنسيق العلمي بين الجامعات العربية ـ بدور اكثر فعالية في هذا المجال . ويحتاج ذلك الى :

1 ـ مزيد من الدعم المادي من الجامعات والحكومات العربية .

2 ـ توسيع قاعدة المؤتمر العام لاتحاد الجامعات ليشمل ممثلين لاعضاء هيئة التدريس من غير اعضاء مجالس الجامعات ومن مختلف التخصصات العلمية ، وعلى ان يعقد المؤتمر العام للاتحاد مرة كل عام .

3 ـ تنشيط عمل لجان الاتحاد الفنية واشراك اكبر عدد ممكن من اعضاء هيئة التدريس الراغبين والقادرين على المساهمة فيها .

4 ـ عقد مؤتمرات دورية تمثل اقسام التخصص في كل جامعة لتنسيق شؤونها العلمية والتعليمية .

5 ـ عقد حلقات دراسية لبحث المشكلات التي تواجه التعليم الجامعي في الوطن العربي مع الاهتمام بوجه خاص في المراحل القادمة بالموضوعات الآتية :

ا ـ مركز الاقسام العلمية وخصوصا البحث منها نظرا لتداخل فروع العلم المتقاربة ولتجنب بعثرة الامكانيات .

ب ـ التنسيق فيما بين الاقسام التخصصية في الجامعات المختلفة لتوزيع اهتماماتها في مجال البحوث والدراسات العليا وتوزيعها بحيث تصبح متكاملة ومتفاعلة .

ج ـ اعداد ونشر دليل سنوي لاعضاء هيئة التدريس والعاملين في الجامعات العربية في مختلف حقول التدريس .

د ـ التنسيق بين الجامعات العربية في مجال المشاركة العربية في المؤتمرات العلمية والدولية وتنظيم الاستفادة منها .

هـ ـ اعداد دراسة تستهدف وضع معدلات سليمة لتكلفة تعليم وتاهيل الطالب في مراحل التعليم العام والتعليم الجامعي .

ثالثا ـ انشاء مجلس علمي عربي يضم البلاد العربية وتكون من بين مهامه الامور التالية :

1 ـ انشاء وادارة مراكز البحوث الاقليمية .

2 ـ انشاء وادارة مراكز الخدمات العلمية الاقليمية .

3 ـ انشاء وادارة مراكز اقليمية لتدريب الفنيين العلميين .

4 ـ انشاء وادارة مركز للتوثيق العلمي .

5 ـ انشاء مركز يتابع تطور الحركة العلمية لدى العدو واستعمال العلم في جميع مجالات حياته .

6 ـ تعميم البحث العلمي عن طريق تقديم المنح للباحثين حيثما كانوا في الوطن العربي .

7 ـ تبسيط العلوم ونشر الثقافة العلمية باللغة العربية لمختلف فئات الشعب .

ويرى المؤتمر ان يستفيد هذا المجلس ما امكن مما هو متوفر من مؤسسات علمية تقوم الآن في البلدان العربية وذلك اما بتقويمها او بالحاق اقسام للخدمات والبحث فيها .

ويرى المؤتمر كمدخل لتحقيق ذلك ان تبادر الامانة العامة لجامعة الدول العربية (قسم العلوم

والتكنولوجيا) الى دعوة عدد من العلماء الاكفياء فى الوطن العربي لوضع مشروع نظام هذا المجلس وعرضه على مجلس الجامعة فى اول اجتماع مقبل له .

« التوصية الحادية عشرة »

التعاون العلمي العربي :

ينوه المؤتمر باهمية **التعاون العربي فى مجال البحوث العلمية** والمراكز الاقليمية المشتركة (من امثال مركز النظائر المشعة والمركز الاقليمي العربي لدراسات المناطق الجافة والاراضي القاحلة ومراكز البحوث التي اقرها مركز التنمية الصناعية التابع للجامعة العربية) ، وبالنشاط الذى يقوم على نطاق الوطن العربي وينوه باهمية « المجلس العربي المشترك للطاقة الذريـة » الذي قرر انشاءه مؤتمر القمة الثاني .

ويوصي بأن يكون انشاء مراكز البحوث الاقليمية مرتبطا بموضوعات علمية تهم الوطن العربي والتنمية الاقتصادية فيه .

التوصية الثانيـة عشـرة »

التوثيق والنشر العلمي :

نظرا لان نتائج البحوث العلمية اصبحت تنشر فى العالم فى ملايين من التقارير العلمية بعشرات اللغات، فقد اصبح **التوثيق العلمي من اهم الامور التي يجب ان تعنى بها مؤسسات البحث العلمي** ، ويعتمد التوثيق العلمي الكامل اليوم على اجهزة حديثة بالغة النفقة لذلك يوصى المؤتمر بأن تتعاون البلاد العربية على انشاء مركز للتوثيق العلمي يستخدم الوسائل والاجهزة الحديثة ويكون فى خدمة البحث العلمي على الصعيد العربي كله .

« التوصية الثالثة عشرة »

تنظيم براءات الاختراع والملكية الصناعية :

يوصي المؤتمر بانشاء وتنظيم **جهاز براءات الاختراع فى كل دولة عربية**، على ان يكون الجهاز ادارة استقبال أسرار التكنولوجيا المرفقة بطلبات براءات الاختراع ، واداة ارسال تلك الوثائق الى مراكز البحث العلمي والجامعات والمصانع ، واداة متابعة تعميم تطبيق احدث الاختراعات فى الصناعات الرئيسية . على ان تتبع ادارة براءات الاختراع الجهاز العلمي المركزي فى الدولة ، وان يتمتع الجهاز بكيان ذاتي . ويتعين ان يتضمن جهاز براءات الاختراع فضلا عن الادارة التقليدية التي تختص بالاجراءات والتسجيل ، ادارة تكنولوجية واقتصادية ، وادارة وثائق واعلام ، وادارة ابحاث قانونية وعلاقات دولية .

ويوصي المؤتمر البلاد العربية بالعمل على **اعداد فئة من العلميين والقانونيين والاقتصاديين واخصائي الوثائق والمكتبات تتخصص علما وعملا فى براءات الاختراع والملكية الصناعية .**

« التوصية الرابعة عشرة »

يوصي المؤتمر بالتعاون بين الدول العربية فى مجال **الملكية الصناعية بتكوين مركز للملكية الصناعية** ووثائق براءات الاختراع . ويختص المركز بالعمل على تنسيق تشريعات الملكية الصناعية فى الدول العربية وتوجيه حركة التشريع لتحقيق مصالح الدول العربية **وحماية حقوق المخترعين العرب** كما يختص بالقيام بالابحاث الخاصة بالاتفاقيات الدولية فى الملكية الصناعية واعمال وثائق براءات الاختراع ونشر هذه الوثائق .

« التوصية الخامسة عشرة »

تمويل البحث العلمي :

يوصي المؤتمر بأن تخصص كل دولة عربية للبحث العلمي ما لا يقل عن الواحد بالمائة من الدخل القومي العام على ان ترتفع هذه النسبة الى اثنين بالمائة فى ظرف ثلاثة اعوام . ويكون توزيع اعتمادات هذه المخصصات مرتبطا بخطة البحث العلمي التي تنبثق من خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

« التوصية السادسة عشرة »

دور العلم والعلميين فى مواجهة التحديات :

لما كان الاعداد العلمي يحتاج الى وحدة فكر وعمل بين جميع الاجهزة المسؤولة عنه ، ولما كان هذا الاعداد يتم ضمن اطار اجتماعي يوجهه نحو

غاياته المرجوة ، ولما كان للعلم دور رئيسي فى مواجهة متطلبات المعركة المستمرة مع الامبريالية وقاعدتها الصهيونية وهو دور لن يتحقق الا باتخاذ التدابير اللازمة على المستوى الوطني وعلى المستوى القومي فان المؤتمر يوصي بما يلي :

1 ــ ضرورة **وضع سياسة عامة للاعداد العلمي** تنبثق من واقع الوطن العربي وتكون على مستوى التحديات التى تواجهه عسكريا واقتصاديا وحضاريا ، وتحقق متطلباته واحتياجاته فى ضوء خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعبئة العسكرية .

2 ــ الاسراع باجراء الدراسات الخاصة بالعدو وطاقاته وامكانياته وسياساته العلمية والطرق التي يتبعها فى المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية والتكنولوجية واجراء دراسات عن طاقاتنا العربية التي يجب حشدها من اجل المواجهة الحالية والمستقبلة مع العدو . وفى هذا المجال أيضا يشير المؤتمر الى اهمية الاستعانة بملحقين علميين يتم تعيينهم فى الدول المختلفة لجمع المعلومات العلمية .

3 ــ تنظيم وتدريس **برامج ثقافية عامة** ومناهج فى التعليم العام والجامعي **تتناول عدونا وطاقاته** وطرق مواجهته والتعريف كذلك بالانجازات العربية .

4 ــ الاهتمام بالدراسات التي تهدف الى رفع مستوى العلوم ذات التطبيقات العسكرية فى الجامعات والمعاهد الفنية العالية .

5 ــ انشاء **معاهد تكنولوجية متخصصة** او اضافة فروع للمعاهد القائمة تختص بالدراسات والبحوث ذات الصلة بالعمل العسكري وفى هذا المجال ، يوصي المؤتمر الدول العربية التي توجد بها نواة لمثل هذه المعاهد ان تضمها فى خدمة العمل العربي الشامل بغرض تنميتها لتحقيق اهداف نضالنا القومي .

6 ــ الاهتمام **بايجاد جهاز من العلماء المتخصصين ضمن القيادة العسكرية** لكل دولة عربية فى اطار الدفاع المشترك. ويكون هذا الجهاز مسؤولا عن تقديم معوناته بشأن وضع العلم واجهزته وبحوثه فى خدمة العمل العسكري .

7 ــ **تعبئة جميع الطاقات العلمية العربية الموجودة فى الوطن العربي** وخارجه لتوجيهها نحو خدمة متطلبات المعركة الحالية ، وفى هذا المجال يشير المؤتمر بصفة خاصة الى توجيه قدرات البحث العلمي لانتاج اسلحة مناسبة بموارد متاحة داخل الوطن العربي ، هذا الى جانب تدريب ابناء الامة العربية على المهارات الحربية والادارية المناسبة.

8 ــ يناشد المؤتمر اجهزة الاعلام فى الوطن العربي **اعطاء مزيد من الاهتمام لنشر الوعي العسكري العلمي** حتى يكون جميع افراد الامة العربية على مستوى متطلبات المعركة سواء بالنسبة للعمل العسكري المباشر او بالنسبة لوسائل الدفاع المدني .



التأنيث في العربية

الأستاذ عبدالحق فاضل «الدار البيضاء»

قرأت منذ اكثر من عشرين عاما — في مطبوع ما ، لعله مجلة غاب عن بالي عنوانها — لمستشرق نسيت اسمه — بحثا شائقا حاول فيه تفسير ظاهرة التانيث في لغتنا بما فيها من غرابة ومفارقات. والذي تستطيع الذاكرة ان تستعيده الآن من ذلك البحث هو النقطتان الاساسيتان اللتان عليهما كان مدار الموضوع.

النقطة الاولى قوله ان العرب انثوا من الجمادات ما هو شبيه بالانوثة مما كان مثقوبا او عميقا او موطوءا او نحو ذلك ، كالرحي والبئر والارض . وبوسعنا جريا على هذه النظرية ان نضيف الى ذلك من الجمادات المؤنثة التي تشبه المرأة ما كان ساميا كالسماء، ووهاجا كالشمس ، ومتقلبا كالريح ، ومحرقا كالجحيم، ومدمرا كالحرب ..

والنقطة الثانية قوله ان العرب كانوا قد مروا في احد عهودهم القدمى بمرحلة الامومة كغيرهم من الامم ، اي مرحلة سيادة المراة الام على العائلة قبل الانتقال الى مرحلة الابوة اي سيادة الرجل الاب . ويخيل لي ان المستشرق قد استشهد على رايه هذا بنبذة من كلام هيرودتس عن علاقة مغايرة للمالوف الحديث كانت على عهده قائمة بين الرجل والمراة ، لدى بعض العرب ، ولا نحسب ان ذلك الاستشهاد كان وافيا بمرامه لانه لا يدل على سيادة المراة فيما نذكر . وعلى اية حال كان من تاثير سيطرة الانثى الام، على قوله ، ان العرب انثوا الكثير من اسماء الاشياء غير المؤنثة ، حتى من الذكور البشر ، كتانيث اسم العدد من الثلاثة الى العشرة ، فقالوا مثلا : (سبعة) رجال ، بدلا من : سبع رجال .

ولا يحق لنا التمادي اكثر من هذا في عرض راي الباحث المستشرق اعتمادا على الذاكرة بعد هذا الامد المتطاول ، مخافة ان نظلم الرجل فنعزو اليه ما نتوهم انه قاله وهو لم يقله ، او قاله على نحو آخر . لكننا نذكر اننا حين قرانا ذلك البحث لم نقتنع بتاويلاته ولو اننا تقبلناه على انه مقال طريف ومحاولة جريئة لتفسير ظاهرة لغوية غريبة ، من زاوية جديدة .

اما بصدد النقطة الاولى فان الكثير من اسماء الجمادات لا يخضع للقاعدة المذكورة فقد وردت في العربية مؤنثات من الجمادات لا مشابهة لها بالانوثة كالعصا والفاس والذراع ، ومذكرات لا شبه لها بالذكورة كالوادي والغار ، والجب المرادف للبئر المؤنثة .

واما بصدد النقطة الثانية فاذا اعتبرنا التانيث في بعض الحالات تكريما للمراة حيث قيل سبعة رجال فان الباحث لم يذكر فيما نظن ان اسم العدد يذكر ايضا مع المؤنث — مما يقلل هيبة المراة ويغل من سطوتها — فيقال (سبع) نساء ، بدلا من سبعة نساء . ولعل المستشرق الفاضل قد ذكر ذلك وفسره بطريقة لم تقنعنا على كل حال .

ولاندري الآن ما اذا كان قد فاته كذلك ان الجمادات تؤنث وتذكر في اللاتينية وبناتها . فهل نعزو ذلك الى مشابهة المسميات للذكورة والانوثة او الى سيطرة الام على الرومان قبل ان تتوطد لديهم سيطرة الاب ايضا ؟

ويلاحظ ان اسم الجماد الخلو (1) في اللاتينيات اما مذكر فقط واما مؤنث فقط . واما في العربية فان الكثير من اسماء الاخلاء يجوز فيها التذكير والتانيث . فهذا يضعف راي المستشرق الباحث في قوله ان لمشابهة الاشياء بالانوثة علاقة بالمسالة . ولو نحن مضينا في التطبيق قياسا على نظريته لقلنا ان جواز التذكير والتانيث في الكثير من اسماء الاخلاء في العربية يدل على مرور العرب بعهد سادت فيه الخنثى على العائلة.

قبل الادلاء برايانا في تفسير ظاهرة التانيث يطالبنا الانصاف ان نحيي هذا الجهد المخلص الذي انفقه المفضال المستشرق — المجهول لدينا في الوقت الحاضر ، وقد نهتدي الى معرفة اسمه ذات يوم — فهو وامثاله من الباحثين الاجانب ، الذين قاموا بعملية استكشاف واسعة المجال في قارة التراث العربي ومنه تراث اللغة ، قد اسدوا الى العربية خدمات قيمة مشكورة ، ولا عتب عليهم ان اخطاوا احيانا ، فان لهم الفضل انهم اصابوا احيانا كثيرة اخرى .

الضمائر العربية :

اذا حللنا الضمائر العربية — انا ، انت ، هو .. الخ — نجدها تتالف من ثلاثة عناصر اساسية : الالف والنون والتاء . وقد تطرقنا في كتابنا « مغامرات لغوية » (في فصل اسرار الضمائر) (2) بشيء من التفصيل الى هذه العناصر الضميرية الثلاثة التي نطقها الانسان الاقدم (ا) و (نا) و (وتا) اول الامر ، ثم تطورت فتعددت صيغها وتنوعت معانيها ، اي ان الاقدمين كانوا يختلفون في نطق هذه الضمائر فنشات لها صيغ كثيرة ، وكانوا لفقرهم اللغوي يستعملون كلا من تلك الصيغ في مختلف المعاني التي يتوقون الى الافصاح عنها ولا يجدون الالفاظ المعبرة عن كل منها .

وكانوا يلحقون هذه العناصر البدائية الثلاثة (ا ، نا ، تا) بالاسماء والافعال كضمائر او اسماء اشارة ، فمن الحاقهم الهمزة بها مفتوحة ومضمومة ومكسورة نشات حركات الاعراب ، ومن الحاق النون بها نشا التنوين بمختلف حالاته .

التـــاء :

والذي يهدينا اليه استعراض الضمائر العربية في شتى احوالها وصورها هو ان هذه العناصر الضميرية البدائية الثلاثة لم تنشا في مكان واحد عند فريق معين من الاعربين (العرب الاوائل) ، بل ان كل طائفة منهم كانت تستعمل واحدا من هذه الضمائر. ففريق منهم كانوا يستعملون ضمير (تا) كما كان فريق ثان يستعملون ضمير (ا) وفريق ثالث ضمير (نا) كالذي فصلناه وعللناه في كتابنا الانف الذكر ، فلا حاجة للاعادة فيه هنا .

وهكذا كان نصيب التاء ان الحقوها كاخويها الضميرين الآخرين بالاسماء والافعال . وهذا هو سر وجود التاء في بعض الاسماء مثل : جبهة ، هضبة ، اجمة ، مقدرة ، خشية .

فليس التانيث هو الغرض من التاء في اسماء هذه الاشياء المجردة من اي اثر لاي تانيث او تذكير ، وانما التاء هنا مجرد بقية اثرية من عهد لغوي مندرس بعيد كانوا فيه يلحقونها بكل الاسماء والافعال .

وقد كان من نتيجة اختلاط القبيل الذين يستعملون التاء بغيرهم من الاعربين الذين لا يستعملونها ان ضعف شانها وقل استعمالها حتى انها سقطت من كثير من الافعال مثل : افعل ونفعل ويفعلون ، ومن معظم الاسماء مثل : جبل ، طير ، نهر ، ارض ، كوكب ، تراب ، بحر ... وبقيت عالقة باسماء اخرى كالتي ذكرناها : هضبة ، جبهة ، الخ ... وبقيت متارجحة في اسماء اخرى حيث يمكن حذفها واثباتها في مثل : ليل ونجم .

قلنا ان التاء الحقوها بالاسماء والافعال لاداء معنى الضمائر او اسماء الاشارة اول الامر ، لكن تطاول الاحقاب وتعاقب الاجيال جعلها تظهر اولا في صور مختلفة بسبب اختلاف القوم في نطقها كما قلنا ،

---

1) نستعمل كلمة الخلو — زنة الصنو والشلو — بمعنى الشيء الخالي من الانوثة والذكورة . ومؤنثها : الخلوة ، وجمعها : الاخلاء — زنة الاشلاء .

2) وفي مجلة « اللسان العربي » العدد الخامس ، لسنة 1967 .

وتؤدي ثانيا اغراضا مختلفة بسبب الفقر اللغوي الذي المعنا اليه ما اضطرهم الى استعمال الكلمة الواحدة في اكثر من معنى واحد .

فمن اختلاف الطوائف الاعربية في نطقها نجدها في لغتنا مضمومة ومفتوحة ومكسورة وساكنة . ومن بقايا استعمالها بمعنى مختلف الضمائر سوف يستغرب القارىء ان نقول له ان (تو) ما زالت تعني انت بالعربية ، وان (تا) تعني انت المخاطب ، و (تي) تعني انت المخاطبة ، و (ات) تعني هي . لكننا نجد هذا كله جليا مدهشا في الفعل الماضي ، فالتاء المضمومة تعني انا في فعلت (= فعل + تو)، والمفتوحة تعني انت في : فعلت (= فعل + تا) ، والمكسورة تعني انت في : فعلت (= فعل + تي) ، والساكنة تعني هي في : فعلت (= فعل + ات) . وهذه الصيغة الاخيرة (أت) قد ذابت همزتها كما تذوب الهمزة في كثير من الحالات التي سميت فيها همزة وصل .

وظائف التاء :

اوضحنا في كتابنا المذكور كيف تفقد الضمائر احيانا وظائفها اي معانيها ، او تعتاض منها وظائف اخرى . وقد كان شأن التاء في هذا شأن غيرها من الضمائر فقد تقلبت عليها احداث لغوية افقدتها وظيفتها احيانا وابدلتها بها وظائف اخرى احيانا اخرى ، في ظروف تطورية مثيرة ، نجملها فيما يلي :

اولا : فقدت التاء وظيفتها تماما في بعض الاسماء مثل : نجمة وضفدعة وماءة — فيجوز لك حذف التاء من هذه الاسماء فتقول : نجم وضفدع وماء ، بنفس المعنى . اي ان التاء هنا لم تستطع ان تجد لها وظيفة ما او تتخصص بحالة معينة تميزها عن حالة تجرد الاسم من التاء . فيمكننا على هذا أن نسميها (التاء الزائدة)

ثانيا : وجدت التاء لنفسها بعض الوظائف تؤديها في بعض الحالات ، من ذلك انها تغير معاني بعض الالفاظ مثل : الظهير والهاجر والجر . فهذه الالفاظ تكتسب معاني جديدة ليست لها اية علاقة بمعانيها الاصلية حين تلتحق بها التاء فتصبح : الهاجرة والظهيرة والجرة . فهذه قد يجوز تسميتها (تاء التغيير).

ثالثا : صارت التاء تختلق معنى لبعض الالفاظ التي لا معنى لها . وبتعبير آخر ان التاء صارت جزءا متمما لبعض الاسماء بحيث تصبح لا معنى لها اذا حذفت التاء منها ، مثل : الامسية والبكرة والرئة والبؤرة — فلا معنى لالفاظ الامسي والبكر والرىء والبؤر . اي ان التاء هنا قد التصقت ببناء الكلمة فاصبحت جزءا من نسيجها كحروفها الاصلية . وهذه يصح ان نسميها (التاء اللازمة) .

رابعا : صارت التاء اداة لتكوين بعض المصادر كما في الفعلين: دحرج واستقام، فمصدراهما: دحرجة واستقامة — وهي قاعدة قياسية لا حيد عنها ، اما في الفعل المضعف فان التاء وجوبية احيانا في مثل : وصى توصية وعبا تعبئة .. وجوازية احيانا في مثل : قدم تقدمة او تقديما ، وكرم تكرمة او تكريما .. وممنوعة احيانا كما في علم تعليما وكسر تكسيرا ، فلا يقال تعلمة وتكسرة . وهذه أجدر بأن تسمى (التاء المصدرية).

خامسا : صارت التاء تؤدي معنى الحرفة في مثل: الكهانة والسفارة والسدانة والعيافة — اي حرفة الكاهن والسفير والسادن والعائف . وهذه نسميها (تاء الحرفة) .

سادسا : صارت التاء تؤدي أيضا معنى توكيد الصفات في مثل : النسابة والذواقة والراوية . فاذا حذفنا التاء من هذه الصفات فقلنا النساب والذواق والراوي ، ضعفت قوة المعنى ، على حين انه لا يجوز حذفها من بعض الصفات المؤكدة بها مثل الطلعة والهمزة واللمزة (بضم الاول وفتح الثاني في اللفظات الثلاث) — اي الكثير التطلع والهماز واللماز ، فلا يقال فيها : الطلع والهمز واللمز ، وهذه التاء أجدر بأن تسمى (تاء التوكيد) . وهي تاء لازمة في نفس الوقت في الطلعة والهمزة واللمزة .

سابعا : صارت التاء تدل على معنى الافراد في بعض الاسماء كالشجرة والحمامة والسمكة ، فاذا حذفت من هذه الاسماء وامثالها صارت تدل على الجمع اي اسم الجنس : الشجر ، الحمام ، السمك، ولا يمكن اعتبارها تاء تأنيث حتى في الحمامة والسمكة وغيرهما من الاحياء ، لان الكثير من امثال هذه الاسماء تطلق على الذكر والانثى دون تمييز . وتتجلى وظيفة الافراد على نحو أوضح في مصادر بعض الافعال. فالنظرة هي النظر مرة واحدة ، والابتسامة والضربة والاكلة هي الابتسام والضرب والاكل مرة واحدة . فهي اذن (تاء الافراد) .

ثامنا : على العكس من هذا صارت التاء تعني الجمع في اسماء اخرى مثل : العدناني والقحطاني

والمصري واليماني والسياف والخيال .. فقد جمعوها على عدنانية وقحطانية ومصرية ويمانية وسيافة وخيالة ـ اي بمجرد اضافة التاء الى الاسم المفرد دون تغيير في تركيب بنيته . على حين ان بعض الاسماء تتغير بنيتها اذا جمعت بالتاء مثل جمع الماشي والبازي على مشاة وبزاة ، وجمع القائد والسائق على قيادة وسياقة ، وجمع الفساني والمنذري على فسانية ومناذرة ، وجمع الكاتب والفاعل على كتبة وفعلة ، وجمع الدب والفيل على دببة وفيلة .

ومن الطريف ان التاء صارت اداة الجمع في بعض اللغات الآرية ايضا كالانجليزية والفرنسية والاسبانية ، لكن بعد ابدالها سينا (s) ، وابدال التاء سينا موضوع له اهميته اللغوية الخاصة ، وقد اوضحناه في كتابنا الآنف الذكر ، والعدد المذكور من مجلة « اللسان العربي » .

هذا في الاسم ، غير ان فعالية التاء في ميدان الجمع شملت الفعل ايضا ، كما في : قالت الاعراب وتقول الرجال ، فالتاء هنا تعني الجمع لا التانيث كما توهم النحاة ، بدليل ان التاء في قولنا (انفضت الناس) تحل محل واو الجمع في قولنا (الناس انفضوا) ، وانها في قولنا : (تفعل الرجال) تعمل عمل الواو والنون في قولنا (الرجال يفعلون) . وهذه التاء ما هي الا (تاء الجمع) .

تاسعا : واخيرا ناتي الى تاء النحويين ، اي التاء التي تدل على التانيث في اسماء بني الانسان والحيوان اي الكائنات المنقسمة الى اناث وذكور مثل : سراة وهرة ونمرة وسعيدة وعاقلة ـ تانيثا لمرء وهر ونمر وسعيد وعاقل . وهي نفس التاء الملحقة بالفعل الماضي في قولهم : جاءت وذهبت ـ تانيثا لقولهم : جاء وذهب

وكانت التاء الملحقة بالاسماء تنطق صريحة فيما نعتقد حتى عند الوقف عليها في آخر الكلام كما هي الحال في الفعل الماضي (فعلت هي) . وما زال بعض العرب على ذلك اي ينطقون تاء التانيث في الاسماء حتى عند الوقوف عليها فيقولون حين يقراون في الفصحى : الشجاعت والحرارت والانسانيت ـ وهي احدى اللهجات في لبنان . ومثل ذلك يفعل الاتراك والفرس في الالفاظ العربية الثانية المستعملة في لغتيهما مثل: محبت امانت ، سلطنت ، انسانيت ، ملت .

وقد نطق بعض العرب اسماء الاناث بمد الفتحة قبل التاء ، ولا يزال على ذلك بعضهم كالمغتربين في نطق شربات وعنايات (اسم علم للانثى) ، ومع الزمن تخصصت هذه الصيغة المديدة لدى الاعربين بجمع المؤنث السالم ، مثل جميلات وراضيات وفائبات .

في اللاتينية :

وبعض العرب المعاصرين ينطقون تاء التانيث في لغاتهم الدارجة في بعض الاسماء ويهملونها في بعض ، كالعراقيين الذين ينطقونها في مثل: المساوات والحيات والشربت ، ويهملون نطقها في مثل : الحرية والتربية والصلاة .

واهمال نطق التاء في بعض الالفاظ منحدر من اصل عربي عريق فيما يظهر ، منشؤه ان بعض الاعربين صاروا يستطونها في الاسم عند الوقف عليها في آخر الكلام فقط ـ كما هي الحال في الفصحى الى يومنا . وبذلك زالت التاء وبقي منها اثر هو الهاء الساكنة ، ومن هنا صارت المعاجم العربية تسميها (الهاء) بدل (التاء) . والواقع انها ليست هاءا بالمعنى الصحيح فهي على الاغلب تنطق مجرد فتحة على آخر الاسم . ويظهر ان بعض اللهجات القدمى اتخذت ذلك قاعدة عامة لها حتى عند وقوع التاء في داخل الجملة ، وقد بقيت هذه القاعدة في بعض اللغات الآرية كاللاتينية والايطالية ، ففي اللاتينية يقال : filia (بنت) ، و amica (صديقة) ، و lupa (ذئبة) ـ تانيثا لقولهم filius و amicus و lupus . وهذه المؤنثات الثلاث توجد بنفسها في الايطالية ـ غير ان البنت تكتب figlia (وتنطق filia ايضا) . اما مذكراتها في الايطالية فهي : figlio و amico و lupo

واما في الفرنسية فان التاء تنطق صريحة في الالفاظ المؤنثة بها مثل toutes (جميع ، للمؤنث) و cette (هذه) و coite (هادئة) ـ ومذكراتها tous و ce و col يضاف الى ذلك في الفرنسية ان تصغير الاناث ايضا يتم بالحاق التاء في مثل : table (منضدة) و casse (صندوق) و française (فرنسية) ـ وتصغيرها : tablette و cassette و francette

اختلاط الوظائف :

صفوة القول ان التاء وردت فى سمان مختلفة متعددة متميزة ذكرنا ما يحضرنا منها هنا باجمال ، ولا ندري ان كنا قد اغفلنا بعض حالاتها المهمة ، لكننا نتوقع على كل حال ان المستقبل سينتج بحوثا مفصلة فى هذا الموضوع بعد التتبع الطويل والاستقراء الشامل، وما نرجو لحديثنا هذا السريع الا أن يكون خميرة لذلك المستقبل .

ويكفينا الان ما تقدم بنا من مظاهر التاء التى سميناها بحسب وظائفها : التاء الزائدة ، وتاء التغيير، والتاء اللازمة ، والتاء المصدرية ، وتاء الحرفة ، وتاء التوكيد ، وتاء الافراد ، وتاء الجمع ، واخيرا تاء التانيث. افليس من العجب العجاب ان النحاة المشهورين بتدقيقاتهم المبالغ فيها فى بعض التوافه ، لم يميزوا بين حالات التاء المختلفة هذه بل احتطبوها جميعا ، خبط عشواء ، وكدسوها تحت اسم تاء التانيث !

وقبل ان نفرغ من حديث التاء وننتقل الى مظهر آخر من مظاهر التانيث فى العربية يجدر بنا ان نلاحظ ان الاعتباطات التطورية قد عملت عملها فى خلط وظائف التاء بعضها ببعض شانها فى مختلف التطورات اللغوية. اي اننا نجد للتاء اكثر من وظيفة واحدة فى الكلمة الواحدة احيانا ، مثل : تفعل انت وتفعل هي ، تفعلان انتما وتفعلان هما الغائبتان ، اقبلت الجارية واقبلت الفرسان. ومثل ذلك: المراة العدنانية والعرب العدنانية. بل قد تجتمع فى الكلمة الواحدة ثلاث وظائف مثل (النسابة) وهي تعني المراة النسابة او الرجل النساب او الرجال النسابين . وشبيه بذلك (السفارة) التى اكتسبت الآن معنى حديثا بالاضافة الى معناها القديم — فقد صارت السفارة تطلق على المؤسسة الرسمية التى يراسها السفير .

غير ان هذا الاختلاط فى المعاني لا يرفع الملامة من النحويين الذين لم يتفهموا شيئا من نشاطات التاء اصلا ، فقد كان عليهم — جزاهم الله رفعا ونصبا ووقاهم الكسر والجر — ان يميزوا بين بعضها وبعضها ويسموا كلا منها باسمه كما ميزوا مثلا بين حالات النصب الكثيرة فى الاسماء وسموا كلا منها باسمه .

العدد والمعدود

وناتي الآن الى تلك القاعدة الشذوذية التي حيرت الافهام واعتبرت من بدوات اللغة العربية ونزواتها البوهيمية ، وهي قاعدة تانيث العدد (من الثلاثة الى العشرة) مع الذكور وتذكيره مع الاناث ، لنتفهمها على ضوء تحليل وظائف التاء . فما تفسيرها يا ترى؟

مفتاح هذا اللغز هو التفريق بين وظيفتي الجمع والتانيث . فقبل كل شيء يجب أن نعترف بأن التاء فى (الثلاثة) واخواتها انما هي تاء جمع لا تاء تانيث، فحين قال اجدادنا البداة فى عهد جاهلي سحيق : سبعة فرسان ، لم يخطر لهم ان يؤنثوا الفرسان مثلما لم يخطر لهم ان يؤنثوا اليمانيين والغازين والخيالين حين سموهم : يمانية وغزاة وخيالة .

اما فى حالة عد الاناث فقد استثقلوا اجتماع التامين — تاء جمع العدد وتاء تانيث المعدود — فى مثل (خمسة بقراءه) فاسقطوا احدى التامين ، تخفيفا . ولقد كان التطور اللغوي منطقيا جدا هذه المرة اذ اسقط تاء الجمع ، لا تاء التانيث ، لان معنى الجمع مفهوم بذاته فى اسم العدد . اما لو انهم اسقطوا تاء التانيث من البقرات والفتيات والوالدات لتغير معنى التانيث الذى اراده القائل ، فلذلك امتنعوا منه .

وحذف تاء الجمع من العدد ينطبق كذلك على جميع اسماء الاخلاء (الجمادات) المنتهية بالتاء كالنخلات والهضبات والجفنات ، ثم سرى ذلك على جمع اسماء الاخلاء المؤنثة ، ولو لم تكن منتهية بالتاء ، كالعصي والدور والفؤوس والحروب .

هذا التفسير يؤيده لنا انهم وازنوا — لغرض التخفيف ايضا — بين التامين — وكلتاهما للجمع — فى الاعداد المعشرة ، فصاروا اذا نطقوا التاء فى احد شطري العدد اسقطوها من الآخر ، فقالوا : خمسة عشر حصانا وخمس عشرة فرسا ، اي انهم استعملوا تاءا واحدة لكل من المذكر والمؤنث فى كل من الحالتين .

لم يكن غرض القوم اذن تانيث الرجال ولا تذكير النساء ترضية لغرور المراة واعترافا ببأسها .

هـو وهـي :

هذا جانب من حكاية التانيث ، فلننتقل الآن الى الجانب الآخر منها لنتحسس ابعاده فى ضمير الغائب (هو) وتطوراته .

ان تانيث الاسم يعرف من صيغته مثل : جميلة وذلفاء وعطشى ، او من معناه مثل : مرضع وطالق وحامل ، او من الضمير الدال عليه مثل : هي ، هن .

والذي نعتقده ان العرب كانوا اول الامر يستعملون ضمير (هو) للدلالة على الذكر والانثى والخلو جميعا — انسانا وحيوانا وجمادا .. وما زال الامر على ذلك فى الفارسية التي ينطق فيها هذا الضمير بصورته البديئة (او — u)) ، اي كما كان ينطقه العرب قبل ان يبدلوا همزته هاءا . نعني ان العرب كانوا فى عهودهم اللغوية الاولى يقولون : هو الرجل، هو المراة ، هو الشمس ، هو القمر . ثم ظهرت فئة منهم نطقت (هو) بالكسر : (هي) بنفس المعنى . ثم اختلطت هذه الفئة من العرب بغيرها من الفئات العربية فصار المختلطون يقول بعضهم (هو) وبعضهم (هي) ، ثم نشا منهما جيل يستعمل كلا الضميرين بمعنى واحد . ومما يدل على ان الضمير (هي) كان يستعمل اولا للذكر انه ما يزال كذلك فى الانكليزية بنفس النطق (هي : he)) . كذلك اطلق الساميون القدامى فى ارض بابل ضمير (هي) — قبل ابدال همزته هاءا — بصيغة (ايا — Ea) على الاله الذكر (ماء الغمر)

وبمرور الزمن تخصصت فى العربية صيغة (هو) بالمذكر وصيغة (هي) بالمؤنث . وتظهر (هي) بمعنى التانيث فى اللاتينية (ايا : ea)) اي نفس اسم الاله (ماء الغمر) .

ومثل هذا التخصص مالوف فى التطور اللغوي حين تظهر لفظتان بمعنى واحد مع وجود معنى آخر لا لفظ له . فالمادة أن المعنى المحتاج الى لفظ يعبر به عن وجوده يختطف احد اللفظين المترادفين . وهكذا اختطف معنى التانيث (هي) واستاثر بها لنفسه .

فعندئذ تفاقمت فوضى التانيث والتذكير فى العربية . ذلك بان الجماد كذي الروح لابد من الاشارة اليه بضمير ما . وقد كان يقال للجماد (هو) و (هي) دون تمييز عندما كان معنى الكلمتين واحدا ، اي عاما لثلاثة اصناف : الذكور ، والاناث ، والاخلاء . وهكذا صار بعضهم يقول : هو الروح وهو العنق وهو السكين وهو الطريق وهو السبيل .. وبعضهم يقول : هي الروح وهي العنق وهي السكين وهي الطريق وهي السبيل ، اي انهم اضطروا الى تذكير الجماد الخلو او تانيثه لانهم لم يجدوا ضميرا ثالثا يخصونه به كما خص الانكليز مثلا ضمير it بالخلو الغائب المفرد (لكنهم استعملوا نفس الضمائر للمذكر والمؤنث والخلو فى الحالات الاخرى اي فى حالات الخطاب والجمع) . ومع الزمن استقر التانيث فى العربية لبعض الاخلاء كالنار والحرب والدار، واستقر التذكير لبعضها كالجبل والشهر والليل والنهار ، وظل بعضها الآخر هائما مترددا بين الحالين اي يؤنث ويذكر دون تمييز كالروح والعنق والسكين ..

من جهة اخرى نجد ان التاء ايضا قد تخصصت بالتانيث فى مثل الوالدة والمراة والسعلاة والجنية ، ومن هنا صارت العادة ان تعامل كل اسماء الاخلاء المنتهية بالتاء معاملة المؤنث وكانما توهم قدامى العرب — كما توهم النحاة من بعدهم — ان تاء البانة والركوة والخيمة والرابية ايضا تعني التانيث فقالوا : هي البانة وهي الركوة وهي الخيمة .

وبتعبير آخر ان التانيث (الحقيقي) قد تفاعل فيه ضمير (هي) فى مثل هي الاتان ، مع تاء التانيث فى مثل الذئبة والفتاة ، فصارت (هي) تستعمل كقاعدة عامة مع اسماء الاناث سواء اكانت منتهية بالتاء ام لم تكن ، ومع اسماء الاخلاء المنتهية بالتاء . وقد عوملت هذه الاسماء معاملة الاناث فى مختلف حالات الكلام ، فصاروا يقولون : هي الاتان وهي الشمعة وهي الغابات .

اما ما يدل على الذكر والانثى من الاسماء غير التالية مثل الفرس فيؤنث اذا قصدوا الانثى ويذكر اذا قصدوا الذكر .

واما الاسماء التي يجوز نطقها بالتاء وبدونها كالنجمة والليلة فقد انثوها مع التاء وذكروها بدونها فقالوا : هو النجم وهي النجمة وهذا الليل وهذه الليلة ، وذلك الماء وتلك الماءة . لكن الضفدعة انثوها فى كلتا الحالتين فقالوا : تلك الضفدعة وهذه الضفدع ، لانهم اعتبروها انثى فى كلتا الحالتين ، اما ذكر الضفدع فسموه الملجوم .

واذا كانت حياة الاستقرار والاجتماع في صعيد قد ادت الى ثبوت القواعد اللغوية ، مثل التأنيث بالفتحة كقاعدة عامة في اللاتينية ، فان حياة التنقل في المعربة وتكرار افتراق اهلها واجتماعهم على غير نظام قد جعل من المعربة مختبرا لغويا تقع فيه تجارب لغوية كثيرة التنوع والتعقيد دائمة التفاعل والتمخض والتولد . (وقد استمرت المعربة تصدر نماذج منها الى الخارج، لغات ولهجات، على السنة الاريين والحاميين والساميين ، منذ سحيق العصور) .

وبنتيجة ذلك التفاعل والتمخض والتولد في المعربة صار بعض القبائل يؤنث بعض اسماء الاخلاء كما رأينا ، وبعض القبائل يذكرها ، وبعضهم يؤنثها ويذكرها. فلهذا اختلف اللغويون فيما يؤنثون ويذكرون من اسماء الجمادات لان بعضهم يروي عن هذه الطائفة وبعضهم عن تلك .

وقد اخذ المحدثون من معاصرينا يميلون الى اعتبار (هو) ضميرا عاما للتذكير والتجريد من المنسل (1) معا ، فقل اليوم من يقولون (هي الطريق) واقل منهم من يقولون (هي السوق) فيما عدا قولهم: السوق السوداء والسوق المشتركة . واما كلمة (السلم) فلا نظن اننا قراناها مؤنثة لاحد من المحدثين ولا حتى المتنطسين منهم . واما (الرمح والغول) فلا نذكر انهما مرا بنا شخصيا مؤنثين في شعر او نثر حديث ولا قديم، بالرغم من ان اللغويين ادرجوهما ضمن الاسماء المؤنثة .

وفي اللهجة المصرية يؤنثون الامضاء والهناء مثلا وينطقونهما الامضة والهنة لانتهائهما بالفتحة ، وفي اللهجة المغربية يؤنثون الزيت لانتهائه بالتاء . وبعض العراقيين يؤنثون الراس والباب والبطن ، بل ان بعض ضعاف الكتاب من معاصرينا يفعلون ذلك ايضا ، وقد وجدناه حتى عند ذوي الاسماء الآفاقية (اي التي طبقت شهرتها الآفاق) .

هذه البلبلة التي كانت شغلا شاغلا للغويين القدامى ، هي التي حدت ببعضهم الى ان يقول بجواز التأنيث والتذكير في جميع اسماء الجمادات التي لا تدل صيغتها على التأنيث . واصوب من هذا هو الاتجاه الذي ينتحيه التطور في هذا الجيل كالذي نوهنا به ، اي تغليب التذكير على الاسماء الخلوة ، الا ما ورد في صيغة التأنيث او استقر في الكلام تأنيثه حتى في الدارجات كالشمس والارض والحرب والنار ..

ونشهد لقدامى العرب انهم اصابوا حين انثوا بعض الاسماء مع خلوها من علامة التأنيث كالظئر والمرضع والحامل ، لان هذه الصفات لا تكون الا في الاناث ، ولو انهم — العرب — شذوا حين عمموا صفة الولادة على الرجل . ويبطل استغراب القارىء لقولنا هذا اذا تذكر انهم يسمون الاب (الوالد) مع استحالة الولادة عليه . واضفاء صفة الولادة على الاب وهو منها براء ليس كذلك من باب مجاملة المراة او الخضوع لسطوتها ، وانما جاء من اطلاق (الوالدين) على الام الوالدة والاب ، كما اطلقوا (القمرين) على الشمس والقمر . وقد اطلقوا عليهما (الابوين) ايضا ، لكنهم لم يسموا الوالدة ابة كما سمو الاب والدا .

الا ان ذلك المنطق — في الظئر والحامل والمرضع — يطير هباءا في مثل : الخادم والعاثر والرسول والضيف وامثالها من الاسماء التي تطلق على الذكر والانثى ، اي ان الصيغة في هذه الاسماء يمكن اعتبارها خنثى ، وانما تكون ذكرا او انثى حين تميزها قرينة من الضمائر او غيرها حيث يقال : هي الخادم ، وهن العاثرات ، وتلك الرسول ، وهذه الضيف .. او : هو الخادم وهم العاثرون ..

تانيث الجموع :

والآن وقد رأينا التأنيث في حالتيه ، اي نشوئه من اضافة التاء اولا ومن استعمال ضمير (هي) ثانيا ، نأتي الى ظاهرة اخرى منشؤها اختلاط معنى الجمع بالتأنيث ، في كلتا الحالتين .

ان معاملة بعض الاخلاء من الجمادات معاملة الاناث قد سرت عدواها الى جموع تلك الجمادات ثم الى جموع كل الجمادات ، فصارت تؤنث بالتاء ويشار اليها بما يخص الانثى المفردة من الضمائر واسماء الاشارة والصفات ، ما تجتمع نماذجه في مثل قولك : تلك هي (الجبال) الشماء الزاهية التي تسر رائيها . فجميع الالفاظ في هذه العبارة خاصة بالانثى مع انها تدل على الجبال التي مفردها (الجبل) مذكر .

---

1) نقصد بالمنسل — زنة المبرد — آلة التناسل للذكر والانثى .

وتعامل الاخلاء احيانا معاملة جمع المؤنث السالم فيقال « انهن عصور متطاولات ودهور داهرات » .

فاذا اضفنا الى هذا جموع المؤنثات الحقيقيات من بني الانسان والحيوان علاوة على بعض أسماء الذكور التي تجمع بالتاء كاليمانية والخيالة ، وتقول الرجال وتفعل — مما ظنوه تأنيثا — اتضح لنا لماذا تغلب التأنيث على اكثر الجموع ، وعرفنا لماذا قال شعرور النحاة :

ان قومي تجمعوا وبقتلي تحدثوا
لا ابالي بجمعهم كل جمع مؤنث !

وما سميناه شعرورا لفئاتة شعره لكن لانه زعم بالاضافة الى ذلك ان (كل جمع) مؤنث ، متجاهلا جموع الذكور مثل : هم الرجال ، فعلوا ، ويفعلون ، وفاعلون . ولو قد قال بدلا من ذلك « رب جمع مؤنث) لاحسن واصاب ، بمعنى أن (رب) للتكثير لا للتقليل .

لهذا فيما نظن موجز حكاية هذا التأنيث اللغوي الذي بلبل بال اللغويين والنحويين ، قديما وحديثا ، من شرقيين ومستشرقين — المسؤول فى احداثه ضمير (هي) الذي خدع العرب الاقدمين بمعنييه للتذكير والتأنيث ، وشريكته فى الجرم (التاء) التي خدعت العرب الاقدمين والنحاة من بعدهم بمعانيها الكثيرة المتشابكة .

علم الأصوات الحيوانية عند العرب

الأستاذ عبد الهادي الفضيلي أستاذ اللغة العربية بكلية الفقه
"النجف الأشرف العراق"

يعزو تاريخ علم النفس وضع نظرية التعلم الشرطي الى العالم الفسيولوجي الروسي ايفان بتروفيتش بافلوف Pavlov المتوفى 1936 م .

وهي من مهمات نظريات التعلم ومن مهمات موضوعات علم النفس .

ويعني التعلم الشرطي : ذلك الترابط الآلي بين الاستجابات الطبيعية والمنبهات الصناعية الشرطية ، والذي تنوب فيه اشارات ورموز اشارة السلوك عن المنبه الاصلي .

وقد توصل اليها العلامة بافلوف من تجاربه التي اجراها على الكلب الذي كان يثبته على مائدة التجارب.

حيث كان يضع على لسان الكلب مقدارا من مسحوق اللحم المجفف ، قارعا جرسا كهربائيا قبيل وضع المسحوق في فم الكلب .

ولاحظ بعد أن كرر التجربة اكثر من مرة ان قرع الجرس الكهربائي وحده كاف في امراز لعاب الكلب .

واعاد التجربة مستبدلا قرع الجرس باضاءة مصباح امام الكلب وقبيل وضع المسحوق في فمه ايضا.

ولاحظ ان اضاءة المصباح وحدها بعد تكرار التجربة كافية في ان يسيل لعاب الكلب عند رؤيتها .

وثالثة اعادها وهو يربت على ظهر الكلب او كتفه وقبيل وضع المسحوق في فمه ايضا .

فكانت النتيجة ذاتها .

فاهتدى من هذا الى ان المنبهات البديلة او ما يسميها بـ (المنبهات الشرطية) تستدعي الاستجابة أو ما سماه بـ (الفعل المنعكس الشرطي) كما تستدعيها المنبهات الطبيعية .

وقد اطلق على تعلم الحيوان الاستجابة للمنبهات الشرطية مصطلح (التعلم الشرطي) .

وانتهى ايضا الى ان هذا اللون من التعلم موجود في جميع الحيوانات حتى احطها .. والى انه يستطاع بواسطة تفسير جميع مظاهر السلوك الانساني والحيواني (1) .

ونحن عندما نرجع الى تراثنا العلمي العربي نجد جذور هذه النظرية تبدأ وبتفصيل من قبل العلامة النحوي العربي رضي الدين الاستراباذي المعروف بـ (الرضي) والمتوفى عام 684 هـ ، وذلك في كتابه النحوي (شرح الكافية) عند دراسته موضوع (الاصوات) .

قال :

« وثالثها : أصوات يصوت بها للحيوانات عند

1) أصول علم النفس للدكتور احمد عزت راجح 281.

طلب شيء منها ، اما المجيء كالفاظ الدعاء نحـــو (جوت) و (قوس) ونحوهما ، واما الذهـــاب كـــ (هلا) و (هج) و (هجا) ونحوها ، واما امر آخر كـــ (سا) للشرب و (هدع) للتسكين .

وهذه الالفاظ ليست مما يخاطب به هـــذه الحيوانات العجم حتى يقال انها اوامر او نواه ـــ كما ذهب اليه بعضهم ـــ لانها لا تصلح لكونها مخاطبة ، لعدم فهمها للكلام كما قال الله تعالى : (كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الادعاء ونداء) (1) ، بل كان اصلها ان الشخص كان يقصد انقياد بعض الحيوانات لشيء من هذه الافعال فيصوت لها اما بصوت غير مركب من الحروف كالصفير للدابة عند ايرادها الماء ، وغير ذلك، واما بصوت معين مركب من حروف معينة لا معنى تحته ثم يحرضه مقارنا لذلك التصويت على ذلك الامر اما بضربه وتاديبه ، واما بايناسه واطعامه ، فكـــان الحيوان يمتثل المراد منه اما رهبة من الضرب او رغبة في ذلك البـــر .

وكان يتكرر مقارنة ذلك التصويت لذلك الضرب او البر الى ان يكتفي الطالب بذلك الصوت عـــن الضرب او البر لانه كان يتصور الحيوان من ذلـــك الصوت ما يصحبه من الضرب او غده فيمتثل عقيب الصوت عادة ودربة مضار ذلك الصوت المركب مـــن الحروف كالامر والنهي لذلك الحيوان .

وانما وضعوا لمثل هذا الغرض صوتا مركبا من الحروف ولم يقنعوا بساذج الصوت لان الصوت من حيث هو هو مشتبه الافراد وتمايزها بالتقطيع والاعتماد على المخارج سهل ، فلما كان الافعال المطلوبة مـــن الحيوانات مختلفة ارادوا اختلاف العلامات الدالة عليها فركبوها من الحروف .

وما ذكرنا من الترتيب يتبين منه كيفية تعليـــم الحيوانات كالدب والقرد والكلب وغير ذلك .

هذا .. وانا لا ارى منعا من ارتكاب صيرورة هذه الاصوات المقارنة في الاصل للضرب او البر لما استغنى بها الطالب عنهما اسماء افعال بمعنى الامـــر ـــ كما ذهب اليه بعضهم ـــ فتكون اوامر ونواهي ، لان الله سبحانه وتعالى جعل العجماوات في فهم المطلوب من هذه الاصوات بمنزلة العقلاء ، فلا بأس بأن تخاطب وتكلم بما تفهمه كالعقلاء » (2) .

وفي ضوء المقارنة بين هذا النص (الذي نقلتـــه بكامله ليفاد منه) وبين تجارب بافلوف ونتائجـــه .. نستطيع ان ننتهي الى ان الرضي كان سابقا في الاهتداء الى هذه النظرية (نظرية التعلم الشرطي) .

وربما افادها من ملاحظاته المتكررة لحيـــاة الحيوان وسلوكه حيث لم يذكر تاريخيا انه قام بتجارب مماثلة لما قام به بافلوف .

والنظرية كما تاتي نتيجة لتجارب تجري في معامل الترويض ، تاتي ايضا نتيجة للملاحظـــة المنظمـــة الدقيقة للسلوك .

ونستطيع ان نعلل عدم اعطاء اهتداء الرضـــي للنظرية الاهتمام الدراسي المطلوب ، بمجيئه سابقـــا بقرون لوجود علم النفس ، ولانه كان في مجال غيـــر نفسي وهو المجال النحوي .

وعامل آخر عدم دراسة نظريات الرضي اللغوية وغيرها من قبل الباحثين العرب او غيرهم ـــ فيمـــا اعلمه .

فقد خلف الرضي ثروة علمية ضخمة ، وذلك في كتابيه (شرح الكافية) في علم النحو العربي (وشرح الشافية) في علم الصرف العربي ، اللذين عالج فيهما مسائل ذينك العلمين ونظرياتهما معالجة واعية اتسمت بالاصالة في الراي والعمق في البحث والانتهاء الى آراء خاصة ذات قيمة مهمة في المجالين اللغوي والنحـــوي منحته لقب (المحقق) بين العلماء (ونجم الائمـــة) باستحقاق .

واخيرا :

للعالم بافلوف تاكيد النظرية بالتجربة العملية ، وبلورتها الى مصطلح اخذ مجاله العلمي .

---

1) 171/ البقرة .
2) شرح الكافية 80/2 و 81 .

ملاحظات حول النقد الأدبي

الدكتور محمد رجب البيومي "القاهرة"

يطيلون الحديث عن معنى النقد فى اللغة فيلمون بكل ما قالت المعاجم فى مادة نقد ومشتقاتها ثم يحاولون ان يعقدوا صلة ما بين كل معنى وما تعورف عليه الآن من معنى النقد الادبي ، وذلك جهد ان ابان عن حسن التصرف وبراعة الاحتيال فانه يكثر الحديث فى غير طائل ، والاوفق ان نختار من معاني الكلمة اللغوية ما يمت بالصلة القريبة الى المعنى الاصطلاحي بلا تزيد فى التفسير لنصل الى الحقيقة دون تصعيب .

واذا كان من أوضح معاني النقد فى كتب اللغة انه تمييز الجيد من الرديء ، تقول نقدت الدراهم وانتقدتها بمعنى انك ابنت الزائف من الصحيح ، وميزت الجيد من الرديء ، فان هذا المعنى الواضح هو القريب من مدلول النقد فى الاصطلاح الادبي لان الناقد لا يخرج عن كونه صيرفيا ماهرا ، يعرف الزائف من الصحيح ويميز الجيد من الرديء ، غير ان مادته هي الاساليب الادبية بمختلف فنونها واجناسها ، فهو اذن جوهري المعاني والالفاظ ، يزن الخواطر والمشاعر والتعابير بميزانه الادبي ويبعث بفكره وراء كل كلمة وخاطره مبينا مكان ذلك من البناء الفني المتكامل للجنس الادبي فهو بعمله هذا من المدلول اللغوي قريب قريب واذا كان الناقد الادبي يعمد الى تصحيح الخطأ وتقويم المعوج وفى ذلك من توجيه اللوم ضمنيا الى صاحب الاثر المنقود ما قد يقع منه موقع الالم وعدم الارتياح فان من معاني النقد اللغوية ما يمت بصلة قريبة الى ذلك ، اذ أن العرب قد يستعملون النقد بمعنى العيب والانتقاص فقد جاء فى قولهم نقدته الحية بمعنى لدغته ، ونقدت رأسه بأصبعي بمعنى ضربته وفيما يروى من حديث أبي الدرداء ان نقدت الناس نقدوك بمعنى ان عبتهم عابوك ومن هنا رجح بعض الباحثين غلبة معنى النقد على مدلول المؤاخذة والتخطئة مشيرا الى ان اللغة قد وضعت لفظ التقريظ لما يقابل المؤاخذة من المديح والاطراء اخذا من قول العرب قرظت الجلد اذا دبغ بالقرظ فحسن وزين وجمل وقد شاع معنى التقريظ اليوم شيوعا ظاهرا ، اذ نرى نفرا من الناس يحرصون على كتابة مقدمات لمؤلفاتهم تتضمن المديح الخالص دون ان تتعرض — الا فى القليل — لمخالفة صريحة فى الراي والاتجاه ، ونحن لا نرفض التقريظ اذا صدر عن راي وامتقاد ووافق موضعه من البحث الرائع والعمل الممتاز ، فهناك من الآثار الادبية ما هو جدير بالتقريظ الجميل ، ولكن المشاهد المؤلم أن اكثر من يتجهون الى التقريظ لا يضعونه الموضع الصحيح فربما رجح عندهم البهرج وشال الصحيح .

اذن فتمييز الجيد من الرديء ، والعيب المنتقص كلاهما من مدلول المعنى اللغوي لكلمة النقد فاذا اتجهنا الى المعنى الادبي للنقد عند العرب وجدناه يستعمل فى القديم بمعنى التحليل والشرح والتمييز والحكم فالنقد لا يخرج لديهم عن دراسة الآثار الادبية وتفسيرها وتحليلها ثم بيان مداها من الاصابة والخطأ مقدرين درجتها الفنية شارحين اسباب الاستحسان

والاستهجان وذلك ما يراه المحدثون اذ يقولون عن النقد انه التقدير الصحيح لاي اثر فني مع بيان قيمته في ذاته ودرجته بالنسبة الى سواه ، واذا كان النقد الادبي اليوم في جوهره هو دراسة الاسلوب فكرة وتصويرا وتعبيرا واحساسا مع الحكم عليه فان ذلك ما يلتقي بمعنى النقد في كتب الادب القديمة من ايسر السبيل .

واذا كانت الكتب المؤلفة في النقد العربي القديم، هي الجامعة لمذاهب العلماء والادباء في الفن ، والحافلة بآراء شيوخ الادب في النثر والشعر ، فاننا لا نصل منها الى تحديد اول من اطلق كلمة النقد على مدلولها الادبي من هؤلاء ، واقدم نص وردت فيه هذه الكلمة يرتفع الى البحتري حين تحدث عن ابي العباس ابن ثعلب فقال عنه : « ما رايته ناقدا للشعر ولا مميزا للالفاظ » ولكن رواية البحتري جاءت على لسان عبد القاهر في«دلائل الاعجاز» فلعله روى المعنى دون اللفظ، واظهر من نص على هذه الكلمة صراحة هو ابو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي من علماء القرن الرابع (337) هـ حين سمى كتابه نقد الشعر وصرح بانه يبحث في تخليص جيده من رديئه ، وقد سبقه الى هذا المضمار محمد بن سلام الجمحي (232) هـ في كتابه «طبقات الشعراء» والجاحظ (255) هـ في «البيان والتبيين» وابن قتيبة (276) هـ في «كتاب الشعر والشعراء»، الآن هؤلاء الثلاثة لم يشيروا الى كلمة النقد اطلاقا حتى جعلها قدامة اسما لكتابه فتعورفت واشتهرت، وترددت بعدذلك في ماكتبه الآمدي والجرجاني والزمخشري وابو هلال وابن رشيق حتى اصبحت علما على من ادبي طائر الصيت ، ويخيل الى ان خلف الاحمر (180) اول من اشار اليها من قريب دون ان ينص على لفظها الصريح وكانه حوم ولم يقع ، فقد روى صاحب طبقات الشعراء (1) ان قائلا قال له : اذا سمعت انا بالشعر استحسنه فما ابالي ما قلت فيه انت واصحابك فقال له : « اذا اخذت انت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف انه رديء هل ينفعك استحسانك له » والصيرفي في اللغة هو الناقد وقد قرنه خلف الاحمر بمن يفحص الشعر ويزنه بميزانه الصحيح ، ثم صار الفاحص ناقدا دون تفريق . هذا الناقد الذي يجلس من الاثر الادبي مجلس القاضي فوق منصة القضاء ، يحلل البواعث ويكتنه السرائر ويتعمق المعاني ما موقفه من النص المنقود ؟ أيقتصر في نقده على ايضاح مشاعره الذاتية ازاء النص فيجيء حكمه النقدي صدى لشعوره النفسي ومعبرا عن مدى استجابته الشخصية للنص المدروس أم يتقيد بقواعد علمية مرسومة تعارف عليها السابقون وجعلوها مناط الاحتذاء والترسم لقد طال النقاش حول الذاتية والموضوعية فانبرى الذاتيون ينادون بان الناقد ليس آلة في يد المقررات السابقة يسير في ضوئها ، ويمشو الى نارها ويحرص على التزامها دون انحراف ، فان له من مشاعره الخاصة وثقافته النيرة ، وبصيرته الناقدة ما يستطيع به ان يضع بعض المقررات الجديدة التي تفتح اتجاهات مغلقة ، وتشير الى طرق حديثة في مجال التعبير والتصوير ، وبذلك يتقدم الادب في شتى مجاليه ويضيف اللاحق الى السابق ما يطرد به النمو الادبي نحو الكمال هذا بعض ما يقوله الذاتيون ، اما انصار النقد الموضوعي ، فيرون ان الاهواء الشخصية تتحكم ، والميول النفسية تسيطر فاذا تجرد الناقد عن كل مصطلح مقرر امكنه تحت هذه الميول المتحكمة ان يمدح المخطيء ويذم المصيب ولن يعدم من اوجه التحلل والافتعال ما يظهر نقده مظهر المحايد المتجرد ، واذا استطاع بعض الحصفاء ان يدركوا مآخذ الضعف في انحرافه فان الكثرة من القراء سينخدعون بطلائه ، ويسيرون في تياره وربما احتذى الناشئة حذوه فاندفعوا الى محاكاة ادب هابط رفعه ناقد مغرض لحاجة في نفسه فامتد ضرره السيء الى نطاق بعيد هذا بعض ما يقوله الموضوعيون ، وتلك قضية تلزمنا ان نقول ان الحدود ليست فاصلة بين النقد الذاتي والنقد الموضوعي ، اذ ان النقد الذاتي مهما استجاب لتاثيره النفسي وتجاوبه الشعوري ومهما عبر عن انفعاله الخاص نحو اثر يقرؤه ويتذوقه فانه يصدر في تجاوبه واستجابته عن حصيلة قراءات سابقة تتفق على استحسان الجيد واستهجان الرديء ، وهو بعد لم يستطع ان يشق طريقه في ميدان النقد بحيث يصبح ذا تاثير كبير على قرائه الا بعد رسوخ في النظر المستقيم وادمان على البحث الجيد ، ومواصلة للدراسة المنقبة عن مطاوي المعارف ومجاهل الآراء ، وهو بكل هذه الدراسة الموضوعية لا يستطيع ان يكون ذاتيا يتجرد عن جميع ما قرره السابقون من أحكام ، كما ان الناقد الموضوعي مهما التزم القرارات المعلومة وتقيد بالمعارف المرسومة ونهج منهج المحافظين على قضايا الفكر ومذاهب البحث فانه انسان يحس ويتاثر

1) ص 8 طبقات فحول الشعراء .

ويستجيب ، وله ذاتيته التي تدعوه الى التفاعل مع النص تفاعلا يسير به الى تحبيذه في ضوء ما يعلم من المقررات فعنصر الذاتية قريب منه قرب الموضوعية من صاحبه ؟ فليست هناك حدود فاصلة تجعل الناقد الموضوعي ينعزل انعزالا تاما عن الناقد الذاتي ، غير اننا نلحظ السمة البارزة لدى الناقد فاذا غلبت الذاتية على احكامه عد من انصارها واذا غلبت الموضوعية عليه كان ناقدا موضوعيا ، ومن خير الادب ان يوجد الناقد الذاتي والناقد الموضوعي معا ليبتكر الاول ويجدد ويدعو الى آفاق جديدة تفيض بالضياء فيطرد النمو الادبي وتتسلسل الحلقات الجديدة على تناسل الزمان ، أما الناقد الموضوعي فيقف حائلا دون الشطط الجامح ، وحاجزا دون التهور في الراي والاسراف المغرق ، وسيمر الزمن في دورته لينشأ في الجيل اللاحق من يزن آراء الذاتيين والموضوعيين معا ، فيرمي بالزبد ويبقى الصريح .

واذا كنا نحب الادب ونحرص على الاستمتاع بصوره والافادة من افكاره والالتذاذ بموسيقاه فان حبنا للادب يدفعنا تلقائيا الى حب النقد ، اذ ان النقد يتولى شرح الاثر الادبي وتحليله فيسلط اشعته القوية على زواياه الخافية ، ويهدي القارىء الى مفتاح دقيقة قد تغيب عن ذهنه فيجيء عمله مكملا لعمل الاديب ، وقد يضيق كثير من المنشئين بهؤلاء النقاد ، ويتبرمون بما يبدون من ملاحظات واذكر اني قرأت قصة غريبة تهدف الى السخرية من النقاد وتصفهم بالفشل والجدب وتتحداهم ان يضعوا اثرا من الآثار الفنية التي يعملون فيها معاولهم الهادمة ولعل كاتب القصة ممن تعرضوا الى نقد متتابع ازعجه واقلق راحته ، فاندفع يثأر لنفسه من قوم يحملون معاول الهدم وادوات البناء معا ، لان الناقد حين يهدم اثرا فنيا انما يدل على نواحي ضعفه ومواضع تهافته ليتجنبها من يزاول الانتاج وهو في الوقت نفسه يدل على طريقة الانشاء الجيد هادما بانيا في وقت واحد وكل ناقد يعمد الى الهدم فقط دون ان يشير بالعلاج المسدد لا يؤدي رسالته كما يجب ان تكون ، والقارىء ظافر حين يقرأ النص ثم يطالع نقده لانه حين قرأ النص قد خرج عنه لا محالة بفكرة ما دقيقة او مضطربة ، فوزنه بميزانه الشخصي الذي تخلقه الطبيعة في نفس كل قارىء يقرأ ويحكم فاذا قرأ بعد ذلك نقدا جيدا لهذا الاثر ، فانه يوجهه الى ما فاته لدى قراءته الاولى من ملاحظات وربما دفعه الى نهج يلتزمه عند القراءة فتنمو في نفسه بذرة ناقد حقيقي يشرئب للنمو ، وقد يشق طريقه الى الميدان ، أو يكتفي بما اتيح له من قوة الملاحظة وسعة الافق حين درس وجهة النظر الجديدة فيما طالع ودرس ، واذا كانت فائدة القارىء عظيمة فان فائدة صاحب الأثر الفني اعظم وادسم ، لان كل صاحب عمل نظري أو فني يحب أن يستطلع آراء المتخصصين فيه ، فهو يشعر في أطوائه برغبة ملحة الى الاستماع لكل ما يدور حوله.من وجهات النظر المختلفة ، فاذا صادف ناقد مخلصا لهدفه فانه يكمل نقصه بما يبدي من اعتراض او مؤاخذة ، ولن يضيره في شيء أن يحصي الناقد اخطاءه في دقة وتعليل لانه اذا آلمه من هذه الناحية فسيسره حين يتعرض بالتحليل الكاشف الى مواطن الابداع في فنه وموضع النبوغ في نظراته ، وقد يكون سفيره الى القراء، اذ يوثق صلاتهم به حين يفتح عيونهم على منافذ جديدة في انتاجه لم تكن لتتاح للكثرة القارئة دون ناقد نزيه ، وعلى أن من الخطر كل الخطر ان يصبح الاديب تلميذا لناقده يخضع لتوجيهه ويرضى بقبول توصياته ، اذ ان من الناقدين من تشمخ نفوسهم الى الاستعلاء فيدعون انهم اساتذة الادباء مع انهم في حقيقة نفوسهم لا يعيشون على غير تراث هؤلاء التلاميذ المزعومين.فلولا ان الشاعر او الكاتب قد أبدع أثره الفني ما وجد الناقد مجالا للحديث ؟ وفي الناس من يشترط في الناقد ان يكون اديبا منشئا زاول الانتاج الفني ليكون ابصر بمضايقه، وادرى بمنعرجاته وقد يكون ذلك ميسورا لدى بعض الموهوبين.من النقاد، الا انه ليس أمرا عاما لدى الجميع ، وقد كان الرافعي رحمه الله يشترط في ناقد الشعر أن يكون شاعرا ، وهو اشتراط عسير التحقيق من ناحية وغير ضروري من ناحية أخرى اذ ان أكثر نقدة الشعر المجيدين في القديم والحديث ليسوا بشعراء ولم يمنعهم ذلك عن تاليف الكتب الناجحة والمقالات الحاسمة في فن الشعر ومآخذه على ان الناقد من الاديب قريب غير بعيد اذ أن ميدان الفن الادبي هو الانسان والطبيعة فالاديب اما ان يتعرض للنفس الباطنية بما يموج بها من تيار العواطف والنوازع فيصدر عن الذات الداخلية ناظرا الى العلاقات البارزة في الصلات الاجتماعية والمتناقضات البشرية والموافقات الانسانية ومتخذا من كل ذلك مادة جميلة يقرأ فيها الناس نفوسهم الخفية في غبطة وارتياح ، واما ان يتعرض للطبيعة من حوله صامتة وناطقة فيتحدث عن الطير والحيوان وعن النبات والشجر والجماد وسائر ما يدهشنا به الكون من صور ومشاهد متخذا من كل ذلك مادة جميلة يقرأ فيها الناس نفوسهم